



ليلى المريضة في العراق

تاريخ يفصّل وقائع ليلى بين القاهرة و بغداد
من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٨ و يشرح
جوانب من أسرار المجتمع وسرائر القلوب

« فتنتني رسائل ليلى المريضة
في العراق »
محمد العشماوى بك

« لقد ابتكر زكي مبارك فناً جديداً حين
نقل الغزل والتشبيب من الشعر إلى النثر »
على الجارم بك

الجزء الثاني

١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

مطبعة ابن عبد الرحمن

٢٠

تأهبت « ظمْياء » للكلام فاستوقفتُها لحظتين لأنظر الأشرطة السينمائية التي يعرضها الشقاء أمام خيالي ، فهالني أن أشهد ألوف المناظر وفيها المفرح والمحزن والأخضر والأسود ، وضجّت في أذني تلك الكلمة الباغية التي قالها أحد الزملاء المصريين وقد ترامت الأخبار بما بيني وبين ليلى من خلاف ، قال ذلك الزميل وهو يلتهم حِساء البقلة الحمقاء :

« كان رأيي من أول يوم أن الحكومة المصرية أخطأت فى اختيار زكي مبارك لمداواة ليلى المريضة في العراق وهي تعلم أنه عجز عن مداواة ليلى المريضة في الزمالك »

أنا عجزت عن مداواة ليلى المريضة في الزمالك ؟

أنا ما عجزت ، وإنما رأيتها لئيمة لا تحفظ الجميل فضنَنْتُ عليها بالطب والدواء

وأخذت أدرس ماصرت إليه في هوى ليلى ، فحب هذه المرأة هو أخطر ماعرفت في حياتي من ظلام وضلال

وإنما كان كذلك لأنه ابتدأ بالعطف : عطف الصحيح على العليل ، والعطف يؤصّل جذور الحب ويهيّئ القلب للهيام العَصُوف

كانت ليلى تصحّ على يدي من يوم إلى يوم ، وكان حالي معها حال الجنّان الذي يتعهد إحدى الشجرات بالسقي والرعاية فتنمو عواطفه بنموّها من حيث لا يعرف ، ثم تصبح الشجرة وهي معبودته من دون البستان .

ورأت ليلى شغفي فلم تفطن إليه ، ولعلها كانت تراه لوناً من ترفق الأطباء ، فمضت تناضلني نضال الصحيح للصحيح ، ولم تدر ماتقل المشرط إلى دمي ، وآه ثم آه مما ينقل المشرط ، فالناس لايفهمون كيف يعيش العليل وجسمه موبوء بالجراثيم على حين تكون جرثومة واحدة ينقلها المشرط إلى جسم الطبيب وهو صحيح كافيةً لقتل الطبيب

الناس لايفهمون هذه الظاهرة وهي عندهم من الغرائب

ولكن تعليلها سهل ، وهي أول درس تلقيته بكلية الطب في باريس

السبب يرجع إلى شعور الطبيب بخطر الجراثيم ، فهو حين يشعر بانتقال العدوى إليه ينفعل جسمه كله دفعة واحدة فيصرعه المرض

وهذا يشبه تمام الشبه مايقع في عالم الأخلاق ، فالرجل صاحب الوجدان السليم تؤذيه الهفوة الصغيرة فيقضي سائر عمره في استغفار ، وقد يقتله تأنيب الضمير ، ولا كذلك المريض بالجسم والوجدان ،

فالأول يعاني العلل المهلكات ثم لا يموت قبل أوان الموت ، والثاني يُجرم نحو نفسه ونحو الإنسانية ثم يعيش وهو منشور الحال ، لأنه يجهل خطر مايصنع .

ومن أجل هـذه المعاني عشت شقياً في حياتي ، فأنا تلميذ قديم من تلاميذ الغزالي ، وكل شيء يجوز عندي إلا إيذاء الناس ، وقد يتفق في أحيان كثيرة أن أهجم على خصومي بعنف ، ولـكنه عنف مصطنع لأني لا أحشو المسدس بغير البارود ، فيثور من حولهم الدخان ، ثم يسلمون لأن القذيفة لم يكن فيها رصاص

ويصنع خصومي غير ما أصنع ، لأني غبيّ وهم أذكياء !

هم يحشون المسدسات بالرصاص ثم يقذفون ، وكم يبقى الرميُ على النبال ؟ !

أولئك أعدائي ، والعداوة الأثيمة تستبيح كل قبيح

ولـكن ما ذنبي عند ليـلى حتى تفضحني بين قومي وتضيِّع مستقبلي في مداواة الملاح ؟

ما ذنبي عند ليلى التي هجرتُ في سبيلها وطني وأهلي ؟

ما ذنبي عند ليلى ؟ ما ذنبي عند عيونها السود وخدها الأسيل ؟

ما ذنبي عند ثناياها العِذاب وصوتها الرخيم ؟

أحبك يا ليلى وأستعذب في هواك كل عذاب

* * *

— ظمياء ، ظمياء

— عيوني ، عيوني

— هاتي التهم الثقال التي تفضلتْ بها ليلاي ، انقليها بترفق فما أحب أن أموت في بغداد ، فمقابرها مهجورةٌ منسيَّة ، كأنها مقابر المحبين ، وليس فيها مسجد أستروح بأن يصلَّى عليّ فيه يوم أموت ، فساجدها تعرف الجمال في القباب ، وتجهل الجمال في المحاريب

— أعرني أذنيك ، يا دكتور

— أعرتك قلبي ، يا ظمياء

— أنت متهم عند ليلى بالشيوعية

— بالشيوعية ؟ وكيف سكتت عني إذاً حكومة العراق ، وبصرها أحدّ من بصر ليلى ولها عيون تنقل إليها كل شيء ؟

— حكومة العراق تحارب الشيوعية الاقتصادية ، وأنت متهم بالشيوعية الوجدانية ، وليلى تعاقب على ذلك

— وأين شواهد هذا الاتهام الفظيع ؟

— ماظلمتْك ليلى ، وإنما ظلمتَ نفسك ، فأنت الذي تقول :

أصْباكَ ما خلفَ الستار وإنما خلْفَ الستائر لؤلؤٌ مكنونُ

والناس في غَفَلاتهم لم يعلموا أني بكل حسانهم مفتونُ

— ما قلت هذا الشعر يا ظمياء

— هو في ديوانك المطبوع

— هذا شعر دسه السفهاء

— وكيف سمحت بنشره في ديوانك ؟

— ما أذكر كيف سمحت ، فقد كنت عضواً في جمعية أبوللون وأرادت تلك الجمعية أن تصحح انتسابي إلى الشعراء فلفقت باسمي طائفة من الأشعار وأخرجتها فى ديوان

— ولكن ليلى تقول إن فى نثرك ما يؤيد هذا المعنى

— وكيف ؟

— في بعض ما نشرتَ في جريدة البلاغ مقال تقول فيه إن الأطلال تملأ روحك بالمعاني لأنها تعيد إلى خيالك تاريخها القديم يوم كانت ملاعب تمرح فيها الظباء

— هذا أيضاً مدسوس

— وكيف ؟

— كان لي بجريدة البلاغ زميل يعطف على أدبي ، هو الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني ، وكان يؤذيه أن تخلو مقالاتي من المعاني الوجدانية ، فكان يضع اسمي على بعض مايبدع من صور الوجدان

— أنت تسيء الدفاع عن نفسك ، يا دكتور

— دليني كيف أدافع عن نفسي ، يا ظمياء ؟

— أما تعرف كيف تدافع عن نفسك ! أنا ألقنك الدفاع عن نفسك : قل إنك تعشق جميع الصور وتهيم بجميع المعاني

هاتى يدك أقبلها يا ظمياء

— أعجبك كلامي ؟

— ماهذا كلاماً ، إن هذا إلا سحرٌ مبين ، فأنا حقاً أعشق جميع الصور وأهيم بجميع المعاني ؛ وظواهر الوجود هي عندي صور شعرية تموج بألوان السحر والفتون . الدنيا يا ظمياء لوحة فنية صاغها بديع الأرض والسموات ، فما فيها من حُسن فهو صُنع فنان ، وما فيها من قبح فهو صُنْع فنّان ، فأنا أدرس المحاسن والمساوي بذوقٍ واحد . وقد أتفلسف ياظمياء فأزعم أن خَلْق الوجه الدميم أصعب من خلق الوجه الوسيم . وعلى أهل الدمامة أن يشكروا خالقهم فقد سوّاهم بعناية ، ثم تلطف فأباحهم التقلب في بقاع الأرض ، وجعل لهم في دولة القبح سلطاناً . فان لم يشكر هؤلاء القِباح خالقهم فسأشكره بالنيابة عنهم ، وسأتصدق عليهم بالعطف والحنان

— دكتور ، أنا أحبك !

وأنا أبغضك ، يا ظمياء !

— أقول لليلى إنك أحسنتِ الدفاع عن اتهامكِ بالشيوعية في الحب ؟

— ما تهمني ليلى وإنما يهمني أن أحاسب خالق ليلى

— احترس يا دكتور ، فهذا كفران

— سأحاسب ربي قبل أن يحاسبني ، فما قضيت شبابي في دراسة الأدب والفلسفة إلا لأعرف كيف أناقشه الحساب ، وسوف تنظرين

— كفرت ، يا دكتور ، كفرت

— الكفر الحق هو أجمل صورة للإيمان الحق

— وكيف ؟

— ماتعرفين كيف وأنت وصيفة ليلى وخدينة الدكتور مبارك ؟

— لست خدينتك

العفو ! العفو ! يا ظمياء

— تشتمني ، يا دكتور ؟

— إنما أداعبك ، يا ظمياء ، فاغفري ذنبي

— يغفر الله لك

— ويغفر الحب ؟

— اسألْ ليلاك

— غضبة الله ولعنة الحب على ليلاي !

* * *

— ظمياء !

— عيوني !

— تلك التهمة الأولى ، فأين التهمة الثانية ؟

— ليلى تتهمك بما اتهمتْ به الضابط عبدالحسيب

— وكيف اتهمتْ ذلك المسكين الذي سارت أخبار شقائه مسير الأمثـال ؟

— اتهمته بخيانة العروبة

— وهي تتهمني بخيانة العروبة وقد أذْوَيت شبابي في خدمة لغة القرآن ؟ ؟

— إن ليلى قرأت خطبتك في نادي المثنّى عن العروبة المصرية وقد نشرتها جريدة البلاد

— وما الذي عابته ليلى على تلك الخطبة ؟

— العيب في ذلك أنكم في مصر لا تفرقون بين العروبة وبين الإسلام

— هذا صحيح ، يا ظمياء

— وهذه جريمة عربية ، يا دكتور

— اسمعي ، يا ظمياء ، ثم بلغي ليلى ما أقول : العروبة يا طفلتي الغالية في حاجة إلى أسناد قوية من الصداقة والعطف ، وأسناد العروبة

لن تكون في الممالك الأوربية ، وإنما ننشدها في الممالك الاسلامية ؛ والسياسي الحكيم هو الذي يتعب في خلق الأصدقاء ، والأمبراطورية البريطانية لم تغنها جيوش البر والبحر والهواء عن التفكير في خلق الأصدقاء . والإسلام قوة يتودد إليها هتلر وموسوليني ، وتشتق روما ولندن وباريس وبرلين في التعرف إلى مدارج هواه ، وليس في بلاد الله قوة سياسية إلا وهي تحسب ألف حساب لغضب المصحف ، فما ذنبي عند ليلى إذا أعلنتُ إسلامي ؟ ما ذنبي عند ليلى وأنا أخلق لقومي وقومها جيوشاً من العواطف والقلوب ؟

— ولكن الاسلام غير العروبة

— تلك يا ظمياء دسيسة استعمارية ، وهي دسيسة حيكتْ شباكها لتقويض الامبراطورية العثمانية ، وقد تقوضتْ : لأن الأتراك عجزت حيلتهم عن قرض خيوط تلك الدسيسة ، فهم اليوم أمة من الأمم ، وكانوا بفضل الاسلام سادة المشرقين

— احترس يادكتور فهذه سياسة ، والسياسة محرمة على الموظف

— أعترف بأني موظف في حكومة العراق ، ولكن لاخوف ، فأنا أتهيب الشر في كل أرض ، إلا في العراق ؛ وأعتقد أن حكومة العراق لا تصادر حرية الرأي إلا إذا صدرت عن المنافقين ، وقد حماني الله من النفاق . وقد عجب ناس من أن تسكت عني حكومة العراق على

كثرة ما قلّبت من وجوه الآراء في الصحف والمجلات . فليفهم الدساسون أن حكومة العراق فوق ما يظنون ، والله من وراء الدساسين محيط ، وسوف يعلمون

— إن العراق يثق بك ، ويعطف عليك ، يا دكتور

— وفي حماية تلك الثقة وذلك العطف أقول : إن أوربا اللئيمة خلقت فكرة العروبة لتقسم أهل الشرق إلى عرب ومسلمين ، وقد أحسستُ هذا المعنى حين بدأت أتعلم اللغة الفارسية في باريس سنة ١٩٢٧ فقد رأيت معجما فارسياً فرنسياً نُشر منذ أكثر من أربعين سنة وفي مقدمته تحريض صريح على قطع الصلات بين العرب والفُرس ، وأعتقد أن مقدمة ذلك المعجم هي السبب في ثورة الأتراك والايرانيين على الحروف العربية

— أخطأ الأتراك وسيخطىء الايرانيون

— وماذا صنعنا لدفع هذا الخطأ ياظمياء ؟ لقد تجشمتْ مشيخة الأزهر ماتجشمتْ وأنفقتْ ما أنفقتْ ، لترسل بعثة من العلماء إلى الهند ، فهل فكرت هذه المشيخة في إرسال بعثة إلى تركيا أو إيران ؟ هل فكرت مشيخة الأزهر في إرسال رجل أو رجلين لتذكير الفُرس بماضيهم في خدمة اللغة العربية ؟ هل فكرتْ في إرسال وفد إلى الغازي مصطفى كمال يذكّره بأن الحقد على العرب الذين خذلوا تركيا

في الحرب لايصح أن ينسيه فضل العرب الأبرار الذين نقلوا إلى تركيا بذور الايمان بالله والرسول ؟

هل قام رجل مؤمن يقول للأتراك : هبُوا سيئات الحاضر لحسنات الماضي ؟

هل قام رجل مؤمن يقول لأهل إيران : إن العرب إخوانكم في الله فلا تجرحوا إحساسهم بهجر الحروف العربية ؟

لقد قمت بهذا الواجب وحدي فأقنعت وزير إيران في العراق ، وفكرتُ في الهجرة إلى إيران لأصلح ذات البين بين العرب والفُرس . ولكن كيف وأنا رجل يرهقه جدول الدروس وتنهب عافيته دفاتر التلاميذ ؟

لقد زار بغداد منذ أشهر صحفيّ إيراني ، ودعاني الأستاذ إبراهيم حلمي للتسليم عليه ، فلم أستطع مخاطبته بغير الفرنسية ، مع أنه نشأ في وطن كان بعض أهله لايعرفون غير العربية ، ولذلك الصحفي جريدة تصدر بلغتين هما الفارسية والفرنسية ، ولو كنا حفظنا العهد لكانت اللغة الثانية عربية لا فرنسية

— يظهر أنك مؤمن ، يادكتور

— أنا ملحد ، ياظمياء ، فما يسرني أبداً أن أحشُر نفسي في زمرة المسلمين الغافلين الذين يفكرون في إصلاح الوثنية الهندية ويغفُلون

عن هداية الثائرين على الإسلام في بلاد كانت من الدرر اللوامع في تاج الإسلام

— أنت مؤمن ، يا دكتور

— أنا كافر ، يا ظمياء

— أعوذ بالله !

— وأنا أعوذ بالشيطان !

— تعوذ بالشيطان ؟ يظهر أنك ملحدٌ حقاً وصدقاً

— اسمعي ، يا ظمياء ، الشيطان مخلوق شريف لأنه لا ينافق ، فهو يعلن في كل وقت أنه من الضالين المضلين ، ولو كشَف كل إنسان عن سريرته كما كشف الشيطان عن سريرته لأصبحنا جميعاً من الملائكة لا من الشياطين

— أنت إذاً تعبد الشيطان ؟

— أنا أعبد الله ، وأحب الشيطان

— قف عند هذا الحد ، يا دكتور

* * *

— ظمياء !

— عيوني !

— أتريني أحسنت الدفاع عن نفسي ؟

— بعض الاحسان !

— وأنا مكتف بذلك ، فما هي التهمة الثالثة .

— ليلى تتهمك بالخداع .

— وكيف ؟

— لا تدري كيف ، وأنت أعظم مخادع ؟

— آمنت بالله ، وكفرت بالحب ؛ أفصحي يا بلهاء !

— اسمي ظمياء

— أفصحي يا ظمياء

— رأتك ليلى تقول في كتاب (الموازنة بين الشعراء) إن الدمع في عين العاشق كالسم في ناب الثعبان ؛ ثم شرحت رأيك فقلت إن العاشق يخدّر محبوبته بالدمع كما يخدّر الثعبان فريسته بالسم . وتقول ليلى إن هذا هو السبب في أن لا تخلو قصيدة من قصائدك أو رسالة من رسائلك أو كلمة من كلماتك من ذكر الدموع . ولك كتاب اسمه « مدامع العشاق » وأنت في كل يوم تقول : « أكتب والدمعُ في عيني » أو تقول : « ودّعتُ أحبابي بقلب خافق ، ودمعٍ دافق » أو تقول : « غسّلوني بدموعي يوم أموت » أو تقول : « إن مُلوحة الدمع أشهَى مذاقاً من الشهد » ولك من أمثال هـذه التعابير عشرات أو مئات أو ألوف ، فأنت بشهادتك على نفسك مخادعٌ عظيم

— ظمياء ، هذا دمعي ، فكيف تَرَيْن ؟

— هو السم في ناب الثعبان ، وسنخلع أنيابك فلا تقول إنك ثقبت لؤلؤةً في بغداد

— أنت جاهلة ،يا ظمياء ، وليلى أجهلُ ، فما تعرف ولا تعرفين أن عِرض بغداد هو عِرضي ، وأن عرائس بغداد هنّ أخواتي وبناتي . لا تعرف ليلى ولا تعرفين أن كل مكان في بغداد هو عندي محراب ، وحيثما توجهتُ فثمّ وجه التاريخ ، وأهل العراق هم في أنفسنا حُماة الأدب في العصر القديم وأنصار الأدب في العصر الحديث

والمصري في العراق يرى وجه مصر في كل مكان : يراه في المدارس والمعاهد والمكاتب والملاهي والملاعب والأغاني والأناشيد ، وجرائد مصر ومجلات مصر تُقرأ في بلادكم وكأنها عراقية لا مصرية ، فثقي يا ظمياء بوفائي وثقي بأدبي ، فسأحفظ ما طوقتم به عنقي من جميل

وقد نظرتُ فرأيت صحبة العراق كانت خيراً لكل من تشرّف بها من أهل مصر ، وما عاش مصريٌّ سنة واحدة في العراق إلا أصبح وفي دمه ذخيرةٌ من النار والحديد ، وما رآكم مصريٌّ واستطاع أن يذكركم بسوء في سر أو علانية

فماذا تريد ليلى أن تصنع معي يا ظمياء ؟

ما ذا تريد ليلى ؟ ما ذا تريد ؟

إذا كان دمعي شاهداً على خداعي ، فأين أجد الشاهد على وفائي ؟

إن النُسّاك يتقربون إلى أربابهم بالمدامع ، فكيف لا يتقرب العشاق إلى أحبابهم بالمدامع ؟

أوّاه من مصيري في هوى ليلاي !

سأرجع إلى وطني وأهلي مصدوع القلب ، مفطور الفؤاد

وستعيش ليلى بعافية ، وستنسى طبيبها الوفيّ الأمين

وكذلك كان حالي في كل أرض . كنت أغرس العافية في الأرواح والقلوب ، وما عرفني إنسان إلا تحوّل من غيّ إلى رشد ، أو من هدًى إلى ضلال . كنت أُذيع الشّرك في قلوب الموحّدين ، وأُذيع التوحيد فى صدور المشركين ، كنت ملَكاً ، وكنت شيطاناً ، ثم أصبحت وأنا مجردٌ من سماحة الملائكة ، وسفاهة الشياطين

أدبتني ليلى ، وبلائي في ذلك التأديب . أحبك ياليلى وأهواك

— وتحبني أيضاً ، يادكتور ؟

— وأحبك أيضاً ، يا ظمياء ، وأحب كل مخلوق في العراق حتى القيظ والزوابع والأعاصير ، أحب البلد الطيب الذي أرهف قلبي ، وصقل وجداني ، واستطعت بفضل الله وبفضله أن أقنع أهلي في مصر بأن لي قلباً يعرف معاني الشوق والوفاء

— دكتور !

— ظمياء !

— لقد أحسنت الدفاع عن نفسك في هذه التهم الثلاث ؛ ولكن هناك تهمة رابعة لن تستطيع لها دفعاً ، لأنها في خلقتك ، والخلقة لا تغيير لها ولا تبديل

— فهمتُ ، فهمت . إن الجرائد المصرية تصورني دميم الوجه ولا ينبغي ياظمياء تصديق كل ما تنشر الجرائد

— لا ، لا ، إن ليلى تراك أجمل مخلوق ، ولكنها تقول إنك أخضر العينين ، وهنا وجه الخطر ، فالعيون الُخضر تهتاج الثعابين ، وما رأى ثعبان إنساناً أخضر العينين إلا اغتاظ واهتاج واستعد للقتال

— ومن أجل هذا تثور عليّ هذه الحية الرقطاء ؟ ؟ اسمعي

أيتهـا الطفلة . اسمعي . إني ورثتُ خضرة العينين عن أمي ، سقى قبرهـا الغيث ، وأمي ورثتْ خضرة العينين عن جدتي ، وكانت تركية الأصل ، فممن ورثت ليلى سواد عينيها ؟

اسمعي يا ظميـاء ، لقـد أطلتُ التودد إلى أهل العراق ، وسأصـارحهم اليوم بحقيقة لم يتنبه إليهـا أحد سواي . ليس في العراق كله طَرْفٌ كحيـلٌ إلا وهو مسروقٌ من عيون الظباء وجيرتـكم للصحراء هي التي أمكـنتكم من هذا الانتهاب الفظيـع ، ولـكن هذه السرقة لن تطول ، فسيأتي يوم قريب أو بعيد يشتد فيه ساعد « عصبة الأمم » المقيمة في جنيف ثم تحول بينكم وبين انتهاب السواد من عيون الظباء

اخرجي يا ظمياء ، ولا ترجعي إليَّ بعد اليوم ، فهذا آخر العهد

* * *

خرجتْ ظمياء محزونة وهي تعتقد أن ليلى جانية وأن العراق كله قد وقع في سرقة دولية حين انتهب السواد من عيون الظباء

وبقيتُ أنا في كروبي وأشجاني ، فأنا في سريرة نفسي أعتقد أن الظبـاء هي التي سرقت سواد العيون من أهل العراق ، وقد

عاش العراق كريماً في جميع عهود التاريخ ، فمن حنين غوانيه عرف الحمام كيف يَسجَع ، ومن صِيال أبطاله عرف الدهر كيف يصول

ولكن كيف أصحح خطأي فأسترد ليلى وأسترجع ظمياء ؟ كيف ؟ كيف ؟

إن ليلى لن ترجع بسهولة لأنها عراقية ، والعراقُ مفطورٌ على العناد

أحبك يا ليلى ، أحبك يا روحي ، وأشتهي أن أخاصرك مرة ثانية تحت ضوء القمر وفي سكون الليل . أحب أن أسامرك مرة ثانية تحت النجوم في مطلع حزَيران قبل أن أرجع إلى مصر وطن الجفاء والعقوق

أحبك يا ليلى وأحب ذلك الطبع المتقلب الذي لا يستقر على حال

أحب أن أنشدك مرة ثانية قول الشاعر أحمد رامي :

يا من أخذتِ فؤادي أخذ العدوّ الحبيبِ
قلبي لديك فقولي ما حالُه في القلوبِ

أحب أن أصرخ مرة ثانية ، أحب أن أصرخ صرخة الوجد في رحاب الكاظمية

أحب أن أفتق بصراخي قلبك الأغلف وأذنك الصماء

أحب وأحب ، ولـكن أين السبيل إلى قلبك الظلوم !

* * *

طال شقائي بهجر ليلى ، فما ذا أصنع ؟

إن بغداد تحقد عليّ ويسرها أن يطول في حب ليلى عذابي

فأين شفعائي إلى ليلاي ؟ أين لا أين ؟ !

الحمد لله والحبّ ! هذا خاطرٌ لطيف قد ينفع بعض النفع ، إن ليـلى لها في الموصل بنات خالات ، وبنات الخالات يقدرن على ما يعجز عنه أبناء الأعمام والأخوال ؛ فلأمض إلى الموصل لأشـكو إلى ظبيانه جروحي وآلامي

إلى الموصل ، إلى الموصل

إلى الموصل الجميل أمتطي قطار الصباح بين اليأس والرجاء

طال بلائي بغضب ليلاي ؛ وتهدّم ما كنا رفعنا من صروح الأماني ، وأمسى الحزن يصهر قلبي كلما تمثلتُ أطياف تلك الصروح

وطال حنيني إلى كلمة كانت تقولها ليلى في لحظات الصفاء ؛ وهي كلمة « تعال » فكنت أهوي إلى صدرها كما يهوي الطفل إلى صدر أمه الرءوم ، وما كان أدبي يسمح بأن أقترح شيئاً على ليلاي ؛ وإنما كنت أنتظر عطفها في صمت كما ينتظر العشب جُود السحاب

وكنتُ خدعتُها فزعمت أن تقاليد الأدب في فرنسا تقضي بأن يقبّل الرجل يد المرأة ؛ وقد انخدعتُ فكنت أقبل يديها في كل لقاء ولكني مع ذلك حفظت وقاري فلم أكن أقبل يديها في السهرة الطويلة أكثر من سبعين مرة

وقد حملني الطيش فى إحدى الليالي على أن أقترح تقبيل خديها فرفضتُ

وعند ذلك أنشدتُ :

يا غزالاً لي إليـهِ   شافعٌ من مقلتيهِ

والذي أجللتُ خديـــه فقبلتُ يديـهِ

أنا ضيفٌ وجزاء الضيـــف إحسانٌ إليهِ

فقالت بعد تمنُّع : أقبلك أنا

فقلت : وما الفرق يا روحي ؟ •

فقالت : القُبلة منك حبٌ ، والقبلة مني عطفٌ

فقلت : أقبِّلك قبلة عطف

فقالت : ابحثْ عمن يصدق دعواك يا فاجر !

ورضيتُ بالقليل فقبَّلتني ليلى قبلة كادت تشوي جبيني

تلك قُبلة العطف ؛ فكيف تكون قبلة الحب ؟

أشهد أن الله قدَّر ولطف !

ذلك نعيمٌ ضاع ، وما أدري كيف ضاع ؛ فما كانت هفوتي خليقة بأن تصيرني إلى ما صرت إليه من الحرمان ؛ ولكن متى طاب زماني حتي تطيب ليلاي ؟

آه من كيد الزمان ! وآه من غدر الملاح !

* * *

شاع في بغداد أني ذاهب إلى الموصل لأستشفع بالحور العين

من قريبات ليلى : فللشقية هناك بنات خالات ، وسمع بذلك أخٌ صادق فقال : خير لك أن تسافر إلى النجف ، فهو أقرب من الموصل ؛ وملاح النجف أرقُّ وأظرف ؛ وهن يعطفن على بلواك ؛ وهذا اليوم أصلح الأيام

وسألت عن السبب ، فعرفت أن أهل النجف يحتفلون بميلاد الرسول في السابع عشر من ربيع الأول ؛ وفي المولد النبوي تزدحم ساحات الحرم الحيدري بالعرائس فأختار من الشفيعات ما أشاء . . . .

وما هي إلا لحظات حتى عبرت الجسر إلى الكرخ ، الكرخ الذي كان فيه قمر ابن زريق ، والذي سامرتُ في رحابه قمراً غادراً لا يحفظ العهد ، وستفيض مدامعه بالدم يوم يتلفت فلا يراني ، وهل كنت إلا طيفاً زار في السَّحَر بساتين الكرخ وبغداد ؟

ومن الكرخ ركبت سيارة إلى كربلاء

وفي الطريق مررت على الاسكندرية وكنت مررت عليها في طريقي إلى الحِلة منذ أشهر ، ورجَّحت أنها البلدة التي ينسب

إليها أبو الفتح الاسكندري في مقامات بديع الزمان ؛ ولكني في هذه المرة حاولت أن أعرف مكانها من الماء لأن عيسى بن هشام جعلها من الثغور الأموية ، فاهتديت إلى أصلها بعض الاهتداء ، وقد أصل إلى جوهر الحقيقة بعد حين [1]

لم أقض في كربلاء غير لحظات ، وهي مدينة تحيط بها الخضرة من جميع النواحي ، وفيها قُتِل الحسين كما هو معروف ، وللحسين فيها ضريح لم أزره ولكني شهدت قبته العالية ، وهي مكسوّة بالذهب الوهاج ، وفي كربلاء ضريح آخر للعباس أخي الحسين ، وهذان الضريحان يُفيضان النور على كربلاء ، وقَتْلُ الحسين كان نعمة على هذه المدينة : فقد أصبحت بفضل مرقده من مواسم القلوب

ومن كربلاء أخذت سيارة إلى النجف فأسلمتني إلى صحراء رأيت فيها الضب أول مرة ، فتذكرت ما صنع الشعوبية حين وصموا العرب بأكل الضباب واليرابيع والشعوبية كانوا جماعة

---

(١) صح عندي بعد التأمل أن المراد بالثغور الأموية النص على أنها سنية لا شيعية ، وقد اهتديت إلى هذا المعنى بعد التعمق في درس أحوال العراق .

من الأدباء لا يعرفون العواقب ، وقد زعزعوا ما كان بين العرب والفرس من متين الصلات ، وسيلقون جزاءهم يوم يقوم الحساب

وأخذتْ تلك الصحراء تصنع بخيالي ما صنعت البادية بين دمشق وبغداد فكان فيها ألوان من خداع السراب . وبعد ساعة رأيت في الأفق ذهباً يتوهج ، فحدقت فيه النظر لحظات ولحظات فرأيته يزداد إشراقاً إلى إشراق ، فصح عندي أنه ذهب القبة العالية ، قبة ضريح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعطر مثواه

ثم عبرتُ إلى النجف وادي السلام وهو مقابر طوال عراض عرفتْ ملايين الناس من سائر الأجناس

وأهل النجف يعتقدون أن من يُدفن في وداي السلام لا يُسأل في البرزخ ، وهو اعتقاد لطيف ، فمن عزاء الانسانية أن تعتقد أن لها معتصَماً من الحساب ولو إلى حين

وفي وادي السلام يقول الأستاذ علي الشرقي :

ثلاثون جيلاً قد ثوتْ في قرارةٍ ... تزاحم في عُرْبٍ وفُرسٍ وأكرادِ

ففي الخمسة الأشبار دكّتْ مدائن ... وقد طُويتْ في حفرةٍ ألف بغداد

عبرتُ على الوادي وسفَّتْ عجاجةٌ فكم من بلاد في الغبار وكم نادِ!
وأبقيتُ لم أنفض عن الرأس تربهُ لأرفع تكريماً على الرأس أجدادي

وكذلك كان الدخول إلى النجف من باب السلام ، أي الموت :

وبحثت عن فندق فكان فندق السلام فتشاءمتُ ، ثم أسلمت نفسي إليه ، لعلمي بأني صائرٌ لا محالة إلى السلام ، أي إلى الموت !

ثم رأيت فندق السلام بالنجف شبيهاً بأخيه فندق السلام في حيّ سيدنا الحسين بالقاهرة : رأيت الناس ينامون زُرافات في حُجرة واحدة ، فأخذت أمتعتي وانصرفتُ ، وذهبتُ إلى فندق ثان فرأيته أعجب من الأول ، فمضيت إلى ثالث فرأيتـه أغرب من أخويه ، وانتهى بي المطاف إلى غرفة حقيرة في فندق حقير ، هو أعظم الفنادق بالنجف

ولعل تلك الفنادق كانت كذلك لقربها من وادي السلام ، فهي تروض المرء على قبول الدفن مع من يعرف ومن لا يعرف ، وتقرّب إلى ذهنه صورة المساواة في دنيا الأموات

* * *

كان غبار السفر الذي دام أكثر من أربع ساعات آذاني ،

وكنت أحب أن أصلح من شأني في الفندق لأستعد لمقابلة البهاليل من آل ليلى ، فلم أجد في الفندق ما يسعف ، ولكن لا بأس فسيعلم النجفيون بعد ساعات أني نزلت في فندق فيغضبون ويقولون (هذه فضيحة) وينقلون أمتعتي إلى منزل أحد الأصدقاء

وعندئذ أتذكر أن النزول في الفندق كان عند أهل العراق علامة من علائم المسكنة ، يشهد بذلك قول الشاعر القديم :

يا أيها السائل عن منزلي   نزلت في الخان على نفسي
آكل من خبزي ومن كسرتي   حتى لقد أوجعني ضِرسي

ويشهد بذلك قول شاعر حديث هو الرصافي :

سكنْتُ الخان في بلدي كأني   أخو سفر تَقَاذَفُهُ الدروبُ

وأصرخ في وجه النجفيين قائلاً : إن المدينة التي تخلو من فندق نظيف لا تسمَّى مدينـــة ، والذين عاشوا في أوربا كما عشتُ لا يستطيعون النزول في منازل الأصدقاء ، والفندق النظيف هو المأوى الطيب للضيف ، والحكومة المصرية لا تُنزِل ضيوفها في غير الفنادق ، لأنها تعرف قيمة الفنادق ، وكذلك تصنع حكومة العراق حين تستقبل ضيوفها في بغداد

فياأهل النجف : تذكروا أن مدينتكم في حاجة إلى فندق نظيف ، وتذكروا أن مثل ذلك الفندق ينقل مدينتكم من حال إلى أحوال

* * *

خرجت من الفندق أَتلفَّتُ ذات اليمين وذات الشمال لأرى شبيهات ليلى ، شفا الله ليلى وشفاني ، ومنحني وإياها العزاء يوم الفراق ، إن كان لنا سبيلٌ إلى التلاقي قبل الفراق

وساقتني قدماي ، بل هداني قلبي إلى الحرم الحيدري

وقفتُ بصحن الحرم كالأرقم ، والحمد لله على نعمة العافية ، وليته يتفضل بحفظ هذه العافية ولو عشر سنين لأداوِي جميع المرضَى من المِلاح

وقلت في نفسي : أنا تلميذ الشريف الرضي الذي يقول :

لو أنها بفِناء البيت سانحةٌ لصِدتُها وابتدعتُ الصيدَ في الحرَمِ

فإذا كان الشريف استباح الصيد في الحرم النبوي فأنا أستبيحه في الحرم الحيدري

ودرت حول الضريح مرتين ، ثم وقع البصر على فتاة ساجية الطَّرف مشرقة الجبين تخفق القلب

ثم وقفتُ

أُصاوِل عينيهـا بعينيَّ والهوَى يُشيع الحُميّا في فؤادي وأعضائي

وظنت الفتاة أنها أقدر مني على الفتُون ، فحاولت قتلي ، ثم لطف الهوى فصرعتْها ، فجمعتْ ما تبـدد من قُواها ، وفرّتْ فرار الغزال المطعون

وَعدَوتُ لاقتناصها فلم أُفلح ، وكيف يعدو النشوان وهو كالمقيد في الشوك !

من أي سحر صيغتْ تلك العيون ؟

وإلى أية غاية تسير تلك العيون ؟

ولأية حكمة خلقت المقادير تلك العيون ؟

لقـد أفلح الدساس الظريف الذي نقلني إلى النجف ، وهو على ظرفه لئيمٌ خبيث

وبالنجف الحاريّ[1] إن زرتَ أهلهُ مَهاً مهمَلاتٌ ما عليهنّ بـائسُ

[1] الحاري نسبة إلى الحيرة على غير قياس ، وفي معجم ياقوت (الجاري) وهو تحريف

خرجن بحب اللهو في غير رِيبةٍ عفائف ، باغي اللهو منهن آيسُ

ثم طفتُ بالحرم مرة ثانية ، فوجدت ناساً يقرأون أدعيات وصلوات وحولهم نساء يبكين ورجال يبكون ، فوقفت أسمع وأبكي ، وهل في الدنيا بلاءٌ مثل بلائي ؟ أنا العاشق المهجور الذي غدرتْ به ليلاه ؛ ولو كانت ليلى واحدة لصبرتُ ، ولكنهن ليليات !

فيا بديع الملاحات ، ويا فاطر السموات ، كيف ترى حالي !

ويا خالق النخيل والأعناب ، كيف سكبتَ الصهباء في رُوحي ؟

ويا مُجريَ الدمع في الشؤون ، كيف علمتني وعلمت الحمائم النُّواح ؟

وما الذي أعددت لتكريمي يوم ألقاك وقد سبَّحتُ بحمدك فوق أفنان الجمال !

وما عندك لسلامتي من الناس ، وقد خاصمتُ فيك جميع الناس !

* * *

وطفتُ بصحن الحرم مرة ثالثة فوجدت ضريح الحبّوبي الذي يقول :

اسقني كأساً وخذ كأساً إليك فلذيذ العيش أن نشتركا
وإذا جُدتَ بها من شفتيك فاسقنيها وخذ الأولى لكا
أو فحسبي خمرةٌ من ناظريك أذهبتْ نسكي وأضحت منسكا
وانهب الوقت ودَعْ ما سلفا واغتنم صفوك قبل الرَّنَق
إن صفا العيش فما كان صفا أو تلاقينا فقد لا نلتقي

وعند ذلك الضريح طال بكائي ، فهذا شاعر قضى حياته في التغني بالجمال ، ثم رآه النجفيون صوفياً فدفنوه بجوار أمير المؤمنين ، وأنا أفنيت شبابي في التغني بالجمال ولم أجد غير العقوق !

فمتى يعرف قومي أني صوفيٌّ يؤمن بوحدة الوجود ؟

متى يعرف قومي أني أصدق تلاميذ ابن الفارض في هذا الزمان ؟

اللهم لطفك ورحمتك ، فقد طال بلائي بالناس !

* * *

يئستُ من الصيد في الحرم الحيدري بعد فرار تلك الغزالة ،

وبدأتُ أعتب على سيدنا علي بن أبي طالب ، فمثلي لا يُكرَم في رحابه بالماش والُجلاّش ، وإنما يكرَم مثلي بالهُيام في أودية الفتُون ، وما كنت في حياتي من الفاسقين ، وإنما كنت مؤمناً يتقرب إلى ربه بعبادة الجمال . . . . .

وفي حومة هذا العَتْب تذكرت أن لي في النجف صديقاً من تلاميذ الأستاذ محمد هاشم عطية هو السيد محمد تقي آل الشيخ راضي ، فقلت ، أذهب إليه عساه يجد السبيل إلى الظبية التي نفرت مني ، ولكني ما كدت أصل إلى منزله بعد طول البحث حتى وجدته في ارتياع ، فقد علم أن الشُّرطة في النجف تبحث عني ، لأني في ظنهم وردت النجف لمطاردة الظباء ، وقد رأى بفطرته السليمة أن ينفي الشبهة فدعا علماء النجف للتسليم على العالم العلامة الدكتور زكي مبارك !

وما هي إلا لحظة حتى كانت الدار تموج بالغُرّ البهاليل من أقطاب النجف

وجلستُ بين القوم جلسة العالم الحق ، وما يصعب عليّ أن أمثّل هذا الدور الفظيع ، فانتقدتُ صاحب مجلة « الحضارة » لأنه

يدعو إلى تعديل المذاهب القديمة في التعليم ، وقلت إن مذاهب التعليم في النجف كمذاهب التعليم في الأزهر لا ينبغي أن تزول

وعجب القوم من أن يصدر هذا القول عن رجل متخرج في السوربون

ولكني في الواقع لم أكن مرائياً ، فقد صح عندي أن الأساليب الأزهرية والنجفية أساليب تنفع أجزل النفع في رياضة العقل ، يضاف إلى ذلك أن الأزهر هو الذي حفظ اللغة العربية في عهد المماليك ، وأن النجف هو الذي حفظ اللغة العربية في عهد الأتراك ، و رعاية العهد توجب الإبقاء على تلك الأساليب التي استطاعت أن ترسل النور الوهاج في دياجير الظلمات

وبعد طول الحوار فهمتُ أن في النجف ثورة فكرية تشبه الثورة التي وقعت في الأزهر منذ أكثر من ربع قرن ، وعرفتُ أن طلبة العلم في النجف يريدون أن يغيّروا حالهم ليسايروا مناهج التعليم في العصر الحديث

وقد تأكد ذلك المعنى حين قال الأستاذ الصوري : ما رأيك يا دكتور في أن أخلع عمامتي ؟ فقلت : أنا أبغض المعممين

الذين يخلعون عماماتهم ! فقال : هل تعرف ما قلتُ في العمامة ؟
لقد قلتُ : إنها منعتْ رزقي وفسقِي !

فابتسمتُ وقلتُ : وكيف تعيش يا مسكين بلا رزق ، وبلا فسق ؟ !

وتقدم الأستاذ البلاغي صاحب مجلة « الاعتدال » فقصَّ أحاديث يشيب لها الولدان ، ومنها عَرفتُ أن طلبة العلم في النجف يعيشون في بؤس . وقد طفر الدمع من عيني حين سمعت أن عالماً نجفيًّا أشرت إليه في كتاب « عبقرية الشريف الرضي » جلس في صحن الحرم الحيدري يبيع كتبه ليسدَّ ما عليه من ديون ، ديون لم يجنها لهوٌ ولا مُجون ، وإنما جناها الخبز والماء

وكان هذا العالم المحقق لقيني في الكاظمية منذ أشهر ، لقيني لقاء المساكين ؛ ولما لقيني في النجف تبسم وقال : كنتُ في الكاظمية غريباً وأنا اليوم في بلدي ، وأنا حاضر لخدمتك

وكنتُ أحبُّ أن أقبل دعوته الكريمة ، ولكني واأسفاه كنت عرفت ترجمة حاله منذ لحظات ففررت من كرمه بترفق وتلطف

لا تحزنْ أيها الزميل ؛ فسيكون لي ولك مكانٌ بين الصابرين

لا تحزن ، فالدنيا أحقر من أن يبكي على نعيمها أحرار الرجال

لقد سمعت أنك بعت دارك بثمن بخس لتسدد ديونك .

فهل علمتَ أن لك عُقبى الدار يوم يجزي الله الصابرين ؟

* * *

ثم مضيت فطوّفت بالنجف وحولي جيش من أهل العلم والأدب والبيان ، وفي أحد المنعطفات وقع البصر على طفلة من قريبات ليلى ، فمددت يدي أمسح خدّها الأسيل فصرختْ ، وتضاحك الرفاق . ولكني سأرجع بإذن الله إلى النجف لأعرف أهل تلك الطفلة وأخطبها لأحد أبنائي . وبيت أهلها يقع في دَربونة متصلة بدربونتين إحداهما توصّل إلى الرابطة الأدبية ، والثانية توصّل إلى الحرم الحيدري ، ولذلك البيت رَوْشَنٌ عليه برّادة ، وبداخله بئرٌ وسِرداب ، وفوق الروشن حمامتان تسجعان ، وفوق عتبات ذلك البيت تتحدر مدامع العشاق

يا شبيهة ليلى في حسنها ودلالها ولؤمها وغدرها ! ترفقي

بقلبي فقد تركتُه في الدَّربونة لتدوسه في كل صباح أقدامك الرقاق

يا شبيهة « كريمة » الغالية التي تداعب أباها في الأحلام ، تذكَّري أن طيفاً زارك في النجف ولن يعود

يا أخت « زينب » تذكري أن الرجل الذي مدَّ يمينه ليمسح خدك الأسيل لم يكن فاجراً ، وإنما هو مجاهد ترك وطنه وأهله في سبيل العقيدة والوجدان

إليك دمعي يا حلوة يا جميلة ، وهو دمعٌ تمرَّد على الخطوب ، ثم أذلَّته عيون الملاح

أحبك أيتها الطفلة الوسيمة وأشتهي أن أسمع صراخك مرة ثانية ، فما كان وحق الحب إلاّ صُرَاخَ الدلال

* * *

واستيقظتُ في اليوم التالي مبكراً لأرى الكوفة ، ولأقف بأطلالها كما وقف أستاذي ماسينيون ، وكان أكبر همي أن أرى مسجد الكوفة الذي طُعن فيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، والذي فار في زاويته التنُّور لعهد نوح عليه السلام ،

والذي صلّى فيه ألف نبيّ وألف وصي ، والذي فيه عصا موسى ، والذي هلك فيه يغوث ويعوق ، والذي يحشَر منه يوم القيامة سبعون ألفاً ليس عليهم حساب ، وفي وسطه روضةٌ من رياض الجنة

كذلك تقول الأساطير

وما كانت في عيني وقلبي أساطير ، وإن كنتُ تلميذ منصور فهمي وطه حسين

لقد شهدتُ بعيني كيف طُعِنَ علي بن أبي طالب ورأيت دمه رأي العيان

ورأيت المكان الذي خطب فيه الحجاج خطبته المشهورة ، الحجاج الهائل الذي أصلح العراق ، وأفسد العراق

ورأيت قبر مسلم بن عقيل رسول الحسين ؛ ورأيت كيف يبكي الناس على قبره وكأنما قُتل بالأمس ، فتذكرت أن العراق يحوي ثروة عظيمة جدًّا من الحماسة الوجدانية ، وتذكرت أن العراق تغلب عليه سرعة الانفعال ، فهو يقتل المصلح بلا ترفق ، ثم يجعل البكاء عليه شريعةً من الشرائع

تذكرت أن العراق كالقوة الكهربائية التي تحيي وتميت ،
وهو ينتظر رجلاً في طغيان الفرات وسماحة النيل

إن العراق من قُوى العروبة والاسلام ؛ ولكن أين من
يعرف ؟

لقد هداني العراق وأضلني ، وكان على الدهر مصدر
هداية وضلال

* * *

ثم مضيت أتلمس آثار الحيرة البيضاء ، مضيت أتلمس
آثار الخورنق ، فلم أعرف ولم يعرف رفاقي أين الخورنق

وكان هُيامي بأطلال الحِيرة موسماً من مواسم الشعر والخيال ،
وفي ذلك الهيام عرفت شيئاً من مدنية العرب في الجاهلية

ولو كان لي شيء من الأمر في حكومة العراق لأجريت
نهر السدير من جديد لأنقش في وجه الزمن ذكريات النعمان

مضينا إلى أطلال الخورنق مع سائق مَجهول فقادنا إلى
مكان موحش ، فقال الرفاق : ليس هذا مكان الخورنق . فقال
السائق : أنتم تبحثون عن أحجار ، وههنا أحجار !

صدقتَ أيها المجهول ، فنحن نبحث عن أحجار ، ولكننا نبحث عن أحجار نواطق !

عندئذ تذكرتُ فراعين مصر ، فقد كانوا يدركون أن الزمن لئيمٌ غدّار ، وأن التاريخ كلامٌ في كلام ، فبنَوا أهرامهم وقصورهم بأساليب يعجز عن فهمها الزمان

وقد تقوضت آثار الملوك في المشرقين والمغربين وعجز الدهر الغادر عن هدم آثار الفراعين

ما أشقاك في دنياك وأخراك أيها النعمان ! أنت قتلت سِنِمّار ليبقى سر الخورنق ، فهل بقِيَ الخورنق ؟

ليتك استعنت الجندي المجهول في وادي النيل ! ليتك بنيت هرماً يعجز اللئام عن نقل أحجاره ليبنوا بيوتهم الخاوية !

أيها النعمان ، سلام عليك من شاعر مصري يبكي لمصيرك في التاريخ !

أيها النعمان ، أيها الملك العربي العظيم ، أين الخورنق وأين السّدير . . . ؟

اعترفْ أيها الملك بعظمة الشعر والشعراء ، فنحن الذين

حفظنا مكانك في التاريخ ، ولولا الشعراء لطمس الزمن مكانك في التاريخ

وفدتُ على أطلال قصرك وأنا جائع ظمآن فما تزودت غير الأسى والأنين

وفدتُ على أطلال أنكرتها العين ، وعرفها القلب

وفدت على أطلال لم يعرفها جيرانك من أهل النجف ، وعرفها شاعرٌ مصريٌّ مظلوم ينكره أهله ، كما أنكرك أهلك

فيا زميلي في البؤس والشقاء ، سلام عليك

* * *

ثم مضينا نمتع النظر بطغيان الفرات ، وأين طغيان الفرات من طغيان قلبي !

هذه الكوفة الإسلامية ، وتلك الحيرة الجاهلية ، وأولئك الغافلون من العرب والمسلمين . فيا رب الأرباب أنقذ عبدك المسكين من ظلم الجحود والعقوق

* * *

ورجعت إلى النجف أسأل عن أخوات ليلى ، ولكن

كيف ؟ إن النجف كله يطارد العاشق المسكين الذي ضيع
مستقبله في سبيل هواه
ويصمم النجفيون على إقامة حفلة تكريم للدكتور زكي مبارك
فأرفض لأن تلك الحفلة كانت توجب أن أتخلف عن دروسي
في دار المعلمين العالية ، وتخلفي عن دروسي أمر مستحيل ،
وكذلك أقهر علماء النجف وأمتطي السيارة إلى بغداد

***

رجعتُ في زيّ الساكين لأني لم أجد الشفيع إلى ليلاي
رجعت ذليلاً مقهوراً ، فماذا أصنع ؟
آه من حبي وغرامي وبلواي !
لقد هجرتني ليلى وصدفتْ عني ظمياء
فلأذهبْ إلى الموصل لأستشفع بقريبات ليلى هناك
إلى الموصل الذي رقدت في ثراه عظام أبي تمام أمتطي
قطار المساء . . .

٢٢

ليت ليلى تعرف بعض ما أُلاقي في ليالي الصد من أهوال !

ليت ليلى تعرف كيف ندمتُ على التعرف إلى وجهها الجميل !

ليت ليلى تعرف كيف هدّتْ عزمي وقوضتْ بُنياني !

ليتها تعرف أن هواها أورث جسمي وقلبي أسقاماً وعقابيل ستكدر ما بقي من حياتي !

وليتني أعتبر بما صرت إليه فأتقي الله في نفسي وأتصوّن عن الهوى والفتون !

ما أشــد حزني على ما ضيعت من شبابي في التغزل بالعيون الزُّرق والعيون السود !

ما أشد ندمي على الغفلة التي خُضت أوحالهــا يوم وثقتُ بعهود المِلاح !

سيطول بكائي على العافيــة التي بددتها تبــديد المسرفين على أنفسهم وأنا أتنقل من أرض إلى أرض في سبيل الجمال

سأكتوي بنار الحقد على الدنيا وعلى الناس كلما تفكرت فيما ردني الحب إليه من ظلمات

لم يبق لي رجاء في غير الله

ومن سوء البخت أن لا أعرف الإيمان إلا في أيام الضر والبؤس !

إليك أرجع يا ربي ، أرجع مقهوراً مدحوراً بعد طول الهيام بأودية الضلال

إليك أرجع ، ولا فضل لي في هذا الرجوع ، فقد انهدّ كياني ، وانشقّت مرارتي ، وصار من الموجع أن أحمل إلى فمي كوباً من الماء

إليك أرجع ، فامنحني من العافية ما أنقل به صُوَر ذنوبي إلى ألواح خيالي ، عساني أعرف كيف أستغفر وأُنيب

* * *

لم أجد في النجف شفيعاً إلى ليلاي ، فقات أذهب إلى الموصل ، وتلك نهاية المطاف في البحث عن الشفعاء

وعقدت العزم على السفر بالقطار الذي يقوم من بغداد في الساعة التاسعة مساء

ولكنّ صديقاً موصلياً طرق بابي في الساعة السادسة وعرف نيتي في الذهاب إلى الموصل ، فنهاني ، ولما استوضحتُ السبب قال : إن أهل الموصل يحقدون عليك ، فانزعجت وقلت : كيف ؟ فأجاب : أنت أطلتَ التشبيب بالعيون السود فغنمتَ عطف أهل البصرة وأهل بغداد ، وخسِرتَ مودّة أهل الموصل ، لأن عيونهم شُهْل لا سُود ...

فقلت : أتغزل بالعيون الشُّهل وأتناسى العيون السود

فقال : كان ذلك قبل اليوم !

وتركني وانصرف

وكذلك قضيت نحو ثلاث ساعات في كرب وبلاء

* * *

أشهد أن ذلك الصديق طيب القلب ، فما تعمد يوماً إيذائي ، ولكنه سيء التصرف ، فهو يزورني من حين إلى حين ليكدر

صفائي ، وهو يجد لذةً في تنغيص من يعرف ، ويشعر بارتياح حين يستطيع إلقاء صديقه في أَتُّون العذاب

وقد وصل في إيذائي إلى ما يريد وخرج وهو جَذْلان

وفي غمرة هذا الحزن المظلم دخل موصليٌّ آخر ، موصليٌّ كريم كاد أهله يُنسونني أهلي ؛ موصليٌّ صِيغَ قلبه من العطف والحنان ، فشاع الأنسُ في روحي حين اغتبقتُ بروحه الرفيق

وما هي إلا لحظات حتى كنت في القطار وهو يحمِّلني التحية إلى أقربائه بالموصل الجميل

* * *

وفي القطار رأيت رجلاً بيده مجلة تسمى « الأندلس الجديدة » وهي فيما أتذكر تصدر في البرازيل ، وفيها رأيت مقالة في تجريح صديقي العزيز الدكتور زكي مبارك ؛ فابتسمت وقلت : جرِّحوه كيف شئتم فستطيب الدنيا يوم يصل إلى فؤاد ليلاه !

وكان رأسي قد أثقله النعاس ، فلم أعرف شيئاً من معالم الطريق

وصلتُ إلى كركوك بعد عشر ساعات في القطار ، وكركوك هي (شهر زُور) في كلام القدماء ، وفيها تشهد العين لأول نظرة مشاعيل اللهب ، لهب النِّفط ، فيدرك العقل أن هذا اللهب هو الذي يجذب الفَرَاش ، الفَرَاش البغيض الذي يَفِد من وراء البحار ليسيطر على ذخائر تلك الأرض . وبعض البلاد تؤذي أهلها بفضل ما فيها من ذخائر وكنوز . والجمال يجني على أهله في أكثر الأحيان .

ومضيت فسألت عن رئيس البلدية وهو الشيخ حبيب الطالباني فعرّفني بأقربائه ودعاني للتنزه في حديقته الغناء ، وهناك جرى الحديث عن اللغة العربية فعرفت أن أهل كركوك بعضهم من الأكراد وبعضهم من التركمان وأنهم يتكلمون الكردية والتركية بأسهل مما يتكلمون العربية

وبعد لحظات رجع أبناؤه من المدرسة فدعاهم للتسليم عليّ ، فوقفوا صفًّا في أدب واستحياء ، فسألتهم أن ينشدوا شيئاً مما يحفظون ، فأسمعوني نشيداً عربياً بديعاً دلّني على أن أطفال تلك الناحية سيكونون بإذن الله من سواعد العروبة بعد حين

وكذلك عرفت أن الحكومة العراقية تستطيع بسهولة أن تؤلف بين عناصر العراق ، وأن تجعل منه شعباً مُوحّد اللغة والتقاليد في زمن قليل . ويؤيد ذلك أن العروبة هي في الواقع فكرةٌ لا جنس ، والكردي يتحول بعواطفه إلى العروبة بلا عناء

ومنظر كركوك جميل ولكن أهلها يشكون قلة المياه ، وفيها اليوم نحو أربعين ألفاً من السكان ، ودورها تبلغ ثمانية آلاف ، وبها حديقة للشعب وفيها مكتبة ، ولها ضواح صالحة لأن تكون من مرابع الابتهاج، لو وجدتْ من يصلها بأصول التمدن الحديث

وفي شهر زُور — وهي كركوك — يقول أحد الشعراء :

وعدتِ بأن تزوري بعد شهر   فزُوري قد تقضَّى الشهر زوري
وموعدُ بيننا نهر المعلّي   إلى البلد المسمّى شهر زُور
فأشهُرُ صدِّك المحتوم حقٌّ   ولكنْ شهر وصلك شهر زُور

خطرتْ ببالي هذه الأبيات وأنا أطوف بكركوك فخزنتُ فذلك شاعر كان يشكّ في صدق ليلاه ، كما أشكّ في صدق

ليلاي . و رأيت أن أبحث عن قريبات ليلى هنـاك ، ولـكني خشيتُ أن يصعب التفاهم باللغة العربية فمضيت إلى إربيل بلد المبارك بن حمد بن المبارك الذي يقول :

تُذكرُنيك الريحُ مرّتْ عليـــلةً
على الروض مطلولاً وقد وضح الفجرُ
وما بَعُـــدتْ دارٌ ولا شطَّ منزلٌ
إذا نحن أدنتنا الأمانيُّ والذِّكرُ

وصلت إلى إربيل في وقت القَيْظ فلم أجد من النشـاط ما أصعد به لرؤية القلعة التي تحدثتْ عنها كتب التواريخ ؛ وإنما اكتفيت بزيارة المسجد و شهود بعض الأسواق ، و راعني أن تقوم أكثر المنازل على ربوة عالية تستدرج شياطين الشعر والخيال

وفـكرتُ في تلقُّف بعض المعلومات عن إربيل فلم أجد من يسعفني بما أريد ، حتى الشرطي حارس الميدان لم يعرف شيئاً عن عدد السكان في إربيل ، ولم يستطع أن يرشدني إلي بعض المدارس . وهذا لا يمنع أن يكون فى إربيل أدباء نرى آثار أقلامهم في بعض المجلات المصرية من حين إلى حين

* * *

ثم اتجهتُ نحو الموصل فراعني أن أرى حقول الحِنطة على جانبي الطريق ، وهي تشهد بما في تلك البقاع من خيرات ، وراعني أن أرى السيارة تنتقل من نِجاد إلى وهاد ، ومن وِهاد إلى نجاد ، كأننا في جبل لُبنان

* * *

الله أكبر ولله الحمد !

هذا مسجد النبي يونس ، وهو فوق هضبة عالية ، وكأنه (نُوتْردام دي لاجارد) التي تروع من يدخل مرسيليا أول مرة

وعند الجسر يستوقفني الشرطي ليسأل عن اسمي فأقول : زكي مبارك ، فيسأل : الدكتور ؟ فأقول : نعم ! فيبتسم ويقول : عرفت أخبارك ، ولكن حدثني عند من تنزل ؟ فأقول : عند آل ليلى ! فيقول : وهذا وجه الإشكال !

وسأعرف بعد أيام لماذا يهتم الشُّرطة بمعرفة أسماء من يدخلون كركوك وإربيل والموصل

* *

أَلقيتُ أَمتعتي في الفنـدق وخرجت أُدبّر الوسـائل للبحث عن قريبات ليلى ، واتفق أَن جلست لأشرب كوباً من الشاي في إحدى القهوات ففاجأني الأسـتاذ محمد بهجت الأثري وهو يقول : أَتراك تفلت من يدي يا دكتور ؟ من جاء بك إلى الموصـل ؟ أَذو نسب أَم أَنت بالحي عارف ؟

ونقلني إلى المدرسة الثانوية للتسليم على الأستاذ بهجت النقيب ، وهنالك طالعتْنا مجلة الرسـالة فقرأنا فقرات من حديث ليلى المريضـة في العراق ، وحددنا موعداً للتلاقي بنـادي الجزيرة في المسـاء .

ولم تمض ساعات حتى تسامع أَهل الموصل بقُـدومي على غير ميعاد ، فأقبلوا متفضلين للتسليم على الرجـل الذي أحب العراق وأحبه العراق

تحدث أحدهم فقال : هل رأَيت المنارة الحدباء ؟

فقلت : لا ، فقال : لقد همَّ الدكتور عبد الوهاب عزام بصعودها وبعد أن صعد خمسين درجة دار رأسه فنزل

فقلت : يا فضيحة الجامعة المصرية !

وانتقلت إلى مجلس آخر فابتدرني أحد الأدباء بهذا السؤال : هل رأيت المنارة الحدباء ؟ فقلت : لا ؛ فقال : لقد همّ الدكتور عبد الوهاب عزام بصعودها ، وبعد أن صعد أربعين درجة داخ فنزل !

فقلت : يا فضيحة الجامعة المصرية !

وفي مجلس ثالث تحدث رجل فقال : هل رأيت المنارة الحدباء ؟ فقلت : لا ؛ فقال : لقد همّ الدكتور عبد الوهاب عزام بصعودها ؛ وبعد أن صعد ثلاثين درجة اضطربتْ مفاصِلهُ فنزل !

فقلت : يا فضيحة الجامعة المصرية !

ثم صممتُ على صعود هذه المنارة ولو كان في ذلك حتفي ، لأنقذ سمعة الجامعة المصرية ، على حُجُراتها وغُرُفاتها ومُدَرّجاتها أزكى التحيات !

* * *

سميتْ هذه المنارة حدباء لغلطة هندسية أورثتها الاحديداب ومن أجلها سميت مدينة الموصل « الحدباء » على طريق المجاز

المرسل ؛ وباسم الحدباء سُمّي نوع من الخمر يستقطره الموصليون، وكذلك انتقل الاسم من المنارة إلى المدينة إلى الشراب !

والمنارة الحدباء هي أعظم منارة في أقطار العراق ، ودرجاتها فيما سمعت مائة وثلاث وتسعون درجة ، وهي منارة الجامع الكبير

ابتدأتُ فزرت الجامع ، وهو قديم يرجع تاريخه فيما قيل إلى ثمانمائة سنة ، ولمحرابه قبةٌ عالية . وإقامة القباب فوق المحاريب طراز معروف في العراق

وبذلك الجامع مقصورةٌ خاصة بالنساء ، ولا تقام فيه الصلوات لهذا العهد إلا في الجمع والأعياد

وفي أثناء الطواف سمعت هَدِيلًا يسجع بحنين فاجع يذيب لفائف القلوب ، وسَجْعُ الحمام مألوفٌ في العراق وقد تحدّث عنه مئات الشعراء ، ولكنه في هذه المرة كان حماماً موصلياً يعيش في البلد الذي نُسِب إليه أبو إسحاق

وقد نظرتُ فرأيت الهديل يسجع وبجانبه ليلاه ، فما الذي كان يصنع لو غابت عنه ليلاه !

ليتني في مثل حالك ، أيها الهديل البكّاء !

ثم توكلت على الله وصعدْتُ المنارة بصحبة جماعة من الرفاق يحملون المصابيح ، وآذاني أن أجد درجات المنارةُ مهتّمة ، وأن أعرف أن الصعود فوق تلك الدرجات أمرٌ صعب . ولو أنني حاولت ذلك وأنا في سن أصغر أبنائي لكان الخطب سهلًا ، ولكنني اليوم عالم علامة ، والعلماء العلّامون يصعب عليهم السير في الطريق ، فكيف يصعدون المنارة الحدباء ؟ !

وبعد أن صعدت نحو سبعين درجة شعرت بالتعب ، فقلت : أنزل !

وهل يعيبني أن أعجز عن صعود منارة عجز عن صعودها الدكتور عزام ؟

وشجعني على النزول أن الدكتور عزام صديق عزيز ، والتعالي عليه ينافي الأدب والذوق ، وهو بالتأكيد سينشرح صدره حين يعرف أنني عجزت عن صعود المنارة الحدباء . والضعفاء يعطف بعضهم على بعض !

وبعد أن نزلت درجتين مرّ بالبال خاطرٌ مزعج : وهو أنّ ليلى قد تسمع بهذه القصة فتعرف أن طبيبها أصبح من الأشياخ !

وكذلك انطلقت إلى صعود المنارة بعزائم الشياطين

وقفت فوق المنارة ونظرت إلى الأرض فعرفت خطر ما أصيبت به من أحيدياب : فالذي ينظر إلى الأرض من فوق تلك المنارة يتوهم أنها ستسقط به ، ولكن هذا الوهم لا يجوز على رجل مثلي !

ذلك ما كان من أمر الصعود ، ولكن كيف النزول ؟

إن النزول بدا لي أمراً خطيراً جداً ، ومن كان في ريب من ذلك فليجرّب ، وقد خشيت أن تزل قدمي فأسقط ، لأن دَرَج تلك المنارة أصبح خيالًا في خيال

واقترح السيد محسن جُومِرْد أن أضع يدي على كتفه فرفضتُ : لأن الاعتماد على الغير عند الشدائد هو بداية الانخذال

* * *

نزلتُ من المنارة بلا مساعد ولا معين فصحّ عندي أن

عافيتي لا تزال باقية . وتطلعت إلى الهيام بأرجاء الموصل لأرى ما فيها من بقايا السحر والفتون ، ولأبحث عن الشفيعات إلى ليلاي

وبدأت فزرتُ قبر أبي تمام ، وكنتُ كتبت كلمة عن إصلاح قبره في جريدة الأفكار منذ ثمانية عشر عاماً ، وكان من رأيي أن تأليف كتاب جيد عن شاعرية أبي تمام أفضل من العناية باصلاح قبره ، فمتى أشرع في تأليف هذا الكتاب ؟

كنت مبلبَل الخواطر فلم أقرأ الفاتحة على قبر أبي تمام ، وإنما قرأت على قبر أبي تمام قول أبي تمام :

أحبَابَهُ لِمَ تفعلون بقلبهِ ما ليس يفعلهُ بهِ أعداؤُهُ

وهاج حقدي على ليلاي فوقفت شارد اللب لا أعرف ما أَصنع

ثم تلفتُّ فرأيت جِنِّيات الشط ، شط دجلة ، فسألت رفيقي :

ما بال هؤلاء الملاح يَلْقَيْنَ الشط بلا احتشام ؟

فأجاب :

— تلك تقاليد هذا الشط ، شط دِجلة ، يا سيدي الدكتور

— من تقاليد هذا الشط أن يقف الحسان بلا احتشام ؟

— ومن تقاليده أيضاً أن يتطلع الفتيان إلى اللؤلؤ المنثور فوق حبات الرمال

— إذنْ نقف لحظة !

— أو لحظات !

— تكفي لحظة

— خذ زاد قلبك وعينيك للأيام البواقي

— سمعت وأطعت ، وليصنع الحب بقلبي ما يشاء

* * *

لم تكن هـذه المناظر غريبة كل الغرابة أمام عينيّ ، فلي مع جِنّيات الشواطىء تواريخ ، وقد يثبت يوماً أَن ڤينوس وُلِدت على شاطىء النيل بجانب سِنتريس

وقد عشت دهري أنظر إلى شواطىء النيل في الريف نظرة شعرية ، فأين من يشاطرني أحزان القلب وأشجان الفؤاد ؟

نشأتُ في حداثتي فلّاحاً ، ولا تزال في يديّ آثار الفأس والمحراث ، ولم أعرف السعادة فى ظلال العواطف إلا بفضل ذلك العهد ، وقد أنشأتُ ما أنشأتُ من الرسائل والقصائد والمؤلفات ، فكان أشرف ما خط قلمي سطور قلائل ، إذ قلت فى مطلع الديوان :

« إلى تلك الفتاة التي خفق لها القلب أول خفقة ، والتي قلت فيها أول قصيدة ، وسكبت عليها أول دمعة . إلى تلك الفتاة المنسية التي تنام في قبر مجهول تحت سماء سِنتريس ، إلى بقاياك في التراب يا فاتحة الأماني وخاتمة الآمال . إليك — يا كلّ ما كنتُ أملك في مطلع الصّبا وفجر الشباب — أقدّم هذا الديوان

وأُقسِمُ ما قدّمتُ إلا أضالعي يمزّقها حزني وينثرها وجدي
فلا تحسبيني بعد أن خانك البِلَى تخونتُ مابيني وبينك من عهدِ »

في أيام حداثتي كانت سنتريس لا تعرف « الطُّلُمْبات » فكان الماء يُحمَل إلى المنازل من النيل ، أو من السواقي ، فكنت ترى في

الصباح أسراباً من « الصبايا » يحملنَ جرّات الماء وحولهنّ ظِلال من الهوى المَرِح والشباب النشوان

في تلك الأيام كان الشابُ يخرج لصلاة الصبح ، ثم ينفتل مسرعاً إلى داره فيسحب البقرة أو الجاموسة أو الجمل ويخرج إلى الغيط وهو مسرور جذلان ، لأنه سيشهد أسرابَ الصبايا في طريقهن إلى السواقي أو النيل . في تلك الأيام كان أبي رحمه الله يعجب كيف أسبقه إلى صلاة الصبح ، وكيف أُسرع إلى أداء أعمال الصباح ، فكان يصفني بالتقوى والنشاط ، وما كان يعلم طيَّب الله ثراه أنّي لا أبكّر إلا لأشهد السّرب الأول من أسراب الملاح

وكانت تلك المشاهد تتكرر في الصباح و في الأصيل من كل يوم ، فكان شبان الريف يمشُون بقلوبٍ مَشبُوبة في الغدوات والأصائل ، وكان الشاب لا يغدو ولا يروح إلا بقلب مفتون

وكان لأبي صديق اسمه حسين قابل ، وكنت أحب ذلك الرجل حباً شديداً ، وكان مفهوماً أني أُحبه لأنه صديق أبي ، فهل أستطيع أن أقول اليوم إني كنت أحب ذلك الرجل لأنه كان يملك ساقية في ضاحية البلد ، ولأن حوض تلك الساقية كان مَلعباً لأقدام الملاح ؟

ربّاه ! متى تعود أيامي !

وهل تصدقون أني ما سافرتُ إلى البلد إلا مررت بأطلال تلك الساقية وسلّمتُ تسليم المحبين ؟

رحمة الله على تلك الساقية فلم تبق منها غيرُ أطلال ، وكيف تعيش وقد أغنت الطُّلُمْبات عن مائها الممزوج بحبات الرمال ! كيف تعيش تلك الساقية وقد جَنَتْ عليها المدنية ! كيف تعيش بعد أن حُرِمتْ من وثبات الأفئدة وخفقات القلوب !

وكان في بلدنا طريق إلى النيل ، طريق ضيق ، ولكن دمّثته أقدام الظباء فصار ترابه أذكى من المسك الفتيت ، وكان لذلك الطريق في قلبي أخيلةٌ أتمثل بها أرواح الفراديس ، ولم يكن لنا في ذلك الطريق مَغْدًى ولا مَراح ، ولكني كنت أختلق الأسباب لأمرّ به مرّ العشاق في الضُّحى والأصيل ، و في ذلك الطريق كنتُ أُرسل التحية المخطوفة إلى تلك الفتاة ، حاملة الجرة ، الفتاة الغيداء التي لم يفهم جمالها أحدٌ سواي ، والتي ظلتْ وهي ميتة تَشُوقُ قلبي وأنا أعيش نائياً في باريس

وما زال ذلك الطريق موجوداً إلى اليوم ، ولكن من ذا الذي

يفهم سِحره من أهل سنتريس ؟ أنا الذي أعود إلى بلدي في الأتوبيس. فأستوقف السائق وأنزل قبل المحطة لأصل إلى بيتي من ذلك الطريق ، وما هو والله بأقرب الطرق ، ولكنه يذكرني بتلك المحبوبة الغالية التي كنتُ أحسب الجرّة فوق رأسها هالةً من النور الوهاج.

ما ذا صنعَت المدنية بالريف الجميل ؟

ما ذا صنعَتْ ؟

أنتم لا تعرفون الخطر ، فدعوني أحدّثكم عما جنَت المدنية.

كانت تلك المشاهد الجذابة فرصة يعرف فيها الشاب مَن تصلح لإيناسه في الحياة الزوجية : فكان يرجع إلى أُمه وفي صدره أحاديث وأحاديث ، وكانت الأمُّ تخلو بابنها في ناحية من الدار فيحدّثها ابنها العزيز ، وهو أشعر من جميل وأخطب من سَحبان ، وتمضي الأحاديث بين الأم وابنها في درس ما في الصبايا من محاسن وأخلاق

فما ترونه اليوم في حياة المدنية من تعرُّف الفتى إلى الفتاة في الملاهي والملاعب كنا نعرفه نحن بالنظرات الثواقب ، وكنا ندركه بأحاسيس القلوب

قد تقولون : ألم تكن هناك مآثم في شهود أسراب المِلاح وهنّ يغدون ويرُحْنَ إلى السواقي وإلى النيل كما يرُحْنَ إلى شواطىء دجلة وشواطىء الفرات ؟ ألم يكن هناك من تندُّ منه كلمة نابيــة أو يشرُدُ منه لحظٌ مريب ؟

وأُجيب بأن فتيان الريف كانوا في غاية من الأدب والذوق ، وما أذكر أبداً أن فتاة شكت إلى أبيها أو أخيها من فضول الشبان . وما أذكر أن من الفتيان من استطاع أن يوجه كلمةً نابية إلى إحدى الفتيات ، أو يرمقها بنظر أثيم

الأدب كله في الريف ، والحياء كله في الريف ، ولكن أبناء المدنية لا يعلمون

على أن هناك ناحية من الأدب جنتْ عليها المدنية يوم دخلت الريف ، هناك الأدب العذب الذي كان يتمثل في مثل هذا الموّال :

بالله يا بَحْر حِيّ جاشْ مَلاَ بدري

وفي هذا الموال :

يا ساقية الُحب دوري وانْزِحي سكّر

ولهذين الموّالين نظائر وأشباه كانت نعيم السامرين فى سهرات الريف

وهناك أيضاً الصُّور الفنّيّة ، صور الفلّاحات المليحات وهنّ يملأن الجِرار من ماء النيل

ألم تروا صور السيدات الأوربيات في أزياء الفلّاحات ؟

ألم تعرفوا أنه كان من الطريف حين يقترنُ مصريٌّ بفتاة أوربية أن يأخذ لها صورة وهي في ثياب فلّاحة تملأ جَرّتها من النيل !

ألم تسمعوا أن أفضل تماثيل « مختار » كان صورة للحياة الفطرية على شواطىء النيل ؟

إن المدنية جنت على الريف أبشع جناية منذ اليوم الذي مكّنَتْ فيه كلّ فلّاحة من أن تستغني عن السواقي وعن النيل . وأفكارُ المدنية جَنَتْ أيضاً على حياة الريف : فقد فهمت الفتاةُ الريفية أن من حقها أن تمكث في البيت فحُرِمنا من المنظَر الجميل الذي مثّله الأستاذ رمزي نظيم وهو يقول في فتاة يُشرق نورها في الحقول :

شاغله اللّي سارح في غيطه واللّي مروّح

جاشت هذه الخواطر في قلبي وأنا أنهبُ بعينيّ شوارد

الحسن الذي سَكَن إلى شاطئ دجلة كما تسكن الحمائم إلى العابثين في حدائق باريس ، وتذكرت أن الشواطئ العراقية لا تزال تعرف هذا اللون الجذاب من ألوان الحياة ، وتذكرتُ الفتاة التي غازلتُها على شاطئ الفرات يوم زرت الفَلُّوجة ، وهي فتاةٌ طَهُور لا يؤذيها اللهو المباح ، والجمال كلُّ الجمال في ظَرْفِ عقائل العراق

ولو لم يكن قلبُ ليلى قُدَّ من الصخر الجُلمود لقضيتُ ما بقيَ من حياتي في صيد السَّمك بالعراق

تَمَنَّى أن يَرَى ليلَى بِجَمْعٍ ليسكُنَ قلبه مما يُعاني
فلما أن رآها خوَّلتهُ بِعادًا فَتَّ في عَضُد الأماني
إذا سمح الزمان بها وضنَّتْ عليَّ فأيُّ ذنبٍ للزمانِ

* * *

— خذ زاد قلبك وعينيك للأيام البواقي !

كذلك هتف رفيقي ونحن نواجه طلائع الُحسن على شاطئ دجلة ، فتذكرتُ ما بين مصر والعراق من الفروق في دقائق الأذواق : فالعراقيّ لا يسوءُهُ ولا يؤذيه أن يسمع منك حديث

الوجدان ، أما المصريّ فيتحرّج ويتلوّم حين يسمع ذلك ، ولن أنسى كيف انتاشتني جرائد الفيوم حين كتبت كلمة في جريدة (بحر يوسف) أذكر فيها كيف كنت أَنْعَمُ في طفولتي بترنيم هذه التغريدة :

« يا بحر يوسف يا ما فيك كل بُلْطِيّه »

وكيف كنت أفهم أن « البلطية » هي رمزٌ للغادة الحسناء

انتاشتني جرائد الفيوم في صيف سنة ١٩٣٦ حين قلت ذلك ، مع أن الفيوم يعرف حلاوة العنب وحلاوة التين ، ولم يرقّ طبعه مع هذا الغذاء الرقيق !

وقد قلتُ مرة إن مدينة الحِلّة تشبه مدينة الفيوم أو مدينة شبين الكوم ، فليكنْ مفهوماً أن هذا تشبيهٌ مع الفارق ، فجرائد الحلة لا تتحدث عني إلا تحت عنوان « طبيب ليلى » وأهلها مع ذلك يعرفون أنهم يتحدثون عن رجل يتشرف بخدمة العلم والأدب في العراق

عفا الله عنك يا ليلى !

كيف تردّينني إلى مصر ، لأصوم عن أحاديث الصبابة والحب !

كيف تردّينني إلى البلد الذي لا يتقدم خطوةً إلا ليتأخر قلبي خطوات !

كيف تردينني إلى البلد الذي يرى أهله أن النعيم كل النعيم في الماء المرشّح ، وهم مع ذلك يعرفون أن أجدادهم الذين جهلوا تقطير الماء لم يعجزوا عن بناء الأهرام ، ولم تعوزهم نعمةُ العافية ، ولم ينقصهم صفاء الأرواح

ردُّونا إلى العهد الأول ، وأمكنونا من ذوات الجدائل وهنّ يتخطرن في الضحى والأصيل

لقد ماتت حبيبتي الأولى في الريف ، ولكن ابنتها اليوم ترسل السهام المسمومة إلى غافيات القلوب ، فدعوني أصوّب صدري لسهام تلك الغيداء ، دعوني أمتْ وأنا ساجي الجفنين إلى صدر تلك الطفلة التي شربت من كف أمها أكواب الصفاء

أتريدون أن تصلحوا الريف ؟

أصلحوا قلبي أولاً ، ثم افعلوا بالريف ماشئتم ،
أصلحوا قلبي فأنا الشاعر الذي تعرفون ، وأنا والله أبقى
لكم من كل ما أبدع التمدن الحديث

* * *

طافت هذه الخواطر برأسي وأنا أنظر جِنّيّات الشاطىء
ثم خفتُ أن أفتضح فتكلفت الرغبة في أن أعرف تاريخ
القنطرة التي تواجه الجسر المصنوع من الحديد ، فقال
رفيقي إن الذي بناها مهندس مصري وقد غلبه التيار
فانحرفت القنطرة بعض الانحراف ، فقلت في نفسي : ولعل
جنية من جنيات الشاطىء جنت عليه فأورثته الخبال !

أنا أبحث عن قريبات ليلى ، فأين قريبات ليلى ؟
أَكُتِبَ عليّ أن أخيب في كل ميدان ؟

إن حالي في العراق حالُ المَلَك الذي نزل من السماء
ليلهو أسبوعاً أو أسبوعين في باريس ، وقد حدثنا
أناطول فرانس أن ذلك المَلَك حين تفقّد أجنحته ليرجع
إلى السماء وجد ريشها قد عُطب فَعَسُرَ عليه الصعود

وكذلك دَخلتُ العراق وأنا في أنفُس أهله من كبار العلماء ، فما هي إلا أيام قلائل حتى فضحتني ليلى وصيرتني كما قال رامي في أغاريد أم كلثوم

« قلبك غدر بي ورماني وفرّج الناس عليّ »

أين أذهب ؟ أين أذهب ؟

لابدّ من التخلّق بأخلاق العلماء لأستر فضيحتي وأداري بلائي

— يابا

— مولاي

— أنت تعرف أني أتأذّى من أن يمرّ وقتي بلا نفع

— أوقاتك كلها نفع ، يا دكتور

— لا ، لا ، أنا أعرف قيمة أيامي بالموصل ، ولا يكفي عندي أن يقيم لي الدكتور عبد الأحد عبد النور وليمة غداء ، وأن يقيم لي الدكتور لويس ليبب وليمة عشاء ، وأن يحتفل بقدومي أعضاء نادي الجزيرة ، فهذه كلها شواهد من اللطف ، ولكنها لا تملأ الفراغ الذي أحسه في قلبي وعقلي

— وماذا تقترح ؟

— أقترح التعرف إلى الموصل

— إيش لون ؟

— أحب أن أعرف كل شيء في هذه المدينة

— ذلك مطلبٌ عزيز المنال.

— تعال ننظر إلى الظواهر فهي بابٌ إلى الحقائق

* * *

دخلتُ المكتبة العامة وهي تسمّى « مكتبة غازي » فرأيت فيها أفواجاً من المطالعين هم جميعاً من الطلاب ، ورأيت فريقاً منهم يتخذها مكاناً لمراجعة الواجبات المدرسية فدلّني ذلك على أن في شبان الموصل من لا يجد النور والهواء إلا في مثل ذلك المكان

والمكتبةُ فقيرةٌ فقرًا مُدْقعًا ، فليس فيها من الكتب غير ثلاثة آلاف وثلثمائة وسبعين ، ومعنى ذلك أن مكتبتي الخصوصية بمصر الجديدة أكبر منها ثلاث مرات !

ونظرتُ في عدد المطالعين في هذه السنة فوجدتُ من

طلبوا الجرائد والمجلات وصلوا إلى ثلاثة آلاف ، ورأيت كتب الأدب طلبها ١٨١٢ والروايات طلبها ١٩١١ وكتب الحقوق طلبها أربعة فقط ، والمعاجم والموسوعات طلبها ١٨٨

أما الكتب الاقتصادية والنحوية فلم يطلبها أحد

وحرصت على أن أعرف ما بأيدي المطالعين حين دخلتُ فوجدتُ من المجلات (الدنيا) و (الفكاهة) ورأيت من الكتب (الأجنحة المتكسرة) و (النظرات) و (مرجريت) و (حب ابن أبي ربيعة)

ومن واجبي أن أسجّل أن هذه المكتبة لا تناسب ماضي الموصل ولا حاضر الموصل ، وما قلت إن مكتبتي الخصوصية أكبر منها ثلاث مرات إلا لأحرّض أهل الموصل على إغناء هذه المكتبة بألوف المجلدات ، وسيظهر أثر هذا التحريض بعد قليل

* * *

خرجتُ من المكتبة فوقفتُ لحظة على شاطىء دجلة ،

وما زلتُ في رحاب المكتبة ، فوجدتُ الشاطىء الآخر يزدان بحديقة جميلة توحي الشعر والخيال

فوثبتُ إليها في لحظتين

هل أقول إن هذه الحديقة أنشئت سنة ٤٥٠ هـ وهو التاريخ الذي أسّس فيه الجامع الكبير ؟

هل أقول إنها أنشئت سنة ١١٥١ هـ وهو تاريخ المنبر بذلك الجامع ؟

لا هذا ولا ذاك : هي حديقة أنشئت بعد استقلال العراق ، ويقال إن الذي فكر في إنشائها رجل من الانجليز ، وكانت تسمّى باسمه ، ولكنها اليوم تسمّى حديقة الشعب ، وفيها مَشابه من حديقة النباتات في باريس

و في طرف من أطراف تلك الحديقة رأيت نبات « الهُعْخُع » الذى يُذكَر في مقدمات كتب البلاغة ، وقد بلّغتُه تحيات الأساتذة بالأزهر الشريف !

وعرفت أن الحديقة تنقسم إلى قسمين : قسم لنزهة الرجال ، وقسم لنزهة النساء

وقد اعترضتُ على هذا التفريق لأولِ وهلة ، ثم رأيت ما أقنعني بعقل أهل الموصل

رأيت امرأة ملفوفة في عباءة فطار صوابي ، هي دنيا من الحسن يتموَّج في ثنايا ذلك الجلباب ، هي فتنة تنقلها المقادير من شطّ إلى شطّ ، ومن جادّة إلى جادّة ، ومن دَرْبُونة إلى دربونة ، إلى أن تكفّ أذاها عن الناس بوضعها في بيت مسدود

وتقدم رفيقي فقال لها في همس : هل تعلمين أن طبيب ليلى في الموصل ؟

فقالت في تلهف : وَدُّوني عليه !

وما كدت أسمع هذا الجواب حتى هربتُ

وكيف أَصْمُدُ لهذه الفتنة المتحركة وأنا رجلٌ خفّاق القلب ، مفضوح النظرات ؟

لا أدري كيف يسكت شعراء الموصل في هذه السنين

إنطِقُوا يا عنادل فان الحسن في وطنكم يُنطِق الجلاميد

إنطقوا ، يا عنادل ، إنطقوا

إنطقوا لتسكت الضفادع التي تطيل النقيق في حديث الحرام والحلال !

* * *

ومضيت فزرت طوائف من مدارس البنين والبنات ، زرتها باسم الدكتور زكي مبارك المفتش في وزارة المعارف المصرية ، والعَجَب كل العجب أن أَصلُح للجد الرزين مع الذي اشتهرتُ به من الُهيام بعيون الظباء

لم أدخل مدرسة إلا ألقيتُ فيها بذوراً من المبادىء الصِّحاح ، وستذكرني مدارس الموصل بالخير الجزيل ، إن شاء الله ، فهو عزَّ شأنه لا يُحبِط أعمال القلوب

حضرتُ حفلة ختامية في إحدى المدارس ، فرأيت الخطب تنقسم إلى قسمين : قسم باللغة العربية ، وقسم باللغة الإنجليزية .

فعلوتُ منصة الخطابة وأعلنتُ أنه لا يجوز أن تكون الخطب المدرسية بغير اللغة القومية ، وفطن الحاضرون لقيمة هذا النصح فألغوا الخطب الإنجليزية من منهج الاحتفال

وما كان من همي أن أحارب انجلترا في كل بلد أحلّ فيه ، ولـكن كان من همي أن أدل العرب في كل أرض على قيمة العصبية القومية ، وهل يسمح الإنجليز في بلادهم أن يكون للغات الأجنبية صوت في الحفلات المدرسية ؟

لقـد كافحتُ بمـاهد الليسيه في مصر كفاحاً عنيفاً لأجعل للغـة العربية مكاناً في الحفلات المدرسـية ، ولولا تلطُّف المسـيو دي كومنين لـكان الوصـول إلى ذلك من المستحيل

فـكيف تُزاحِمُنا لغـة أجنبية في مدارسنا العربيـة ؟ كيف ؟ كيف ؟

وقد أزعجني أن يقع هذا من مدرس مصري هو من تلاميذي القـدماء ، ولـكن سرَّني أن يعرف الأستاذ مينا عوض قيمة الصدق في صدر أُستاذه القديم فيعترف بالحق

وأذكر بهذه المناسبة أن المصريين يَحْيَوْن في الموصل حياة سعيدة ، وهم موضع التـكريم هناك

* * *

وقد وقعتْ نادرة تستحق التدوين

دخلتُ إحدى مدارس البنات فوجدتُ المدرسة في هرج ومرج ، ثم سألتُ عن السبب فعرفت أن التلميذات تسامعن بقدوم الدكتور زكي مبارك فانزعجن أشد الانزعاج لأنهن ظنن أنه جاء ليقوم بعملية التطعيم ضد التيفود

ولم تهدأ الخواطر إلا حين أعلنتْ مديرة المدرسة أن الدكتور زكي مبارك طبيب أرواح لا طبيب أبدان

أنا طبيب أرواح ؟

ليتني داويتُ روحي !

أنا طبيب أرواح ؟

أنا ؟ أنا ؟

ومن هو العليل الذي يبذر جراثيم الفُتُون في كل بلد يحلُّ فيه ؟

إني لأعجب كيف تتسع رحمة الله لرجل في مثل حالي

كم تألمتُ ، وكم بكيتُ ، كلما تذكرت إساءتي إلى نفسي وإلى الناس

لقد جعلتُ الحديث في الحب شريعةً من الشرائع

هل أحسنتُ ! هل أسـأتُ ؟ لا أعرف بالضبط ،

ولكن قلبي يحدّثني بأني كنتُ من المسرفين

تمرُّ بي لحظات أنس ، ولحظات بؤس

أتوهم حيناً أني أخدم لغتي بهذه الأحاديث

وأعتقد أحياناً أني أهدم الأخلاق بهذه الأحاديث

فأين مكان الخطأ ، وأين مظنّة الصواب ؟

ومن العجيب مع هـذا كله أن أكون أصـدق من شُغِل في هذا العصر بدراسة الأخلاق

أحب أن أعرف نفسي ، فهـل أستطيع أن أعرف نفسي ؟ هيهات ، هيهات ! !

ليلى هي السبب في محنتي وشقائي

تركت ليلى المريضة في الزمالك ، فوجدت ليلى المريضة في العراق ، وكنت وجدت لهما أختاً قبل ذلك في باريس

فأين المفرُّ من العيون العسليّة والعيون الزرق والعيون الشُّهل والعيون السود ؟

أين المفرُّ وبيني وبين الجمال أسلاكٌ جواذبُ من الكهرباء ؟

ولو كنتُ رجلا فاسقاً لعرفتُ الحدود وانتهيت

ولكني رجلٌ عفيف ، وهنا تظهر دِقّة الإشكال

ومن الذي يصدّق أني رجلٌ عفيف وقد ملأتُ الدنيا بالحديث عن طغيان الشهوات ؟

إن ليلى هي التي تستطيع أن تشهد بعفافي

ولكن هل في مقدور امرأة أن تقول كلمة الحق ؟

ما رفعتُ بصري إلى امرأَة إلا مضت تقول في كل مكان إن بيني وبينها أَشياء

وينهاني الأدب عن تكذيب الملاح فتسوء سمعتي بلا حساب

أَشهد أَني سأكون أَضعف الناس حُجةً يوم أَلقى ربي ، وما أَظنني سألقاه إلا بدمع دافق ، فهل يتفضل عزّ شأنه فيغفر ذنوبي ، كما ستر عيوبي ؟

إني لأعجب ثم أَعجب ثم أَعجب كيف سكت الله عني عشرين سنة أَو تزيد فلم يفضحني ، مع أَني رجلٌ مسكين لن يجد في حسابه حسنةً واحدةً يوم تُنصَب الموازين

وهل رأَت العيون أَغرب وأَعجب من أَن يكون لمثلي تلاميذ يقبِّلون يُمناه بحرارة و قوة ؟

عفا الله عنكم يا تلاميذي ، فأنتم لا تعرفون أَن أستاذكم خرَّب ما بينه وبين الله أَشنع تخريب

ثقوا يا تلاميذي بأني خدعتكم أَقبح خداع ، وما سكت الله عني إلا لأنه رآني أَصغر من أَن أَستحق التأديب ، أَو لأنه رأَى من حق الأطفال أَن يرسموا ما يشاءون من الخطوط فوق الرمال

ليَ عذرٌ واحدٌ يا تلاميذي ، فقد عزّ عليّ أَن أَترك عواطفي تتبدد فلا يسجِّلها غناء ولا أَنين ، مع أَنها أَكرم من الذهب وأَثمن من الماس

لو شرب الصخرُ من رحيق الوجود بعض ما شربتُ

لتحوّل إلى أَوتار وقلوب ، فكيف أصمُت والدنيا كلها تتأرج من حولي بأنفاس الأزهار والرياحين ، ولي قلبٌ يتشوف إلى أفنان الجمال تشوُّف الشمس إلى أَنداء الصباح

لا تغتروا بعفو الله يا تلاميذي كما اغتررتُ إلا إذا كان فيكم رجالٌ يعرفون عيوبهم كما أعرف عيوبي

وأنا أدعوكم إلى سحب الثقة من أستاذكم الجهول

أَدعوكم إلى اليقين بأنكم عرفتم رجلا لا يستأهل رحمة الله ، ولو حاسبني الله بميزان العدل لمحا اسمي محواً من قائمة الوجود

اسمعوا ، يا تلاميذي ، اسمعوا

إن ناساً يعتذرون عني فيضيفونني إلى الصوفية .

وهذا حقٌ من جانب وخطأ من جانب ، فأنا متصوف بالقول لا بالفعل

ولولا الأدب مع الله الذي ستر عيوبي لفضحتُ نفسي بلا ترفق ، وأريتكم مبلغ الزور والبهتان في سُلوكي ،

السلوك الذي لا يليق برجل يؤمن بفاطر الأرض والسموات

اسمعوا ، يا تلاميذي ، اسمعوا

لقد فتحتُ أمام أعينكم وقلوبكم آفاقاً من الضلال يوم أقنعتكم بالقلم واللسان أنكم مأمورون بالنظر في كل شيء

فهل تستطيع أعينكم وقلوبكم أن تُدرك المجهول من حقائق الوجود ؟

إن أستاذكم ضاع ثم ضاع ، لأنه خاطَب الناس بما لا يفهمون ، فاحذروا أن تخاطبوا الناس بما لا يفهمون

وهل تصدّقون أني خاطبت نفسي بما لا تفهم نفسي ؟

هل تصدقون أني رأيت ربي رأي العين ، وأني حاسبته أشد الحساب ؟

أنا أتهم الله أمامكم يا تلاميذي : فهو الذي هداني إلى الضلال ، وهو الذي دعاني إلى التغريد فوق أفنان الجمال

هو الذي صاغ قلبي من الرفق والعطف والحنان

هو الذي قضى بأن أعيش شقياً لأموت شقياً

هو الذي اختصّني بهذا الروح الشفّاف لأكون أضحوكة الجاهلين والسفهاء

هو الذي خلق لي لساناً لا يتحبّس، وقلماً لا يتوقّف ، لأعلن عن سفاهتي في كل أرض ، ولتسير غوايتي سَيْر المثَل الشَّرود

اسمعوا ، يا تلاميذي ، واعقلوا

سيموت أُستاذكم مقتولاً بسحر العيون

وهو يرجوكم أن تخصوه بالدعوات الصالحات ، في أعقاب الصلّوات

وثِقُوا يا تلاميذي بأن عطفكم عليّ هو أثمن ما اقتنيت من الذخائر في حياتي

ثقوا بأنني ما ادخرتُ لنفسي غير حبكم وكرمكم وعطفكم وما أحسبني من الخاسرين

سيترك لكم أستاذكم تركة مُثْقَلَةً بالديون ، فدافعوا عني واقضُوا ديوني

وأنت يارب ، ماذا ادّخرت لعبدك الأوّاب ؟

أكتُبْني من المشردين في حبك ، واجعلني من المضللين في هواك

* * *

— دكتور ، دكتور

— نعم ، ياسيّدي

— بقيتْ في الموصل أعاجيب ، فهل تحب أن ترى تلك الأعاجيب ؟

— وما هي تلك الأعاجيب ؟

— نحن ذاهبون إلى دير مار جيوارجيس

— وأين ؟

— في ضواحي نينوى

* * *

كنت أحب من زمن بعيد أن أشهد نظام الديارات التي صنعت ما صنعت بألباب الشعراء ، ولكني بلا أسف لن ألهو بها كما لها الشعراء ، فما تركت لي الدنيا مجالا ألهو فيه وألعب ، وإنما أذهب اليوم إلى الدير لأحقق الفروق بين الدير عند الرهبان والزاوية عند الصوفية ، وهو موضوع شغلت نفسي بتحقيقه في كتاب (التصوف الاسلامي)

والواقع أن نظام الأديرة نشأ في أقدم عهوده بمصر ، ورهبان الموصل على بعد الدار يعرفون ذلك ، ويقولون إن

القديس أنطونيوس المصري هو أبو الرهبان ، وقد نشأ في قرية تسمّى كُوما بالصعيد

وكذلك يقول الرهبان الذين عرفتهم في باريس وهم يرجعون الفضل في وضع نظام الرهبنة إلى آباء الصحراء ، الصحراء المصرية ، ولهم في تأكيد هذا المعنى أبحاث طوال

وفي اللغة الكلدانية كتاب عن رهبان مصر يسمى (فردوس الآباء) وهو مترجم عن اليونانية

وسَبْقُ مصر إلى نظام الرهبنة له سببٌ معقول ، فمصرُ — عفا الله عن مصر — تقهر المرء قهرًا على الايمان بالله وتفرض عليه أن يفرّ من الناس إلى المفازات والمغارات .

والمرء لا يعرف ربه إلا عند البأساء ، وما عاش إنسانٌ في مصر بلا بأساء

في مصر جَمالٌ وهّاج ، ولكنه أحمق وعِربِيد

وفي مصر أوديةٌ خُضْر ، ولكنها لا تُضمَن إلا لمن يملك السلاح

في مصر كلُّ شيء ، وليس فيها شيء !

***

دخلت الدير أستلهمه وأستوحيه فاستأنس رهبانه كل الاستئناس ، وتقدم رئيسهم فقال : من السيد ؟

فقال الدكتور لويس لبيب : هذا طبيبُ ليلى شفاها الله !

فابتسم رئيس الرهبان وقال : وشفاه الله !

ومرّ بالخاطر أن هؤلاء الرهبان كانوا يستقبلون أبناء الدنيا من حين إلى حين ولسانُ حالهم يقول : إلى فردوس الصفاء لحظة أو لحظتين يا أبناء الدنيا الغادرة التي تأكل بنيها قبل أن يفتحوا أعينهم على نور الوجود !

— إيش لون ليلى ؟

— بخير وعافية

— ألا تزال في حبها الغاضب عليك ؟

— ما تزال غَضْبَى ، يا مولاي ، وأنا أطير من أرض إلى أرض لأبحث عن الشفعاء

— هاتها مرة واشرب معها هنا كأسا أو كأسين !

— لو كانت ليلى تشرب الصهباء لوصلتُ إلى قلبها منذ أزمان ، ولكنها لا تشرب الخمر أبداً ، ولا تعفو عن

الشاربين ، وأخشى أن أهمّ بتقبيلها فتشم رائحة الكأس التي كنتُ هممت بشربها منذ أعوام طوال

— وأنت تشرب ؟

— أفكر في الكأس من حين إلى حين

— وتحبُّ ما تبغض ليلاك ؟

— أنا أداعب خيال الشراب ، لأقترب منها بعض الاقتراب ، لأن رُوحها صِيغ من حبَب الصهباء

— وأين تقيم ليلاك ؟

— في بغداد

— في أي محلة ؟

— في شارع العباس بن الأحنف

— وكانت بينك وبينها أشياء؟

— نعم ، أشياء ، وأشياء ، توهمتُها مرةً تثِبُ إلى صدري وتقبّلني ، وتوهمتُها مرةً ثانيةً تمسح جبيني بترفق ، وتوهمتُها مرةً ثالثة تسأل عن مكانها من قلبي ، وتوهمتُها مرةً رابعة تترحّم على مصيري في هواها ، وتوهمتها مرة

خامسة تتوج لشقائي وسهادي . وأؤكد لك أيها الراهب الجليل أنها سمحتْ لخيالي بأن يطوف بقلبها الخفاق من حين إلى حين ، أؤكد لك وأنا واثقٌ من صحة ما أقول أنها رضيتْ بأن أكون في هواها من الشهداء .

أيها الراهب ، اسمعْ ثم اسمع ، فما كنت من الكاذبين ، إن ليلى سمحت بأن أرى وجهها في القمر حين يَطلُع ، وأن أشمّ شذاها في الزهر حين يتأرّج ، وأن أرى طغيانها في الفرات حين يَهْدِر ، ولم تكتف بذلك ، أعزّها الحب ، بل رضيتْ بأن أراها في حفيف النسائم ، وهديل الحمائم ، واصطخاب الأمواج

إن ليلى — وما أكذب عليك — تسمح بأن أتوهم أنها ستزورني في مصر لتقيم بين ذراعيّ أسبوعاً أو أسبوعين

إن ليلى ، أيها الراهب ، وعدَتْ بأن تمنحني نعمة الجنون ، وهي لا تَعِدُ لِتُخْلِف

إن ليلى هي غاية الغايات ونهاية النهايات في السخاء

فان كنت في ريب من ذلك فاعلم أنها أباحتني منذ شهرين أن أعتقد أنها طوقت عنقي بأطواق من الحديد ، وأنها سترقم اسمي في صفحات الخلود .

إن ليلى ، أيها الراهب ، ساجية الجفنين ، أسيلة الخدين ، مُشرقة الجبين

إن ليلى تحبني ، ولكنها تكتم ، لأن لها هوًى في الكتمان

أحبك يا ليلى ، فاصنعي بقلبي ما تشائين

— يا دكتور مبارك

— نعم ، أيها الراهب

— هل لك أن تحدثني كيف صفح عنك العراق ؟

— وماذا جنيتُ حتى يمنّ العراق بالصفح عني ؟

— إن مذهبك في حب ليلى سيقتلها أشنع القتل

— وكيف ؟ أنا أقتل ليلى ؟ أنا ؟ إن كل همي أن تذكرني ليلى بالشّعر يوم أموت .

— إسمعْ يا دكتور مباركِ ، ما هكذا يكون الهُيام بالمِلاح

— وكيف يكونِ الهيام بالملاح ؟

— يكون مزاجاً من الطُّهر والدَنس

— وهو كذلك ، وهل خلتْ حياتي في حب ليلى من دَنَس ؟ لقد مررتُ بدارها مرةً فقبَّلتُ الجدران ، وعفَّرتُ جبيني بالتراب ، وسألت الله أن يحفظ عليها نعمة التأبّي والتمنُّع فلا أعانقها إلا في رحاب الخيال ، اسمعْ أيها الراهب ، لقد شفيتُ نفسي من ليلى فتمثلّها في الأحلام وهي تَصْدِف عني

— وكيف عجزتَ مع هذه الفصاحة أن تسيطر على قلب ليلاك ؟

— قلبُ ليلى طوعُ يميني أسيطر عليه كيف أشاء

— وما وجه شكواك ؟

— ما وجهُ شكواي ؟ وجهُ شكواي أننا لا نجتمع ولا نفترق إلا متخاصمين ، واللئيمة تتوهم أن الشقاء

في الحب باب النبوغ والعبقرية ، فهي تريد أن تدفعني دفعاً إلى الخلود ، والفناء بين ذراعيها أحبُّ إليّ من الخلود

— هل وقع بينك وبينها مرةً ما يذكّر بأحوال العشاق الآثمين ؟

— نعم ، نعم

— فصِّل ذلك بعض التفصيل

— دخلتُ عليها ذات ليلة فوجدتها . . .

— إمض في حديثك

— وجدتها . . .

— هِيهْ

— وجدتها . . .

— حدثني ماذا وجدت ؟

— وجدتها في انتظاري

— ثم ماذا ؟

— أتظن أيها الراهب أني أحدثك بما لو سألني الله عنه لكتمتُ وأنكرت ؟

— دخلتما معاً فردوس الوجود ؟

— دخلنا معاً فردوس الخلود

— خبّلتني ، خبّلتني

— أغرقْ نفسك إن شئت في يَمّ الخبال

— أنت مزعج ، يادكتور مبارك

— إن ليلاي ، أيها الراهب ، فوق الأوهام والظنون

— أليست امرأة كسائر النساء ؟

— هي امرأة ، ولكنها ليست كسائر النساء ، فقد وقعتْ بيننا فنونٌ من الوصل حار في فهمها الملائكة فما يدرون أيضعونها في سِجلّ الحسنات أم في سجل السيئات وأنا بحيرة أولئك الملائكة فرِحٌ جذلان

— امرأة خالية ؟

— امرأة حقيقية ، امرأة من لحم ودم وأعصاب ، تأكل القلوب ، وتذرع بغداد وضواحي بغداد من الأعظمية إلى الكرادة الشرقية ، ولكن البلاء كل البلاء ، والخطر كل الخطر ، أن تسقيني تلك الكأس

— أي كأس ؟

— كأس الحب ، هل تصدّق أيها الراهب الجليل أني لم أعرف بلايا الحب إلا في العراق ؟ هل تصدّق أني عشتُ دهريَ ألهو وألعب بألباب الملاح إلى أن وقعتُ في هوًى تلك السمراء ؟

— ليلاك سمراء ؟

— أقول إنها سمراء

— هي إذنْ بيضاء

— ولكن عيونها سود

— عرفتُ أن ليلاك بيضاء

— هي سمراء

— كنت فهمتُ من كلامك أنها بيضاء

— ولكن عيونها سود

— أهي موصلية ؟

— أبوها بَصريٌّ وأمها مَوْصِلِيّة ، ولعلها من الجنّ ، والله أعلم بالصواب

— يادكتور مبارك

— نعم ، أيها الراهب

— يجب أن تخرج من العراق

— ولماذا أخرج من العراق ؟

— لأنك من الشياطين

— وهل كنتُ من الرهبان ؟ !

— الرهبنة في صدرك وإن لم تدخل الدير ، وهل صحّ لرجل قبل اليوم أن يُلبس المرأة ملابس سماوية ؟

— ليتك رأيت ليلاي ، أيها الراهب ، ليتك رأيتها لتعرف كيف يكون الرفق وكيف يكون الحنان

— وما شكواك ؟ حدثني ما شكواك ؟

— شكوايَ أني غريقٌ في كوثر الوصال

— تلك شكاية المجانين

— وأنا مجنون ، مجنون ، مجنون . اسمعْ أيها الراهب ، إنك لا تحب ربك كما أحب ليلاي ، ولو أحببت ربك كما أحب ليلاي لمشيتَ فوق الماء . تعال معي

إلى بغـداد لأريك ليـــلى فقد يفتح الله عليك

— أتريد أن تفتنني ؟

— أنت أيها الراهب أضعف من أن تَصلُح للفتون

— أتريد أن تقول إنك أقوى مني

— نعم ، أنا أقوى منك ومن جميع زملائك ، فقد عانيتُ من سِحر ليلى ما يهدُّ الجبـال ، ومع ذلك ظللتُ رجلاً محترماً يتولى تثقيف الشبان في بغـداد ، وسـأفارق بلادكم وأنا برعاية الله مستور الهفوات

— أنت مغرور !

— المغرور هو من يتوهم أنه نجـا لأنه اعتصم بالعزلة في هضبات نينوَى

— أنت جاهل

— وأنت أجهل مني

— أنت مصريٌّ مخدوع

— وأنت موصليٌّ أحمق ، تعال معي إلى ليلى وانظر كيف يطيش لبك ، وينهدم وقارك

— لا تنتظر أن يدوم ستر الله عليك

— إن الفضيحة في حب ليلى هي نعمة من الله الوهاب

— أنت مُضَيِّع

— أَنت وحدك المضيِّع

— رأسي شاب في العبادة فأنا أفضل منك

— وقلبي ذاب في العشق فأنا أفضل منك

— أنا نصرانيٌّ وأنت مسلمٌ

— وأنا مسلمٌ وأنت نصرانيٌّ

— أنا متبتِّل وأنت فاجر

— وأنا فاجر وأنت متبتل ، وستعرف مصيري ومصيرك

— اخرج من الدير

— وإلى أين أخرج ودنياي كلُّها ديرٌ يا قِسِّيسُ !

* * *

وهنا تدَخَّل الدكتور لويس لبيب فقال :

— أمن أجل هذا حضرنا يا دكتور مبارك ؟

— معذرةً يا صديقي ، فالرهبان أصدقائي ، والمرء لا يطول لسانه إلا حين يظفر بصديق ، وهل يصل إليك الأذى إلا عن طريق الاخوان والأصدقاء ؟

— كان الظن يا دكتور مبارك أن تضع القواعد لدستور جديد

— من الغدر أن أخرج على طبيعة الأرض التي منها خُلِقنا وإليها نعود

— وهذه الأرض توجب السفاهة والحمق ؟

— وتوجب الطيش والجنون

— أما استطاع حبٌّ ليلى أن يرفعك ؟

— بلَى ، إنه رفعني فوقكم درجات

— وأين الدليل ؟

— الدليل هو أن أستغفر شيخ الرهبان ، وأن أشرب معه كأساً من الخمر التي عصرها بيديه الكريمتين

* * *

ورجعتُ إلى نفسي لحظة فتوهمت ليلى تعانقني بحضرة

الرهبان فطربتُ وانتشيت وطلبتُ كأساً مما عصر الرهبان بأيديهم فوجدتها حلوة المذاق ، وما كان يهمني أن أشرب كأساً من يد راهب ، ولكني تذكرت أن الدكتور منصور فهمي كان حدثني بحضرة الدكتور طه حسين أنه شرب كأساً من يد راهب في أحد ديارات اليونان . ونحن أشقى من سَدَنة الهياكل وأحوج منهم إلى وَأْد الهموم في مهاوي الكؤوس

نحن أشقى الناس لأننا عرفنا بعض ما لا يعرفون ، وساءت أحوالنا منذ اليوم الذي تأكدنا فيه أن الرياء سيد الأخلاق . فمن يبيعني مثقالاً واحداً من الرياء ويأخذ من أموالي ما يشاء ؟ من يهبُني رُبع مثقال من النفاق لأصلُح لأعظم منصب دينيّ في مصر أو في العراق ؟

أنا في أَزْمة عقلية لو سُلِّطت على جبلٍ راسخ لحوّلته إلى رماد تذروه الرياح ، وأكاد أُصعَق من الخوف كلما توهمت أني قد أنهزم في محاربة الرياء والنفاق

ولا أكاد أعرف الطمأنينة إلا حين أتذكر أني

أعلنت آرائي بالتفصيل في كتاب (التصوف الاسلامي) ثم استطعت أن أظفر بقبول تلك الآراء من لجنة علمية بالجامعة المصرية

ولكن هل ينفعني ذلك في حياتي ؟

إن رجال الجامعة المصرية لا يرتبطون بالآراء التي يبديها طلبة الدرجات العالية ، وإنما يجيزونها لأنها محاولات عقلية تعدُّ خطوات في تاريخ الدراسات الأدبية والفلسفية

وهل أستطيع إن قامت ثورة ضد كتاب (التصوف الاسلامي) أن أقول إني أخذت به إجازة عليه أمضاها طه حسين ومصطفى عبد الرازق وأحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل ؟

هل يستطيع هؤلاء الرجال أنفسهم أن يتقدموا لحمايتي ممن يجهلون قيمة المحاولات العقلية ؟

إن الجامعة المصرية تربّي أبناءها بضع سنين ثم ترمي بهم في بحر الظلمات الذي يسمّى المجتمع ، وتفرض عليهم أن يضطلعوا وحدهم بمقاومة الأمواج

وقد مضت أعوام وأعوام وأنا أكافح الأمواج في بحر الظلمات فما رحمني راحم ولا أغاثني مغيث

ويزيد في النكبة أن رجال الجامعة المصرية يعرفون من سياسة الجمهور ما لا أعرف

هم جميعاً في نظر الجمهور أطهار أشراف ، وأنا وحدي الفاجر الملحد فيما يزعم الجاهلون

رباه ، لم يبق أملٌ في غير الالتجاء إلى حماك ، فنجّني من شر الناس لأستطيع تربية أطفالي

* * *

جلست مع شيخ الرهبان أساجله الحديث ، وهو رجل فاضل يسمى يوسف داد يشوع ، و (دَاد) كلمة كلدانية معناها (حبيب) ويشوع هو يسوع يعني عيسى عليه السلام

وقد عجبتُ حين رأيت هذا « الدّاد » يتلقى هجومي عليه بالاحتمال ، ويظهر أنه ظنني أمزح ، وما كنت من المازحين

وأردت أن أستخبره عن ماضي نينوَى فقـال إن سكانها كانوا يبلغون المليون ، فاستكثرتُ ذلك ، فقال إن في التوراة نصاً يشهد بأنهم كانوا يقربون من المليون ، ثم قرأ في التوراة بالكلدانية ما ترجمته :

« كان في نينوى مئةٌ وعشرون ألفاً لايعرفون أيمانهم من شمائلهم »

ثم قال إن هؤلاء هم الأطفال الرُّضَّع ، والمدينـة التي يكون فيها مئة وعشرون ألفاً من الأطفـال الرُّضع يقرب عدد سكانها من المليون

فقلت : أخطأت في التأويل ، أيها القسيس !

فقال : وكيف ؟

فقلت : إن نص التوراة التي بيدك يشهد بأن سكان نينوى كانوا مئة وعشرين ألفاً فقط

فقال : هذا عـدد الأطفال الرضـع الذين لا يعرفون أيمانهم من شمائلهم

فقلت : إن التوراة لا تريد بعبارة « لا يعرفون أيمانهم

من شمائلهم » أنهم أطفـال ، وإنما تريد أنهم من أهل الجهل والضلال

وقد اقتنع الرهبان بصحة هذا التأويل

* * *

وحين رجعتُ إلى الفنـدق عرفتُ أن مغنّية مصرية اسمها بُثينة سـألتْ عني فقلت لرفيقي : وأين تغني هـذه المصرية ؟ فقـال : أنا أعرف أين تغني ولـكني لا أوافق على ذهابك إلى هناك ، لأن أَهل الموصل لا يرون حضور الملاهي مما يليق برجال التربية والتعليم

فقلت : ومن واجب أهل الموصل أن يعرفوا أن لي عدّة شخصيات ، منها شخصية الباحث الذي يؤمن بوجوب النظر في كل شيء ، وأنا أزعم أني أديب ، والصلة وثيقة بين الأدب والغناء

مضيت لأسمع صوت بُثينة فراعني أن أراه من كرائم الأصوات ، وسرّني أن أعلم أن هذه الفتاة استطاعت أن تظفر باعجاب المستمعين في حلب والموصل وبغداد ، وحدثني

رِفيقي أن لها سمعة حسنة وأن الجمهور يتحدّث بأنها تحرص على أداء الفرائض والنوافل وأنها نموذج في الأدب والأخلاق

فمن الذي علّم هــذه الفتاة أن حُسن السمعة هو أثمن مايتحلى به المغتربون من أهل الفنون !

أشهد أن هذه الفتاة خلبتْ لُبي وهي تغني ، وأشهد أن الجمهور المصري يجهل ذخائره الفنية في أكثر الأحيان

ولاحظتُ أن الغناء في ذلك الملهى أفانين مختلفات : ففيه أغانٍ عربية ، وأغان كردية ، وأغان تركيــة ، وهــذا التنوع يمثّل ما في الموصل من اختلاف الأجناس

ولن يمرّ إلا قليل من الزمن حتى تصبح الأغاني كلها عربيــة ، فالأكراد أنفسهم عرب ، وجدّهم الأكبر كانت له قرابة من بعض ملوك العرب في الجاهلية

***

رجعتُ من الملهى غضبان ، فقد تذكرتُ أن أيامي في الموصل قد تنتهي قبل أن أصل إلى قريبـات ليلى ،

وهل قدِمتُ الموصل لأشغل نفسي بدرس ما في الموصل من الجوانب العلمية والأدبية والاجتماعية ؟

إن اهتمامي بهذه الشؤون لم يكن إلا وسيلة لصرف الأنظار عن تعقُّب غرامياتي ، وقد اقتنع أهل الموصل بأني لا أَعرف غير الجد الرصين ، وتفضل فقهاؤهم فزاروني في الفُندُق ودعوني لزيارة المدارس الدينية ، وأطلعوني على ما عندهم من غرائب المخطوطات ، وصحبوني إلى زيارة المساجد والمعابد والمزارات ، وتفضل فريق من أعيان الموصل فأروني نظام المحاكم وأروني عين الكبريت ، وتلطف رئيس نادي الجزيرة السيد نجم الدين جيلميران وهو من تلاميذي القدماء فدعا أهل الموصل لسماع محاضرة أُلقيها عن صلة الأدب بالحياة ، وأعلن أن الدكتور زكى مبارك هو أجمل هدية قدمتها مصر إلى العراق

كلٌّ هذا جميل

ولكن أين أنا من الغرض الذي زُرْت من أجله هذه المدينة الحدباء ؟

كنت أستطيع أن أكون من جهابذة العلماء لو خلتْ حياتي من الغرام والفُتُون

وأين الذي يملك مثل ما أملك من الألقاب العلمية ؟

وأين العالم الذي يستطيع أن يجاريني في ميدان التأليف ؟

ولكن ما قيمة المجد في حياةٍ تمرُّ بلا حبّ ؟

لو أن قلبي كان خَلا من الحب لخلقتُهُ خلقًا لأستطيع فهم الحقائق في العوالم الوجدانية والنفسانية ، فكيف أطرد الحب وهو رفيق لم يفارقني من عهد الحداثة إلى اليوم ؟

كيف أطرد هذا الملَك المحبوب و به عرفت دقائق الوجود ؟

كيف أرضَى بأن تخلو حياتي من الصبَّوَات وفي بعض الآثار أن الله يعجبُ من شابْ تخلو حياته من صبوات ؟

وهل يسرُّني أن يعجب الله مني ؟

أنا أعرف فضل الحب عليّ ، فبفضل الحب تفوقتُ في اللغة الفرنسية التي كانت الحجر الأول في بناء حياتي

الأدبية ، وهل تفوقتُ في لغة لامرتين إلا بفضل الصحبة الطويلة لظبيات باريس ؟

إن كلّ كلمة في اللغة الفرنسية لها في قلبي تاريخ، لأنها موصولة بمئات وألوف من عِذاب الذكريات

ربّاه ! متى تعود أيامي !

ولكن ما الذي سأجنيه من حب ليلى المريضة في العراق ؟

إن عندي من التجارب النفسانية والوجدانية ما يملأ عشرات المجلدات ، فما قيمة الغرام بهذه الحمقاء ؟

ليلى حمقاء ؟

معاذ الأدب والذوق

أنا أعرف أن ليلى قليلة المحصول الأدبي والعقلي ، ولكن فِطرتها سليمةٌ جدًّا ، وبفضل تلك الفطرة السليمة صنعتْ بقلبي ما لم تصنع حسان باريس

وما كان يعُوزني العلم بعد أن قضيتُ عشرين سنة في الحياة الجامعية ، وإنما كان يعوزني أن أتصل بروح

سماوية تجلو الصدأ عن قلبي وجَنَاني ، وقد ردّتني ليلى إلى حياة الطهر والنُّبل ، فأنا اليوم من أصحاب المعاني وأرباب الأذواق ، أنا اليوم روحٌ لطيف صِيغَ جوهره من عَبَق الرحيق

ومن الذي يصدّق أن زكي مبارك المشاغب صار بفضل ليلى مثلا عالياً في اللطف والرفق ؟

من الذي يصدّق أن زكي مبارك راضه الحبُّ بعد الجموح فصار من نماذج الذوق ؟

كانت ليلى قرأتْ في بعض ما كتبتُ أني ما رميتُ سهماً فطاش

فقالت ذات ليلة وهي غاضبة : هل تعرف أن سهمك طاش في هذه المرة ؟

فابتسمتُ وقلت : أُسَدّد السهم مرة ثانية عساه يصيب

وعندئذ شاع الأنس في أسارير وجهها الحزين ، ومدّت يُمناها فقبلتُها بلهفة وشوق

ليلَى نبيلةُ الطبع ، ولكني أحمق

ما الذى كان يوجب أن نختصم فنفترق ؟

كانت كلة واحدة تكفى لتبديد ما فى صدرها من الوساوس، ولكني لسوء البخت أوغلتُ في غيابات العناد.

واليوم ماذا أصنع ؟

إن ليلى غاضبة ، ما في ذلك شكٌ ولا ريب

وقد طوّفتُ بأرجاء العراق للبحث عن الشفعاء ، وآخر بلد هو الموصل ، فأين أذهب ؟

أين أذهب ؟ أين أذهب ؟

إن خِبتُ في الموصل فلن أفلح بعد ذلك

هذه خريطة العراق بين يديّ ، وقد زرتُ من الحواضر والدساكر ما لم يزره الشريف الرضيّ الذي كان يهدّد خلفاء بني العباس بأن له في مصر أصدقاء، وفي الخريطة قُطرٌ يسمّى العمارة وهو مشهور بالشِّعر والجَمال ، ومن المؤكد أن فيه ليليات يستطعن نَقْع غليل الفؤاد باصلاح ما بيني وبين ليلاي، ولكن يصدني عن زيارة العمارة شيء، تصدُّني الخطابات التي تلقيتُها من الصابئين هناك ، وهم

يؤكدون أن في مقدورهم أن يكتبوا لي تميمة تشفيني من حبّ ليلى في مثل لمح البصر حين أشاء ، وقد علمتُ أنهم أقدر على السّحر من صابئة بغداد ، وأنا أخشى أن أزور العمارة وأنا في هذه الحال من اليأس فأستكتب التميمة وينتهي الحب

أنا أعرف السبيل إلى الشفاء ، ولكني لا أُريد

وكيف أَرضى أَن تخرج ليلى من حياتي ؟

كيف أَحرم نفسي من نعيم الشقاء ؟

كيف أَقضي لياليَّ محروماً من الهُيام بليلَى بنت ليل ؟

إيش لون يصير ؟

أُحبك يا ليلى ، وأُحب فيك عذابي وشقائي وبلائي

أُحبك ، وأَدعوك إلى الاحتراس مني

أنتِ استطعتِ أن تقهريني على الطواف بأرجاء العراق لأبحث عن الشفعاء ، فاعلمي أني سأقهرك على الطواف بجميع بقاع الأرض للبحث عن الشفعاء

سنفترق ياليلى بعد أسابيع ، وسوف تعلمين

سأترك قلبك في فضاءٍ مُوحِش تعجز عن إيناسه ملايين الأرواح

أتحدّاك يا ليلى ، أتحداك أن تفلتي من يدي وأن تسلمي من هواي

يخدعك الوهم يا لئيمة حين تظنين أنك تملكين من زمامك ما لا أملك

وسوف تعلمين عواقب هذا الخداع

* * *

أضاليلُ يُزجيها خيالي وأنثني

إلى غابةٍ مطموسة الأنس جرداء

أفي الحق أني أملك من زمام ليلى ما لا تملك ؟

وهل استطاع كبار المهندسين المصريين أن يملكوا زمام دجلة أو الفرات ؟

ليلى لطيفةٌ جداً ، ولكنها تنفر مني ، لأن عيوني خُضر وعيونها سود

فمن هو اللئيمُ السفيهُ الذي حدّثها بأن العيون الخضر تهيج الحيات والثعابين ؟

وهل كانت ليلى حية رقطاء حتى تخاف من عيوني ؟

أنا رجل لطيف وأعدائي في مصر لا يزيدون عن عشرة آلاف ، فكيف تتخوف ليلى من عُدْوانِي ؟

سأترك الموصل وأنا محزون

و من سوء الطالع أَن أَزور الموصل بعد جفاف الأعشاب

وأَخشى أَن لا يسمح الدهر بزيارة الموصل بعد اليوم

ومن الذي يضـمن أن ترضى ليـلى عني فأرجع لزيارة العراق في الأعوام المقبلات ؟

ولـكن يعزّيني أن أعرف أن ليلى لن تنسـاني ولن ترى وجه الصدق بعد فراقي

* * *

ماهذا ؟ ماهذا ؟

دعوةٌ من نرجس ، ودعوةٌ من تُماضر

أَتـكون هذه الدعوات تباشير للوصول إلى الشفعاء ؟

لم يبق بيني وبين الصبح غير لحظات ، وسـأنتظر ما تجود به نسمات الصباح

٢٥

هجع السامرون في الموصل وبقيتُ سهران أعدُّ النجوم وأُحصي ذنوب الحب

فما ذا صنعتُ في اليوم الذي ذهب إلى غير مَعاد ؟

هذا اليوم الخامس من أَيامي في الموصل ، وهي أَطول مدة قضيتها في البعد عن بغـداد ، وأَعتقد أَني أَخطأت التقدير ، فلو كنت قضيت مثل هذه المدة في البصرة أَو في الحِلة أو في النجف لـكان من المؤكد أَن أَنجح في اجتذاب الشفعاء ، ولـكن الحظ رماني بمدينة فيها مَشـابه من بيروت ودمنهور ودمياط وأسيوط

الموصل مدينةٌ جميلةٌ ، ولـكن الغريب لا يصل منها إلى شيء ، وهي البلد الوحيد في العراق الذي يعيش فيـه اليهود فقراء !

وجسر الموصل نفسه يوصي بالبخل ، فهو يكاد يجبس

ماء دجلة : فلا يخلُص منه الماء إلا في خريرٍ يشبه الصوت المبحوح

وشوارع الموصل تقفر من السابلة في مَطلَع الليل ؛ كأن المدينة تهجع عمداً لتستعدّ لاستئناف الكفاح في الصباح

فما عسى أن أصيب من كرم هذه المدينة ؟

إن الشح من شمائل الرجال في الموصل ، فكيف يكون النساء ؟

كيف يكون النساء وأدب العرب يوجب الشح في النساء ؟

لو كنت من رجال الاقتصاد لأثنيت على أهل الموصل فالاقتصاد هو الخُلُق الوحيد الذي ينقص العرب ، ولو كان المسلمون اختصموا في سبيل المذاهب الاقتصادية كما اختصموا في سبيل المذاهب الدينية لانغرست فيهم عواطف الحرص على الثروة فعاشوا سعداء وأقوياء

لو كنتُ رجلاً عاقلاً لأثنيت على أهل الموصل ، ولكن الحب أضافني إلى المجانين

لقد عرفتُ بعد فوات الوقت أني لم أُعدّ العُدّة للحب فأنا أتوسل إلى قلوب الملاح بوسائل لا تُغني ولا تنفع ، أتوسل بالعواطف والمدامع ، وهي شيءٌ رخيصٌ في القرن العشرين ، ولو كنت أنفقتُ شبابي في جمع المال ولم أضيّعه في التعليم والتأليف لكانت إشارةٌ واحدة تكفي لتسخير من أشاء من الليليات

ويزعجني أن أعرف أني لن أستطيع إصلاح ما أفسدتُ من حياتي

وهل يصلح الرجل لتغيير مذاهبه في العيش بعد الأربعين ؟

لم يبق إلا أن أَكتفي بالسلاح المفلول في ميدان الحب : سلاح الغزَل والاستبكاء

ولكن ما الموجب لهذا التحسُّر ؟

إن أصدق الناس جميعاً هو الشاعر الذي قال :

إني امرؤٌ سأموتُ إن لم أُقتَلِ

فأنا لن أُخلَّد إلا في عالم الفِكر ، إن كان في الدنيا خلود ، وقد صانني الله تباركتْ أسماؤه عن الفِسْق والفجور والدَّنس ، وليس لي من أهل الجمال إلا مأربٌ واحد هو درس الطبائع والغرائز والميول ، لأخرج من ذلك بمحصول فلسفيّ قد ينفع بعض النفع في إذكاء الدراسات الأدبية والفلسفية

وخيبتي في الحب تضر من جانب وتنفع من جوانب ، فلتصنع الأقدار ما تشاء

أكتب هذا الكلام لأُوهم نفسي أني لم أُضيَّع في الوصل ، والمهزوم هو الذي يتفلسف ليوهم نفسه ويوهم الناس أنه من المنتصرين !

على أني واثق بأني لم أُضيَّع تمام التضييع ، أليست التجارب من جملة المغانم ؟

بلَى ، هي من جملة المغانم ، وربما كانت أعظم المغانم

وما قيمة ذلك وقد عجزتُ عن اجتذاب الشفعاء ؟

إن ليلى ستفرُّ من يدي ، إن لم تكن فرتْ بالفعل ، ولعلها تقضي هذه الليالي في السمر الممتع مع جاراتها الرفيقات ، ولن يطيب لها السمر إلا على حسابي ، وأنا مع ذلك :

أُحبُّ التي صدَّتْ وقالت لِتربها
دعيه الثريا منه أقرب من وصلي

أحب المرأة التي تشمت في حيرتي وعذابي ، وتحدّث من تعرف ومن لا تعرف بأنها حكمت على شاعر سنتريس بأن يهيم على وجهه في مجاهل العراق

إن كان عذابي يسرّك يا ليلى فأنا ذاهب بفضل الحب إلى الجحيم

ولكن يؤذيني خاطرٌ واحد ، فأنا أخشى أن ينتهي التجني إلى القطيعة ، وهل كان الحب إلا شجرةً مدلّلة لا تحتمل العواصف ولا الأعاصير ؟

لقد صبر زميلي قيس بن الملوح على ليلاه ، لأنه كان

يعيش في البادية ، والبادية تقلُّ فيها الفاتن والمغريات ، والشِّرك بالحب في البادية يمقته المجتمع البدوي ويعاقب عليه

أما أنا َفحَضريٌّ له أحوالٌ وأحوال ، والغدر من أهل الحضر ُخلُق مقبول ، والأحمق في شريعة اليوم هو من يقف قلبه على هوًى واحد

فاحرسيني يا ليلى قبل أن أُضيع من يديك ، احرسيني يامحبوبتي الغالية ، احرسيني ولا تكوني حمقاء فان السيطرة على قلب مثل قلبي غرضٌ عزيزُ المنال

احرسيني يا ليلى وأدِّبيني بأدبك العالي

احرسيني لتخلقي مني شاعراً يتحدَّث عن عواطف وأهواء لا يعرفها أهل مصر ولا أهل العراق

احرسيني لأحقق فكرة الجنون في الحب ، فالجنون في الحب هو المصدر الأصيل لعقيدة التوحيد

احرسيني لأنظم في العام قصيدة أو قصيدتين

احرسيني فأنا شاعرٌ هجر الشعر لأن قلبه لم َيعُد يصدِّق أن في الدنيا معاني تستحق سهر الليل في صَوْغ القصيد

أنا يا ليلى ، مِسكين ، مِسكين ، مِسكين

وأيُّ مسكنة أبشع وأفظع من خراب القلب ؟

لقد حملتُ قلبي من أرض إلى أرض عساني أجد المواسين ، وضاعت آمالي في القاهرة والإسكندرية وليون وباريس ، لأن تلك المدائن يباع فيها الحب كما تباع الملابس ، وكان الظن وقد وصلتُ إلى العراق أن أجد حبًّا لا يشتَرَى ولا يباع

وحبك يا ليلى لا يشترى ولا يباع ، وهو ما أتمناه وأتشهاه

ولكن أين أنا مما أريد ؟

كنتُ أنشد :

إذا كان هذا الدمع يجري صبابةً

على غير ليلى فهو دمعٌ مضيَّعُ

ودمعي لا يجري على غير ليلى فهو غير مضيَّع

ولكني أشعر بأني في هوى ليلى مضيَّع

ما الذي كان يوجب أن أشهد ما شهدت اليوم في الموصل ؟

وما قيمة الحبيب الذي يحتاج إلى شفيع ؟

ما قيمة الحبيب الذي لا يكون أحنَّ عليك من قلبك ؟

ما قيمة الحبيب الذي لا يكون أساك أوجع عليه من أساه ؟

ما قيمة الحبيب الذي يعذبك ليعلن عن جمالِه الفاني ؟

إن المحب في جميع أحواله أَنفَس من المحبوب ، لأن المحبُ يقدِّم عواطف صِيغتْ من الرفق والحنان ، أما المحبوب فلا يقدم غير أزهار سريعة الذبول

وما كان يهمني أن أظفر من ليلى بالمتاع التافه الذي يظفر به من يقضي ليله في مخاصرة الملاح

وإنما كان يهمني أن يكون لها قلب

وهل شقيتُ إلا في البحث عن محبوب له قلب ؟

إن التقينا يا ليلى — والأحياء قد يتلاقَوْن — فسأحدثك بالتفصيل عما عانيت في هذا اليوم

وإليك يا معبودتي جملة الحديث

خرجتُ في الصباح لزيارة نرجس وتُماضر ، فماذا رأيت ؟

قادني رفيقي إلى بيت نرجس

فكيف رأيت نرجس ؟

دخلتْ عليَّ طفلةٌ وهي تقول :

— إيش لون ليلى ؟

— بخير وعافية ، يا طفلتي الغالية ، وما اسمك يا حُلوة ؟

— اسمي نرجس

آلمتني هذه الألعوبة الموصلية ، وهل تستطيع طفلة في سن السابعة أن تصلح ما بيني وبين امرأة في سن الأربعين ؟

إن الرجل قد يتفق مع امرأة في غير سنه ، وربما كان الأوفق أن يكون الرجل والمرأة في سنين مختلفتين ، وهل يتفق الرجل مع المرأة إلا في حال الاختلاف في الجسم والعقل ؟

ذلك درس تعلمته في باريس يوم كنتُ أدرس أحوال

العشاق ، فقد كنت أرى الصفاء لا يتمّ إلا بين امرأةٍ قصيرة و رجل طويل ، أو بالعكس ، وكنت أرى العاشقَين من جنسين مختلفين يأتلفان أكثر مما يأتلف العاشقان من جنس واحد ، وكذلك أحب ليلى المريضة في العراق أكثر مما أحب ليلى المريضة في الزمالك أو ليلى الصحيحة في حُلوان ، وإن لم يكن الاختلاف إلا في بُعد الدارَين

الرجل والمرأة يتفقان مع اختلاف الأسنان

ولكن المرأة لا تتفق مع المرأة إلا إذا اقتربت الأسنان

فكيف تصلُح طفلةٌ في سن السابعة لإصلاح امرأة في سن الأربعين ؟

ولكن لا بأس بما وقع ، فنرجس تشبه كريمة ، تشبهها في السذاجة ، وحلاوة الطبع ، وتشبهها في الحنان

كانت ابنتي كريمة — بارك الله في حياتها الغالية — تلقاني حين أدخل البيت بأرق مظاهر العطف والرفق ،

وكذلك فعلتْ نرجس فهجمت عليّ بالعناق والتقبيل ،
وسألتني أن أنقلها إلى أبيها في بغداد

سأنقلك يا حُلوة إلى بغداد

وقُدّمت المائدة فلم أنل منها غير قليل ، لأني استيأست
من وجود الشفعاء

والطعام لا يسوغ في حَلْق الموجَع الحزين

— ما هذه الألعوبة يا رفيقي ؟

— ليست أُلعوبة ، وإنما أردت أن أريك عُذُوبة
الأطفال في الموصل ، وسينشرح صدرك حين ترى تُماضر ،
وبفضل براعتها في الحديث ستصل إلى قلب ليلاك

* * *

لأهل تماضر مكان في ظاهر المدينة يستقبلون فيه الضيفان
على الطريقة البدوية ، وإليه قصدنا بعد الغُروب

دخلنا في مكان تحيط به مرابط الخيل ، مكان جذّاب
يواجه السماء في ليالي الصيف

وجاءت تماضر وهي تقول :

كيف حال ليلاك ، يا مولاي ؟

فالتفتُّ فاذا صبيّةٌ عَذْبَةٌ في الثانية عشرة ، مُشرِقة الوجه مصقولةُ الجبين

وجلستْ تماضر تطارحني الأشعار والأحاديث

ومُدَّ السماط فأكلنا جميعاً بشهيّة

وعند انصرام الهزيع الأوّل من الليل التفتُّ إلى أبيها وقلتُ : هل في نيتك أن تصحبنا إلى بغداد ؟ أم ترى أن تترك تماضر في رعايتي ؟

فابتسم وقال : إن تماضر أصغر من أن تسوس امرأةً تقيم في بغداد ! !

* * *

أنا أعرف مصيري في الحب

ولكن المهم أن أرجع سليما إلى بغداد

وأهمُّ من ذلك أن أرجع سليماً إلى القاهرة ، فقد يخيّل إليّ أني سأموت في العراق

وهل أنسى كيف قطعت الطريق من بغداد إلى كركوك ؟

قضيت مدة طويلة في القطار وأنا أهتف بهذا البيت

إذا شاب الغرابُ رأيت أهلي   وصار القارُ كاللبن الحليبِ

وإنما كان ذلك لأني ظلمت نفسي في العراق ، فقد قضيت الشهور الطوال وأنا مُرْهف الأعصاب والحواسّ ، وما مرّ نهارٌ ولا ليل بدون محاولات ومصاولات ، ولا انقضى أسبوع بدون متاعب أسجلها في الجرائد والمجلات ، وما كان يجب عليّ شيءٌ من ذلك ، ولكني توهمتُ أني مسئول عن إيقاظ الحياة الأدبية في العراق

وهل أنسى المسافة بين كركوك والموصل ؟

إن الطريق مقيَّر بين هاتين المدينتين ، ولكنه مزعجٌ بسبب ما فيه من الوِهاد والنِّجاد ، والسياراتُ التي تنقل الركاب في ذلك الطريق محطَّمةٌ بالية ، فهي تعلو وتسقط ثم تعلو وتسقط ، حتى لتكاد تمزَّق الأحشاء

والله يعلم كيف أرجع بعافية إلى بغداد !

أيتها الموصل !

صدق من سمّاك حدباء !

سـأفارق الموصل في الصباح ، ولـكني لن أفارقها
إلا بالدمع

سأفارق فيها روحاً شفّافاً يعرف كيف يكون أُنس
الروح بالروح

سأفارق فيها روحاً لو أطعته لدخلتُ قبل الميعاد إلى
فردوس الصفاء

فهل يعرف ذلك الروح أني سأشتاق إليه ؟

هل يعرف ذلك الروح أني ظلمت نفسي بالكتمان
ليجهل أني أهواه ؟

وأين ذلك الروح ؟

ستُبدّل الأرض غير الأرض والسموات قبل أن
تعرف الملائكة مقرّ ذلك الروح

فان لم يكن بدٌّ من التعريف بملامحه السامية فأنا
أصرّح بأنه روحانيةٌ علْويّة تفيض على أزهار الموصل
بالعِطر والأريج

أيها الروح النبيل

أغلب الظن أني سأرحل عن الموصل قبل أن أراك

فان فاتني أن أسأل عنك فلا تعتِبْ ولا تَغضَبْ ،

فما لي قدرةٌ على مواجهتك يوم الرحيل

أيها الروح النبيل

تذكَّر أني كُلِّفت تبليغ التحية إلى سجن الموصل ، لأنه كان آوَى روحاً أَنِستُ به في بغداد ، ثم فاتني أَن أزور ذلك السجن المحبوب ، فأرجوك بالله أن تزور ذلك السجن غير مسئول يوم تفكر في المحب الذي زار الموصل ليرى الأزهار في خديك قبل أن يراها في الرياض

أيها الروح النبيل

تذكَّر أن في عنقك أمانةً غاليـة هي أن تحب مصر كما أُحبُّ العراق

وسلام الله والحب على مصر والعراق

ربَّاه !

لِمَ وهبتني هذا القلب الحنّان ؟ !

اليوم يوم الدموع ، دموع الرفق والحنان

اليوم يوم الدموع ، دموع الرفق والحنان

اليوم يوم الدموع ، دموع الرفق والحنان

* * *

رجعتُ من الموصل حيران ، ولم يخفّ كربي برؤية الصديق الذي انتظرني على محطة الباب الشرقي والذي ألحّ وألحّ في أن أمرّ على الأسرة البابلية بحجة أنها تنتظر أن أتناول عندها العشاء ، وكان يهمني أن أمرّ على ذلك البيت لأرى الغادة السمراء التي عنّاها من يقول :

ياامّ العبايهْ زينَه عبَاتِكْ   ياسَمْرا هوايَهْ زِينَه صِفاتِكْ

الغادة الُحْلوة الْعَذبة الملثوغة الراء التي تغار من ليلى ومن ظمياء

وكيف أمرّ على ذلك البيت والغُبارُ فوق ثيابي والسوادُ فوق فؤادي !

ما أشد شوقي إلى ذلك البيت !

كنت أزوره على غفلة فأرى الأطفال قد ناموا قبل غياب الشفَق

وكنت حين أزوره على موعد أرى الأطفال ينتظرون قُدومي إلى نِصف الليل

فهل يعرف عبد السلام أن له أخاً في بغداد ؟

هل يعرف عبد السلام أن في بغداد طفلا يقع على صدري ويقبّلني بحرارة وشوق ، كما كان يقع على صدري ويقبّلني بحرارة وشوق ؟

متى أراك يا عبدَ السلام ؟ متى أراك ؟

ولماذا ينتظر الأطفال قدومي إلى نصف الليل وكانوا ينامون قبل غياب الشفَق ؟

تلك عاطفة تلقَّوها عن السيدة النبيلة التي كانت تقدّم إليّ العَشاء مهما تأخرت ، فاذا حلفتُ لها أني تعشَّيتُ لم يقنعها ذلك وهتفتْ تقول :

« ما أَقدِر ، أغاتي »

كنت أصل إلى تلك الدار بعد اجتياز دُرُوب وعطفات يأنس بجفوتها قلبي ، فأنا أعرف أن سكان تلك المحلات الجافية قاوموا الحوادث والخطوب ، واستطاعوا أن يحفظوا لأنفسهم وجوداً ملحوظاً بالرغم من تصاريف الزمان

وأنا أحب تلك الدار الجافية ، ففي أمثالها من دور بغداد والبصرة والنجف والموصل خُلِقتْ عواطف وأحاسيس وأهواء ، وفي أمثالها من دور الحِلة وكربلاء نبغ شعراء وصفوا الحب والليل

كل شيء في العراق رقيق إلا قلب ليلى

غَضبةُ الله عليك يا ليلى وعلى الحب !

* * *

ركبتُ عربة ومضيتُ إلى منزلي بالرغم من اللطف الذي كان ينتظرني في تلك الدار ، وما كدت آوي إلى سريري حتى غلبني النوم ، وليته كان نوم الموت فقد كدّرت ليلى حياتي !

* * *

استيقظتُ مع الشروق ، استيقظت مهموماً تعبان

وخطوتُ إلى الحمّام عساني أجدّد نشاطي فرأيت

خلف النافذة حمامتين تشتجران شِجاراً كلّه رِفْقٌ وعطف :

كانتا تقتتلان بالأجنحة والمناقير قتالاً طريفاً لم أشهد مثله

من قبل

ليت حظي مع ليلى كان شبيهاً بحظ هذين الأليفَيْنِ

المتخاصمَيْن !

* * *

وقضيتُ ساعات الصباح في تصحيح ما تأخر تصحيحه

من فروض الطلبة بدار المعلمين العالية ، وفي الساعة العاشرة

خرجتُ لأروّح عن نفسي بشهود الغادين والرائحين في

جادّة الرشيد ، فوقع بصري على جماعة مطربشين جاءوا حديثاً

من القاهرة ليقوموا ببعض الخدمات لشركة مصر للطيران ،

وهم يبحثون عن مكان يحوّلون فيه النقود المصرية إلى نقود

عراقية ، فقُدْتُهم إلى بنك إيسترن ، ثم تبين أن هذا البنك

لا يشغل نفسه بأمثال هذه العمليـة ، فخرجت معهم لأبحث عن مكان آخر تصرف فيه النقود

وعلى باب البنك وقعت الواقعة :

فقد رأيت فتاة فينانة الجسم تواجهني بعينين دامعتين وهي تقول :

أما تعرف يا دكتور أن أبي مات في مثل هذا اليوم ؟

ورجعت إلى نفسي في مثل لمح البصر فعرفت أن أبي رحمه الله كان مات في مثل ذلك اليوم

وانطلقتُ معها إلى رحاب البنك بدون أن أشعر أني تركت جماعة من المصريين الضالين في بغداد !

* * *

وقفت الفتاة تبكي ، ووقفتُ أبكي

هي تبكي على أبيها وأنا أبكي على أبي وعلى حظي الأسود في هوَى ليـلَى

ونظرتُ فرأيتُ الحزن أنسى الفتاة واجبها في مراعاة الأدبِ اللائق فسقطَ عن جسمها الفينان بعضُ النّصيف ،

وجُنّ جنوني لذلك المنظر الأخّاذ فرقّ إحساسي وطاب بكائي ، وراع الفتاةَ أن يسعدها دمعي فانتقلتْ من البكاء إلى الشهيق

و ماذا أملك في مواساة تلك الفتاة ؟

كنت أقبِّل يدها مرة ، وذراعيها مرتين ، وجبينها مرات

وكان العراقيون القُساةُ القلوب يرون هذا المشهد ، فلا يعترضون

و من ذا الذي يعترض على رجلٍ باكٍ يقبِّل فتاةً باكية ؟

واستمرت هذه المأساة الرائعة ساعتين

وخرجنا من البنك وأهل بغداد يحسبونها ليلاي

ولو كان لليلى قلبٌ مثل قلب تلك الفتاة لعرفتُ نعيم الوجود

و في الميدان الذي يواجه الشّورجه وجادّة الرشيد وشارع السموءل ، في الميدان الذي يسمى ميدان الساعة

جذبتُ تلك الفتاة إلى صدري وقلتُ :

إسمعي ، إن المرأة أجمل ما تكون وهي حزينة

وعرفتْ أني سأقبّلها علانيةً أمام الشرطي وأمام الجمهور فصرخَتْ :

أتحسب أننا في باريس ؟

وما هي إلا لحةٌ حتى عرفتْ أننا في بغداد التي سبقتْ باريس إلى الحرية الشخصية بأزمان !

قبّلتُ الفتاة من خديها قُبلتين عميقتين وشربتُ ما على خديها من دموع

وما أعذبَ مُلوحة الدمع في خدود الملاح !

أنا في بغداد ؟

أنا في باريس ؟

لا أعرف بالضبط أين كنتُ حين شربتُ دموع تلك الباكية السمراء على عيون أهل بغداد

* * *

كان في نيتي أن أتغدى بعد ذلك ، ثم رأيت الجوع

ذهب إلى غير رجعة ، فمضيتُ إلى منزلي أناجي خيال ما ظفرتُ به في ذلك اليوم

وما كدتُ أستقرّ في المنزل لحظات حتى سمعت طرقاً على الباب ، وما كان من عادتي أن أفتح الباب للطارقين ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن لأهل بغداد عادة جميلة هي السؤال عن ضيوفهم من وقت إلى وقت ، وهـذه العادة على جمالها لا توافقني لأنها تضيّع أوقات فراغي وتشغلني عن البحث والتأليف ، وليس في حياتي شيءٌ مثمرٌ غير الغرام بالبحث والتأليف

ولكن الأنامل التي تطرق الباب هـذه المرة تذكّر بأنامل ظمياء ، وقد اشتقتُ إلى ظمياء التي طردتُها من بيتي بعنف ، وكنت في ذلك من الظالمين

* * *

خائن !

خائن !

خائن !

ذلك ما سمعتُه حين فتحت الباب

والصوتُ في هذه المرة صوت ليلى لا صوت ظمياء

***

هذه ليلى في منزلي ، فماذا أَصنع ؟

ليتني أعرف ماذا أصنع !

***

مضينا صامتَيْن إلى غرفة المكتب فجلستْ على أريكة وجلستُ على أَريكة

كنت لحظتئذٍ في دَشْداشة ، دشداشة مصرية تسمى في بلدنا جلَّبيَّة ، وقد هممتُ بارتداء الردنجوت لأصلح لمحادثة ليلى ، ولكنها أشارت إليّ أنها تحب أن تراني كذلك ، فسمعتُ وأطعتُ

— خائن ، خائن ، خائن !!!

— أنا ؟ أنا خائن ؟

— إذن ما هذا الذي يتحدث به أهل بغداد ؟

— وماذا يقول أهل بغداد ؟

— يقولون : إنك ناجيتَ فتاةً في البنك ساعتين كاملتين ؟

— هي فتاة حزينة مات أبوها في مثل هذا اليوم

— وهل أنت مسئول عن مواساة كل فتاة تبكي أباها في هذا اليوم أو غير هذا اليوم ؟

— أؤكد لمولاتي أنها فتاة طاهرة القلب

— ولكنكَ لست طاهر القلب

— عفا الله عنكِ يا ليلى ، أَلمثلي يوجّه هذا الملام العنيف ؟

— أنا أعرف أسرارك ، فهذه فتاة كُردية . . .

— ليست كُردية

— هي كردية

وماذا تصنعين إذا كان هواي عند الكرديات المليحات ؟

— لك هوًى في العراق غير هواي ؟

— ومن قال إني أهواكِ ؟

— أنت لا تهواني يا دكتور !

— لا أهواكِ

— لا تهواني ؟

— لا أهواكِ

— لا تهواني ؟ لا تهواني ؟ لا تهواني ؟

— ومن أهوَى يا ليلى إذا كنت لا أهواكِ ؟ سَلِي عنِّي نُجوم الليـل ، سَـلِي القمر ، سَـلِي السَّحرَ ، سَـلِي منارات بغداد ، سَلي نخلات البصرة ، سَلي سمكات الفرات ، سَلي الأرض الصَّماء التي يدوسها العشاق بالكرادة والأعظمية والكاظمية ، سَـلي العيون الشُّهْل والعيون السُّود بأرجاء العراق ، سَلي الصابئين في بغداد وفي العِمارة ، سليهم فقد اقترحوا أن يكتبوا لي تميمة أنجو بها من هواكِ ، نعم كتب إليّ الصـابئون في بغـداد وفي العمارة مرة و مرتين و مرات ، واقترحوا أن يكتبوا لي بالمجان تميمةً شافيةً أنجو بهـا إلى الأبد من هواكِ العَصُوف ، فأبيتُ كل الإباء ، وكيف أرضَى النجاة من هواكِ يا ليلى ؟ كيف ؟ كيف ؟

— تحبني ؟

— أبغضك أشد البغض ، أتذكرين ما وقع منك منذ أيام ؟

— وما الذي كان وقع ؟

— دخلتُ عليكِ على حين غفلة وأنتِ في شِعار رقيق يُفصح عن تقاسيم جسمك الجميل ، فنفرتِ كالظبية المذعورة ولبستِ العباءة ، يا لئيمة ، فلما رجوتكِ أن تظلي بلِبسة المتفضّل قلتِ بعبارة صارمة « إيش لون يصير ؟ » فما كان ضَرّكِ يا لئيمة لو بقيتِ أمام عينيّ لحظةً أو لحظتين في ذلك الشعار الرقيق ؟

— أما آن أن تعقل يا فاجر ؟

— أنتِ الفاجرة !

— أهذه أخلاق الأطباء في مصر ؟

— انتهى عهد الطب ، وجاء عهد الجنون

— وماذا تريد ؟

— أريد أن أعرف ماذا جاء بك في هذه الساعة ؟

— جئتُ أسأل عن صباباتكَ في بغداد

— ليس لي صباباتٌ في بغداد

— والتقبيلُ علانيةً في البنك وفي ميدان الساعة ؟

— هو علامة عطف على فتاة مات أبوها في مثل هذا اليوم

— وهل تعرف يافاجر أن ليلاك مات أبوها وماتت أمها في مثل هذا اليوم ؟

— . . . . . .

— . . . . . .

* * *

أخذتْ ليلى تبكي بكاءً أحرّ من بكاء الأطفال ، وكانت تنتظر — ولا ريب — أن أشرب دموعها كما شربتُ دموع الباكية السمراء

ولكني تخوفتُ العواقب ، وأنا أعْقِل في بعض الأحيان

— من أي صخرة قُدّ قلبك يادكتور ؟

— إن قلبي قُدَّ من الجلاميد التي صِيغَ منها قلبك الرقيق !

— وما الذي أنكرتَ عليّ حتى تتهمني بالقساوة ؟

— يسوءني أن لا أظفر منك بما يظفر به الكلاب من ساداتهم ، فالكلب يعبر عن عواطفه باللَّحس والعضّ

— تريد أن تلحسني وتعضني ؟

— أُريد أن ألتهمك مرةً واحدة ليصير كيانُك كلُّه نقصة من دمي

— ثم ماذا ؟

— ثم أصير أشعر الشعراء

— كُنْ إن شئت أشعر الشعراء

* * *

كنتُ أستطيع أن أفترس ليلى في ذلك اليوم

كنتُ أستطيع

كنت أستطيع

ولكني خشيتُ أن تراني ليلى حيواناً كسائر أنواع الحيوان

خَشيتُ أن يكون مابيني وبين ليلى مُتْعَةً حِسّية تُشبه ما كان بين آدم وحوَّاء

خشيتُ أن نعود إلى سيرة الحيوان المجهول الذي تمثَّل في فتنة قابيل وهابيل

خشيتُ أن أُلوِّث تاريخي في العراق بلحظةٍ أثيمة تلاحقني آثارها السود حيث توجهت

خشيتُ أن أُوذِي سُمعة مصر في العراق

وكانت ليلى خليقةً بأن تغفر ذنوبي ، وتستر عيوبي ، لو جهلتُ

ولكن عزّ عليّ أن أُعرّضها لهذا الاختبار الأليم.

* * *

— دكتور

— مولاي !

— ماذا تريد مني

— وماذا تريدين مني ؟

— أريد أن تصير سيّد الشعراء

— صرتُ بهذا العطف سيد الشعراء

— بقي أن تصير سيّد ليلى

— أنا عبد ليلى

— والعبد يطيع مولاه

— الأدب أفضل من الامتثال

— الامتثال أفضل من الأدب

— الأدب أفضل من الامتثال

— الامتثال هو في جوهره أدبٌ رائع ، ولكنك أحمق وجهول

— أنتِ الجاهلة وأنتِ الحمقاء

وفي أقل من لمح البصر خرجتْ ليلى وتركتني لهمومي وأحزاني

لقد كنتُ في مصر شقيًّا فما الذي

سَتَجْنِين يا بغدادُ من وَصل إشقائي

نادي القلم العراقي
وعضوية الدكتور زكي مبارك
موعد انعقاد الجلسة القادمة

في الاجتماع الذي عقده نادي القلم يوم الثلاثاء المنصرم والذي نوهنا عنه في العدد السابق اقترح سعادة الدكتور الجمالي مدير التدريس والتربية العام واحد اركان النادي ادخال الاستاذ الدكتور زكي مبارك عضواً في النادي المذكور وقد وافق على ذلك جميع الاعضاء الحاضرين بارتياح . وبهذا اكتسب نادي القلم عنصراً حيوياً جديداً .

وقد تقرر ان يكون الاجتماع القادم لاعضاء النادي في دار الاستاذ الصديق السيد شيث نعوم او « نعمان » كما يريد الدكتور الجمالي

وسيكون الحديث لسعادة الدكتور الجمالي حول «الفلسفة الاجتماعية لجون ديوي» الفيلسوف الاجتماعي العظيم

وهذا فرع من خطاب سبق ان القاه الدكتور عن نشوء فلسفة جون ديوي .

وهو موضوع شائق مفيد جداً

وبهذه المناسبة نعتذر للقراء عن عدم التمكن من مواصلة وصف الاجتماع السابق والتعليق على حديث الدكتور زكي مبارك بضيق المجال .

٢٧

وقفتُ بالرُّستمية منذ أيام أُلقي قصيدة :

« من جحيم الظلم في القاهرة إلى سعير الوجد في بغداد »

وقد طرب لها أعضاء « نادي القلم » وصرح معالي الرئيس بأنها من غرائب الشعر الحديث . وفي تلك القصيدة هذا البيت :

أبغدادُ هذا آخر العهد فاذكُري

مدامعَ مفطورٍ على الحب بكّاء

وقد التفت الدكتور فؤاد عقراوي وكيل دار المعلمين العالية لمغزَى هذا البيت فأسرّ في أذني بعد أن فرغتُ من إنشاد القصيدة : لماذا تقول هذا آخر العهد ؟

فقلت : هـذا من تجنّي المحبين ، والمحبون يهددون بالقطيعة في كل وقت ليستثيروا عطف الأحباب

والواقع أني لم أُرد غير التخلص من ذلك العَتْب الرقيق

الذي يصدر من زميل كريم كانت أيامي في صحبته من أيام السُّعود

الواقع المؤلم أني سأفارق بغـداد ، سأفارقها باكياً كما قلتُ لزملائي بكلية الحقوق منذ أيام

ولهذا الفراق أسباب يجب تدوينها في هذه المذكرات :

لم يكن في نيتي أن أحضر لخدمة العلم بالعراق في هذه السنة بالذات ، فقـد كان بيني وبين وزارة المعارف المصرية حسابٌ يجب تصفيته ، وهو حساب بسيط ولـكن عقّده الإهمال ، كنتُ رجوت أن أظفر بترقية بعد الدكتوراه الثالثة التي نلتها من الجامعة المصرية ، الدكتوراه التي نلتها من كلية الآداب البخيلة الشحيحة الضنينة التي لم تمنح إجازة الدكتوراه في مدى اثني عشر عاماً لغير رجلين اثنين : هما عبد الوهاب عزام وزكي مبارك ، كنت رجوت أن أنتفع بهذه الدكتوراه التي ظفرتُ بها بعد كفاح دام أكثر من سبع سنين في إعداد كتاب « التصوف الإسلامي »

ولما كلمني الأستاذ فهيم بك في السفر إلى العراق

ترددت ثم اعتذرت لأرتب شؤوني في وزارة المعارف ، ولكني بعد ذلك تلقيت خطاباً من المفوضية العراقية يقول فيه نائب القنصل :



الرقم: [illegible]

التاريخ: ٧ اكتوبر ١٩٣٧

حضرة الاستاذ الدكتور زكـــي مبـــارك المحترم

تحية واحتراما

يســـرني جـــدا لو تفضـــلتم بزيارة المفوضيـــة باقرب فرصـــة لديكم للبحث في مسألة انتدابكم للتدريس في العراق بناء على شدة رغبـــة وزارة المعارف العراقيـــة في ذلك .

وتفضـــلوا بقبول فائق تحياتي ووافر احترامي !

نائب القنصـــل
بالمفوضية الملكية العراقيـــة

فكان من الأدب والذوق أن أجيب هذه الدعوة الكريمة الصادرة من أمة عربية لها في خدمة العلم والحضارة ماضٍ مجيد

وكان مفهوماً عندي أن وزارة المعارف المصرية ستنجز ما وعدتْ من إنصافي وأنا بعيدٌ لتشجعني على الاطمئنان إلى عملي بالعراق

ثم عرفتُ مع الأسف أن ما رجوته من وزارة المعارف لم يتحقق وأن قراراً صدر في اليوم الحادي عشر من نيسان يرجيء تقدير الدكتوراه الجديدة إلى أن أطبع الرسالة التي قدمتها للامتحان ، وهذا القرار استند إلى كلمة في ذيل الخطاب الذي تلقيته من عميد كلية الآداب : الخطاب الذي سجل فيه أن مجلس الجامعة المصرية منحني إجازة الدكتوراه برتبة الشرف

والدكتور طه حسين يلاحقني بكرمه وبره حيثما توجهت ، حفظه الله ورعاه !

وما هي الكلمة التي ذيّل بها سعادة العميد خطابه الكريم ؟

هي كلمة تنص على أن الجامعة لا تسلمني الإجازة إلا بعد أن أقدّم إليها خمسين نسخة مطبوعة من رسالة الامتحان

فهل معنى ذلك أن الامتحان معلّق على تقديم تلك النسخ و إن أُعلنت نتيجة الفوز في الجريدة الرسمية ؟

أعترف بأن الجامعة على حق في وضع هذا القيد لأنها تريد أن تسوق أبناءها إلى ميادين النشر والتأليف ، وهي في ذلك مسبوقةٌ بالجامعات الأوربية التي توجب طبع رسائل الدكتوراه قبل الامتحان

ولكن الحال هنا غير الحال هناك

والجامعة المصرية راعت ذلك فأباحت أن يؤدّى الامتحان قبل طبع الرسائل ، وهي بالتأكيد يسرّها أن يلقَى أبناؤها خير الجزاء على جهودهم في تأليف الرسائل التي لا تصلُح لامتحان الدكتوراه إلا إذا ثبت أنها تؤدي للعلم فائدة محققة ، وقد استطعت بحمد الله أن أظفر بهذه الشهادة من الجامعة المصرية

لو كنت أعلم الغيب لصنعتُ غير الذي صنعت ، فأنا الذي قدمتُ بيدي خطاب العميد إلى وزارة المعارف وفيه ذلك النص ، وكان في مقدوري أن آخذ من الكلية

شهادة بالدكتوراه الجديدة ، فقد صرح العميد بأن ذلك ممكن بعد حوارٍ دار حول الموضوع نفسه في منزل سعادة الأستاذ محمود بسيوني يوم جمع بيننا بحضر عمداء الكليات وأساتذة الامتحان ليزيل ما كان وقع بيني وبين الدكتور طه من جفاءٍ دامَ بِضْعَ سنين

لو كنت أعلم الغيب لأخذت تلك الشهادة من الكلية وأرحتُ نفسي من الخطاب المقيَّد الذي بَنَت الوزارة على أساسه قرارَها اللطيف في نيسان شهر الزيادة والنقصان !

وهل كان يخطر ببالي أن ألقى هذا « اللطف » من وزارة المعارف التي أوفدتني إلى العراق ؟

إني آخذ مرتبي من الحكومة العراقية ، وترقيتي لا تعود على الحكومة المصرية إلا بغُرْمٍ ضئيل هو فرق المكافأة التي تمنحها لمن توفدهم لمهمات علمية

وحالي في مصر حالٌ عجيب فقد عشت دهري مظلوماً وكان الظنّ أن يخف الظلم أو يزول بعد أن انتزعتُ تلك الدكتوراه من أنياب الأسود

وكان الظن أيضاً أن يكون نجاحي في العراق تزكيةً جديدة تنفعني عند وزارة المعارف المصرية

فما هذه المضجرات التي تواجهني في كل يوم ؟

إن الرسالة التي نلت بها الدكتوراه الجديدة كلفتني أَموالاً كثيرة حين أعددت منها خمس نسخ خطية ، فكيف أَطبعها وأَنا فقير الجيب ؟ ومن هو الناشر الذي يُقدم على طبع كتاب « التصوف الاسلامي » وفيه مئات ومئات من الصفحات ؟

وهل أستطيع أن أطلب معونة الجامعة المصرية على طبع هذه الرسالة وهي التي خذلتني في سنة ١٩٣٠ حين رجوتها أن تقرضني مئة دينار قرضاً حسناً لأطبع الرسالة التي أقدمها إلى جامعة باريس ؟

لقد استنجدتُ يومئذ بمدير الجامعة وعميد كلية الآداب فلم يستجب مجيب ، مع أَن الجامعة المصرية كانت في ذلك العهد تعطي المئات بسخاء للمحاضرين الذين يمرون بمصر مرور الطّيف !

طافت برأسي هـذه الخواطر السود بعـد أن أجبتُ دعوة المفوضية المصرية في بغداد لتُطلعني على ما قررته وزارة المعارف بالقاهرة ، ومنه عرفت أن مصيري معلّق على طبع كتاب « التصوف الإسلامي »

فما الذي أصنع ؟

إن مكاني في بغداد محفوظ لو أردتُ ، فقد نجاني الله من المكاره التي يتعرض لها بعض الناس في العراق ، وكفاحي في خدمة الحياة الأدبيـة قابلَه العراقيون بالاعجاب ، وجوُّ العراق أذكى نشاطي وأوحى إلى قلمي ألواناً كثيرة من الصور الشعرية ، وما أشـعر بالضجر إلا في حالين اثنين : بلائي بحب ليلى ، وشوقي إلى أبنائي

أَما حب ليلى فَخَطْبُه سَهْل ، لأني أستطيع التخلص منه حين أشاء بتميمة يكتبها أحد الصابئين

وأبنائي يمكن استقدامهم إلى بغداد

ولـكني مع ذلك أشعر بأن حيـاتي ستظل مكدَّرة

مادام كتاب التصوف الاسلامي محبوساً بين جدران الجامعة المصرية

متى يُطبع هذا الكتاب ؟ متى يطبع ؟ متى يطبع ؟

إن أصول هذا الكتاب نجَّت بيتي من الحريق بضع سنين : فقد كنت لا آوي إلى فراشي إلا بعد أن أتعقب أعقاب السجائر لئلا تمتد شرارة فتحرق أصول ذلك الكتاب الذي بدّد قوتي و سحق شبابي

وتزيد قيمة هذا الكتاب في نظري كلما تذكرت أنه محصول أعوام طوال انتفعت فيها بآراء الأساتذة الكبار في الجامعة المصرية وجامعة باريس

وهل أنسى أنني انتزعت به إجازة الدكتوراه من كلية الآداب وأنا في خصومة عنيفة مع عميد كلية الآداب ؟

هل أنسى أنه كان الشاهد على أن أحجار الجامعة المصرية قد تنطق ؟

***

إن دار المعلمين العالية تسألني عن مناهج العام المقبل وتطلب رأيي في تجديد العقد ، فما الذي أصنع ؟

ليتني أبقى في بغداد طول حياتي !

ليت ثم ليت ، وهل ينفع شيئاً ليت ؟

يجب أن يُطبَع كتاب التصوف الاسلامي لأنال الترقية المنشودة في وزارة المعارف المصرية

يجب أن يطبع كتاب التصوف الاسلامي ليرى النور قبل أن أموت

وفي سبيل كتاب التصوف الاسلامي أقدم الجواب الآتي إلى إدارة المعهد الذي أظلني ورعاني :

حضرة الأستاذ وكيل دار المعلمين العالية

« أقدم إليك أصدق التحيات ، وأذكر أنك تلطفت فكتبت تسألني عن استعدادي لمواصلة العمل بدار المعلمين العالية في العام المقبل ، وأجيب بأن نسيم الحياة العلمية والأدبية في هذا المعهد العالي خليقٌ بأن يجذبني إلى بلدكم الطيب الجميل

ولكني لا أكتمك أن عندي مشروعاً أدبيا سيحرمني التشرف بصحبتكم في العام المقبل ، وهو طبع كتاب (التصوف الاسلامي) الذي نلت به الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة المصرية برتبة الشرف ، وطبع هذا الكتاب لا يتيسر في بغداد لأسباب فنية ، وتأجيل طبعه يزعجني ، لأني أراه أعظم عمل قمت به في حياتي ، وأحب أن يرى النور قبل أن أموت

وإنما اقتصرت على هذا السبب في تخلفي عن مواصلة العمل بدار المعلمين العالية لأنه سببٌ عِلميٌّ تقدره أنت ويقدره العراق الذي يعرف قيمة الحرص على آثار العقول

وأؤكد لك ، أيها الزميل الكريم ، أني أشعر شعوراً صادقاً بأني مقبلٌ على تضحية خطيرة في سبيل ذلك الكتاب : هي الحرمان من الجوّ الأدبي الذي تنسمتُ هواءه في صحبتكم وصحبة الزملاء الأماجد الذين أحاطوني بأشرف معاني الوداد ، ولو شئتُ لنصصت على مودة الدكتور فاضل الجمالي الذي احتمل معنا مشاقّ الكفاح

في رفع قواعد دار المعلمين العالية ، وكان اشتراكه في التدريس من أشرف معاني الصدق في الجهاد

أَما تلاميذي فليس بيني وبينهم ما يوجب العتاب ، فقد قدّمتُ إليهم جميع ما أملك من المعارف الأدبية والعلمية والفلسفية ، وسيصيرون باذن الله من أشرف خدام العراق ، وإن كان فيهم من يعتب أو يلوم لأني أثقلت كاهله بالواجبات فسيعرف بعد حين أَن الرجل لا يذوق معنى السعادة إلا بإقذاء العينين تحت ضوء المصباح

ذلك اعتذاري أقدمه إليك ، أَيها الزميل الكريم ، وليتك تعرف كيف أُفارق بلداً يكون فيه وزير المعارف شاعراً مثل معالي الأستاذ محمد رضا الشبيبي ، ويكون فيه مدير المعارف العام أَديباً مثل سعادة الأستاذ طه الراوي

جعلني الله وإياكم من خُدّام العلوم والآداب والفنون ، والسلام : من المخلص محمد زكي عبد السلام مبارك»

* * *

تلقّى الدكتور عقراوي هذا الخطاب بالدهشة

والاستغراب ، وأَخذ يناقش العذر الذي سجلته في الخطاب. وقد عجب من أَن يكون طبع كتاب التصوف الإسلامي، موجباً لأن أَترك عملي في بغداد مع أَن أَكثر العراقيين يطبعون مؤلفاتهم في القاهرة بدون أن يجشمهم ذلك ترك أَعمالهم في العراق

وكانت حجتي ضعيفة في مناقشة هـذا الزميل العزيز الذي أَصفاني أصدق الوداد

وكانت هنـاك حجة مقبولة ، ولـكنني طويتها عنه ، وهل يستطيع رجلٌ مثلي أَن يغتاب وطنه في بغداد ؟

هل أَستطيع أَن أحدثه بقصة الأوراق التي أَمضيتها اليوم في المفوضية المصرية ؟

هل أَستطيع أَن أخبره بأن وزارة المعارف في مصر قدّرت لي مرتبـاً لا يكفي أَن يكون مصروف جيب ؟ ولمن ؟ لرجلٍ متهَمٍ بالغنى لا يُصبح ولا يُمسي إلا وهو مطوّق بأغلال من التكاليف !

آه ثم آه من حالي في دنياي !

كرر الدكتور عقراوي رغبته في أن أسحب هذا الخطاب ولكنني رفضت وأكدت الرفض

* * *

مضت ثلاثة أيام قضيتها في أحزان لفراق بغداد

ويظهر أن الدكتور عقراوي حدَّث بعض زملائه عن خطاب الاستقالة فطار الخبر إلى وزارة المعارف ، وما كنت أحب أن يصل الخبر إلى وزارة المعارف ، فهناك رجلٌ يؤذيه أن أفارق بغداد هو الوزير محمد رضا الشبيبي ، الرجل العظيم حقًّا وصدقاً ، الرجل الذي شرفني بحضور أَول محاضرة ألقيتها على الجمهور في كلية الحقوق ، الرجل الذي اتسع صدره لكل ما نشرتُ في جرائد القاهرة وبغداد من النقد الصريح أو الملفوف لوزارة المعارف العراقية ، الرجل الذي انشرح صدره حين رآني أتكلم في المؤتمر الطبي باسم العراق

* * *

في صباح اليوم وهو الثامن من حُزَيْران مرّ عليّ أخٌ صادق فقال إن سعادة الأستاذ باقر الشبيبي يرجو أن تتفضل بشرب الشاي معه في منزله بالزّوية في الساعة الخامسة بعد ظهر الغد ، فقلت : هل عنده حفلة ؟

فقال : عنده كلام يخصك . فقلت : هل تعرف نوع هذا الكلام ؟

فقال : سيدعوك إلى سحب الاستقالة

فقلت : لن أسحب الاستقالة . فقال : ولكن يجب أن تجيب الدعوة

* * *

وصلتُ إلى الزوّية في الأصيل فجلسنا على شاطىء دجلة فوق الأعشاب في مكانٍ أوحى ما أوحى إلى شعراء بغداد ، وطوّفنا بشجونٍ من الأحاديث ، ثم استطرد الأستاذ باقر الشبيبي فقال : بلغني أنكم حين استُفتيتم في تجديد العقد للعمل في العام المقبل اعتذرتم ، فقلت : هذا

وقع ، فأظهر أسفه لذلك ودعاني إلى أن أقبل تجديد العقد فأكدت له أني لا أملك العودة إلا إذا اطمأننت على مصير كتاب التصوف الاسلامي . وقد تأثر حين قلت له إني أخشى أن أموت قبل أن يظهر هذا الكتاب

فهل يظهر هذا الكتاب قبل أن أموت ؟

إني أحب مؤلفاتي أكثر مما أحب أطفالي

انتهت المحادثة في جوّ لطيف ، ولن أنسى تأثر الأستاذ باقر وهو يقول : إن انقطاعك عن العمل في بغداد خسارةٌ عظيمة للعراق

* * *

سأل عني سعادة الأستاذ طه الراوي مرات كثيرة في هذه الأيام فلما لقيني قال : أنت تهرب مني ؟

واستصحبني إلى منزله وسألني عن الأسباب الحقيقية للاستقالة لأنه استبعد أن تكون مقصورة على طبع كتاب التصوف الاسلامي وقال إنه مستعدٌّ لترضيتي ، وأسرف في

التلطف فقال : نستطيع أن نعفيك من الدروس إن كانت أتعبتْك ويكفي أن تقيم في بغداد لأنك أحدثت مَوْجَةً في العراق ، وقد استقدمنا الأستاذ الثعالبي قبل ذلك لمثل هذا الغرض

وقد رأيت أن أصل إلى قلب هـذا الرجل فأنشـدته قول الشاعر :

تناسيتُ في مصرَ الجديدةِ صِبْيةً

هُمُ الزّهَرُ الظمآنُ في جوف بيداء

يناجون في الأحلام أطياف والدٍ

لعهـد بنيـهِ والبُنَيّاتِ نَسّاء

وأبو هاشم يعرف صدق اللوعة في مثل هذا الحنين

***

سأفارق بغداد

سأفارق بغداد

و يا لوعة القلب من فراق بغداد !

٢٨

كان هـذا اليوم من أعجب الأيام التي شهدتُها في بغداد

وتفصيل الحديث أني تلقيت دعوة من دار المعلمين العالية لشهود الحفلة الختامية ، فرأيت في ذلك فرصة لمصافحة تلاميذي ، التلاميذ الأوفياء الذين يسألون كل يوم عن منهج العام المقبل ، ويتحرقون شوقاً إلى معرفة ما سيصير إليه أستاذهم في العام المقبل ، فهل كانت تحدثهم ضمائر القلوب بأني سأجنَح إلى إيثار الهجر الجميل !

والواقع أن تلاميذي في بغداد أحبوني أصدق الحب ، وكنت أستأهل هـذا الحب ، فقـد خلعتُ عليهم كل ما أملك من المعارف الأدبيـة والفلسفية ، وعوّدتهم عادات حسنة هي الاعتماد على النفس ، واقتحام أخطر الموضوعات ومواجهة أصعب المعضلات ، وكنت أدعوهم إلى إحراجي

إن استطاعوا بأدق الأسئلة الأدبيـة والنحوية والصرفيـة والبلاغية والفقهية ، ومرّ العام الدراسي بدون أن يشهدوا على أستاذهم علامة من علائم الضعف في تـكوينه الأدبي والفلسفي ، وساعدني هـذا الفوز على إقناعهم بأن الأستاذ الحق هو الذي يملك مادته ملكاً تاماً بحيث لا يطمع في إحراجه أحد ، وأن مصـايرهم في مهنة التدريس مرهونة بهذا التفوق إن أرادوا أن يكونوا من أعلام الرجال

وما أزعم أن أيامي مع هؤلاء الطلبـة مرت كلها في سـلام وصفاء ، فقد اشتبكوا معي مرة أو مرتين ، وكان الخلاف يرجع إلى أني أردت أن أعاملهم كما كان يعـاملني أساتذتي في الجامعة المصرية وجامعة باريس ، فقـد فرضتُ أن يكتب كل طالب رسالة ضافية في موضوع لم يُـكتب فيه من قبل ، ليتعوّد البحث ويتمرّن على التأليف . وقد ثاروا على هـذا المذهب في التعليم ، ثم اطمأنوا إليه فأتوا بالأعاجيب ، وستظهر مواهبهم بإذن الله بعد قليل

وكنت في هذا الـكفاح سياسياً خطيراً ، فقد ساءني

أن أخيب في الطب وفي التعليم ، فضلاً عن خيبتي في الحب ، وقد شاء الله أن أفوز في التعليم بعد الخيبة في الحب والطب . أعاذنا الله من الخيبة فانها مُرّةُ المذاق

ولكن هذه السياسة تحولتْ إلى مبدأ من حيث لا أشعر ولا أحتسب ، فقد شُغِلتُ بتلاميذي شغلا جديا ، ورأيت أن أُحيطهم بجوٍّ أدبي يملأ فراغ عقولهم وقلوبهم ونفوسهم ، فملأتُ أرجاء العراق بالجدل والصَّخَب والضجيج ، فما كانوا يُصبحون أو يُمسون إلا على مقال منشور أو حديثٍ مُذاع

وانتهيتُ من ذلك كله إلى إلقائهم في أَتُّون الحياة الأدبية والعقلية ، وهو جهادٌ هدّم أعصابي ، وضعضع كياني ، ولكنه على كل حالٍ جهادٌ محمود ، وسيظهر أثره باذن الله في الأعوام المقبلات

* * *

مضيت إلى دار المعلمين العالية لأشهد الحفلة الختامية فرأيت هناك معالي الأستاذ محمد رضا الشبيبي وزير المعارف ،

وسعادة الأستاذ طه الراوي مدير المعارف العام ، وسعادة الدكتور فاضل الجمالي مدير التربية والتدريس ، وكان معنى ذلك أن الحفلة لبست حُلةً رسمية

لم يكن في نيتي أن ألقي خطبة في ذلك الاحتفال ، ولكن الدكتور فؤاد عقراوي أسرّ في أذني أن من الواجب أن أُلقي كلمة بوصف أني أستاذ الأدب العربي في المعهد

وإلقاء الخُطب لم يَعُد يَشُوقني ، لأن شهوة الكلام ضعُفتْ عندي بعد البلاء الذي عانيته في الخطابة أيام الثورة المصرية ، وبعد البلاء بمهنة التدريس عدداً من السنين ، وهي مهنة تقوم على الكلام والحديث ، يضاف إلى ذلك أني أكتب في كل يوم نحو عشر صفحات ، والتعبير عن خواطر النفس بالكتابة يُضعِف شهوةَ الكلام عند مَن يعقل ، ولا أزال فيما أزعم من العقلاء !

اعتذرت عن إلقاء كلمة ، ولكن الدكتور عقراوي أصرّ على أن أتكلم فقبلت

كانت كلمة الطلبة للأديب شاكر الجودي ، وهو شابٌ مرجوُّ المخايل ، وقد قرُب من نفسي أشد القرب ، لأنه كان يرحّب بالملام والتأنيب كلما جدّ موجبٌ لذلك ، وقد غضبتُ مرة على سوء النظام المتبع في دفاتر التلاميذ بالعراق : لأني رأيت من طلبة دار المعلمين العالية من يكتب فروضه في كراريس الأطفال ، وكانت لحظات غَضِبَ فيها الطلبة وثاروا ، إلا شاكراً الجودي ، فقد قدّم إليّ كراسه لأتخذ منه شاهداً على تقصير زملائه حين أشاء

وقف شاكر يلقي خطبته بنبرات تُشعر بأنه تلميذ زكي مبارك ، فتأثرتُ ، ثم اندفع فقال إنه يخشى أن يكون موقفه موقف التوديع لبعض أساتذته الفضلاء

ولم تكن كلمة « التوديع » أو « الوداع » تؤذي أحداً غيري ، أنا الطائر الغريب الذي زار في السَّحَر بساتين الكرْخ وبغداد

وما كدت أسمع كلمة « الوداع » حتى ثارت دموعي

وما أخطر دموع الرجال !

ونظرتُ فرأيت تلاميذي مكروبين لمنظو أستاذهم المرتاع ، ورأيت إحدى تلميذاتي تتأهب للبكاء ، ولو كان اسمها ليلى لخفَّ حزني ولكنها تسمَّى وطفاء.

متى أسمع أن تلميذاتي في بغداد صِرْنَ من فُضْليَات المعلمات ؟

اللهم حقِّق أملي في أولئك الفتيات المهذَّبات

* * *

وقفتُ لأخطُب ، ولكن كيف ؟

لقد هجم الحزنُ هجمةً عنيفة ، وهجم الدمعُ هجمةً أعنف

والتفتُّ إلى الدكتور فاضل الجمالي أسأله عن أبيات أبي تمام في الفراق

. ثم انهدَّتْ قُوايَ فجلستُ وأنا دامعُ العين مفطورُ الفؤاد

* * *

وهمس الدكتور الجمالي في أذني يقول : هذه أعظم خطبة سمعتها في حياتي !

وكانت أول مرة عرفتُ فيها أن من البيان أن تعجز عن البيان

وخيّم الحزن على الأستاذ طه الراوي فلم ينطق في مواساتي بحرف

* * *

وجاء دور معالي الأستاذ الشبيبي فالتفت إليّ وقال: ما هذا الذي صنعتَ في كتاب « المدائح النبوية في الأدب العربي » ؟

فقلت : وما ذاك ؟

فقال : هل تعلم أن كتابك هـذا حبسني على قراءته ثلاث ساعات ، وهو حظٌّ لم يظفر به مني كتابٌ حديث منذ أعوام طوال ؟

ثم ساق فكاهة وردت في كتاب المدائح النبوية فطابت نفسي وابتسمت

وبعد لحظات قمت فألقيت خطبة الوداع

وآه ثم آه من الوداع !

وما انتهت الحفلة حتى كان الطلبة يهتفون :

« يحيا الدكتور زكي مبارك يا ، يحيا الدكتور زكي مبارك يا »

* * *

وسألني الدكتور الجمالي أين أذهب ؟ فقلت : إلى التسليم على إخواني بكلية الحقوق ، فمضى معي إلى هناك ، وقد فرح الأستاذ محمود عزمي بزيارته أشد الفرح : لأنه عَدَّ هذه الزيارة تصفيةً لحساب كان تعقَّد بينهما منذ أسابيع

وفُتِح بابٌ خرج منه صديقٌ هو الدكتور سيف فأقبل يعانقني بحرارة شديدة وهو يقول : كيف تنسانا وأنت عميدنا في بغداد !

فقلت وأنا أبتسم : لقد تركتكم في رعاية الشيطان (وأشرتُ إلى الأستاذ محمود عزمي) !

* * *

وأراد الدكتور فاضل الجمالي أن يحملني على الذهاب لرؤية

الأشبال ، وهو يسمي أبناءه بأسماء الأسود ، وكان يسرني
أن أُجيب لأرى زوجته الغالية ، وهي سيدة أمريكية تشهد
شمائلها بأن الأمريكان لم يسودوا من باب المصادفات ، هي
سيدةٌ جميلةٌ جدًّا ، ولكنها مع جمالها توحي الاحترام قبل
أن توحي الحب ، وسيكون لها ولأمثالها تأثير شديد في
الحياة الاجتماعية بالعراق ، لأن المرأة المصونة تفرض على
الناس الاقتناع بأن السفور أفضل من الحجاب

والدكتور الجمالي وزوجته من أعاجيب الحياة في المجتمع
العراقي ، وهما أشبه الأشياء بالأزهار في الصحراء ، وهما
يقضيان النهار مفترقين ، هو في حياة التربية والتدريس
من الصباح إلى المساء ، وهي في خدمة أطفالها وأطفال
الفقراء من الصباح إلى المساء

وكم تمنيت أن أقبّل يَدَيْ هذه السيدة قُبلة إعزاز
واحترام ، ولكن شهرتي بالكلام في الحب صرفتني عن
هذا الحظ السعيد . وعفا الله عن ليلى فقد فضحتْني !

***

اعتذرتُ عن صحبة الدكتور الجمالي ، ومضيت وحدي أستمتع بضوء القمر في ضواحي بغداد، وما هي إلا لحظة حتى رأيت سيدة تعترض طريقي ، فنظرتُ فاذا هي ليلى حرسها الحب

أبعد هـذا الهجر الطويل تسأل عني ليلى وتعترض طريقي ؟

— ليلى !

— عيوني !

— هل أنا في حُلْم ؟

— أنت في يقظة وأنا ليلاك !

— كان ذلك قبل اليوم !

— أنا إلَكْ ، أنا إلَكْ !

— أنا مفارقٌ يا ليلى

— ومن أَجل ذلك جئتُ أقضي ديونك !

— وأَين تُقضَى الديون ؟

— في حانوت الوراق !

« وحانوت الوراق هو منزلي الذي وصفته جريدة الكلام ، وكان فيه نحو خمسمائة كتاب وضعتها فوق الأرض لئلا تسقط فوقي فتقتلني كما سقطت كتب الجاحظ فوقه فقتلته بلا ترفق »

— عَرَبانچي ، يَمَّك ، عَرَبانچي !

كذلك هتفتْ ليلى ، ولكني رفضتُ أن أركب مع ليلى عربانةً في جادة الرشيد ، لئلا تأكلنا العيون

وجذبتها من ذراعها لنركب سيارة عمومية ، وبعد لحظات عرفتُ أن السائق سكران ، فدعوتها للنزول لئلا نموت علانيةً في جادة الرشيد ، وليتني متُّ مع ليلى في جادة الرشيد ، ولكني حميتها من الفضيحة العلنية في شوارع بغداد

ليلى

أحبك يا ليلى

ومضينا راجلَين إلى حانوت الوراق ، وهو منزل صديقنا الدكتور زكي مبارك

وصعدنا إلى سطح المنزل لنرى معاً أضواء بغداد

وهمّتْ ليلى بمعانقتي فتأبيتُ وتمنعتُ

***

كنت أبيع العمر كله بلحظة صفاء مع ليلى المريضة
في العراق

ولكني خشيتُ ثم خشيتُ وأردتُ ثم أردت

خشيتُ أن تُفجعَ ليلى في عفافي

وأردتُ أن تشهد بأني رجلٌ نبيل وأن تقضي حياتها
في الدفاع عني

وهل كنت أملك أن أضيّع صيام تسعة أشهر بلحظة
أثيمة تفسد صيامي ؟ يكفيني من الحظ أن تكون ليلى
مدت ذراعها إليّ ، وهو فضل سأذكره ما حييت

أحبك يا ليلى ، فاذكريني بالشعر يوم أموت

وخرجنا من المنزل صامتَيْن

— إيش بيكْ يا دكتور ؟

— لا شيء ، يا مولاتي !

— ألا تزال غضبان ؟

— أنا راض كل الرضا يا سمكة الفُرات !

— هات يدك أُقبّلها

— لن يكون ذلك !

« وأَهوتْ ليلى على يدي فقبّلتْها بالرغم مني »

— دكتور !

— مولاتي !

— ليتني كنتُ أَعرف أَنكَ على هذه الأخلاق !

— وليتني كنت أعرف أنكِ على هذه الأخلاق !

— دكتور !

— مولاتي !

— إن المفارق يقول ما يشاء

— أُحبكِ وأَهواكِ

— أشكرك ، أشكرك

***

— دكتور !

— مولاتي !

— سيتغير كل شيء في العام المقبل !

— في العام المقبل ؟

— نعم ، في العام المقبل

— في العام المقبل سيجفّ عُودي !

— إن لم ترجع إلى بغداد فسأزورك في مصر الجديدة
لأقضي بين ذراعيك أسبوعاً أَو أسبوعين

— وإن لم تجديني في مصر الجديدة ؟

— سأسأل عن قبرك لأموت بجانبك ولتكون صلة
الوصل بين مصر والعراق

— من حقي إذنْ أن أموت حين أشاء

قضيتُ ليلي كلَّه نَشوانَ ، بعد أن رأيتُ ما رأيتُ وشهدتُ ما شهدتُ من عطف ليلاي . وفي الليلة التالية حضرتُ سهرةً أَقامها السيد عبد الأمير لتوديعي ، سهرة باسمة فوق سطح الفندق ، فُندُق العالم العربي ؛ غنَّى فيها الأستاذ محمد القومبانجي وأطرب حتى اهتاج ما في دجلة من سمكات ، ثم وقف الشاعر عبد الرحمن البناء وأنشد هذا القصيد :

زكيّ النفس بَعدَك لا جليسُ
يروق لناظريّ ولا أنيسُ
أَلِفتُك صادقاً حراً أبيًّا
أخا نُبلٍ له أدبٌ نفيسُ
لك الأسماع تنصِت مُرهَفاتٍ
وتُطِع إن خطبتَ لك الرءوسُ

تَقَرُّ إذا رأتك العـــين تمشي

وترغب أن تطير لك النفوسُ

وإنك أوسع الأدباء صـــدراً

وفارســهم إذا حَمِيَ الوطيس

لقـد أخرجت في الآداب كُتْباً

تضيء بهــا المـدارس والدروسُ

عكفتَ على صياغتها مكبًّا

كما عكفتْ بمعبدهـا القسوس

بلغتَ من البلاغة كل معنىً

وجِدُّكَ في العلوم هو الرئيسُ

* * *

عرفنـــا للوفاء بك احتفـاظـاً

تضيق به الصـحائف والطروسُ

فـــكم ليـلٍ قطعناهُ بأنسٍ

تطوف به علينـا الخنـــدريس

فغِب أو لا تغب ماشئت عنا
فإنك بيننـــا أبداً جليس
تذكّرنا الُحميّا منك لُطفاً
ونحن على موائدهــا جلوس
فما ننســـاك ما طلعتْ بدورٌ
ولا ننســاك ما طلعتْ شموسُ
فيومُ لقـائنـــا يومٌ ضحوكٌ
ويوم فراقنـــا يومٌ عبوس
فبَعـدَك لا تُســـلّينا مُدامٌ
إذا قُرِعتْ بمجلسنا الـكؤوس

* * *

لِبُعدك كابدتْ بغـداد حُزناً
وإن فرحتْ بقربك سِنـتِريسُ
يَزُفّ إليك « بَنّاء » القوافي
مُحبّـــلةً كما زُفّتْ عروس

ونسأل منك صفحاً عن قصور

أتى منــــا به الحظ التعيسُ

فمثلك من يدوم السعد فيهِ

ومثــلك من تزول به النحوس

ومثــلك من تعــزّ به بلادٌ

ومثلك من تطول به الرءوسُ

وأنشد السيد عبـد الحسين مُلّا أحمد قصيدة أذكر منها هذه الأبيات :

لم أذق لذة السرور بيــــومٍ

غير يومٍ صفا بلُقياك أُنسي

يا زكيّ الفِعال أَصغِ إليها

تلك ليلَى تشكو إليك بهمسِ

داوها ما استطعت فالداء منها

قد تعاصى على أطباءَ نُطسِ

أنت تشفي النفوس من علل الجهـ

ـل وتُبريَ العقولَ من كل مسّ

فابعث النّشء في العراق ليجني
من ثمار الآداب أطيب غرس
لا يصدّنك عن مداواة ليلَى
جاهلٌ لو يُباع بِيعَ بِفلْس
وإذا في غدٍ رجعتَ لمصرٍ
خُذْ فؤادي فثَمَّ مهبط نفسي
وأتِ ليلاك بالزمالك صبحاً
وتفقَّد نبض الفتاة بجَسٍّ
فلعل الخلاف راع حشاها
فأصيبتْ بعد الشفاء بنكس

ومددتُ يدي نخطفتُ القصيدتين ودَسستُهما في جيبي فابتسم السيد عبد الأمير وقال : ما معنى ذلك ؟ فقلت : لا تؤاخذني يا مولاي فقد جُنِنْتُ ، فأنا أول مصريٍّ أثنى عليه شعراء العراق في أكثر من عشرين قصيدة ، وحُبِّرتْ في العطف عليه عشرات الخُطب والمقالات ، ولولا خوف الفتنة لجمعتُ ذلك في كتاب يكون ذخيرةً

تذكرني بها ليلاي في الزمالك ، وليلاي في العراق .

وبعد انقضاء السهرة رجعت إلى بيتي فتوضأت وصليت العشاء وحمدت الله على نعمة التوفيق

* * *

وفي الصباح بكرتُ إلى منزل ليلى لانعمَ بالنظر إليها لحظة أو لحظتين ، ولأحدثها عما خصَّني به قومها الأكرمون ، فراعني أن أراها في عُبوسٍ وقُطوب

— ليلاي

— لست ليلاك

— ما الذي جدّ في دُنيا الوصل ؟

— عصفتْ بها العواصف

— هل أَستطيع أن أعرف من أين هبّتْ تلك العواصف ؟

— من فندق العالم العربي

— وكيف ؟

— لأن سهرتك هناك أكدت الوصف الذي نعتَك يه أحد الأدباء في إحدى المجلات المصرية

— وما هو ذلك الوصف ؟

— هم يُسمُّونك في مصر « زعيم الفتُون »

— وما الذي وقع في تلك السهرة حتى يصح ذلك الوصف ؟

— ما الذي وقع ؟ أتنسى أنك أَنِسْتَ إلى ناس يطيبُ لهم أن يجمعوا بين الشعر والغناء والشراب ؟

— وما العيب في أن يجمع ناس بين الشعر والغناء والشراب ؟

— ما في ذلك عيب ؟

— أبداً ، يا مولاتي

— أحب أن أعرف منهبك فقد حيَّرني أمرُك ، أَبعدَ السيرة العَطِرة التي تأرجتْ في العراق بالخطب النفيسة التي نقلها عنكَ المذياع ، الخطب التي جعلتْك في الصف الأول بين رجال الأخلاق ، أبعد أن ملأْت المحافل والأندية بنفائس الأحاديث والمحاضرات ، أبعد خطابك الرائع « في ضيافة القرآن » أبعد ذلك كله تُحبطُ أعمالك بالجلوس فوق

ـــــطح الفندق مع جماعة يلهون بالقصائد والأغاني والكؤوس ؟ واحسرتي عليك ! واحسرتي عليك !

— إن ما وقع مني في حضور ذلك المجلس الشائق يضاف إلى حسناتي ، لو تفقهين

— يضاف إلى حسناتك ؟ أشهد أن التضليل لا يعظُم عليك !

— اسمعي ، أيتها الطفلة ، شرح ما لم تفهميه

— محاضرة جديدة في الأخلاق ؟

— نعم ، محاضرة في الأخلاق ، ومَن الذي يحق له أن يتكلم في الأخلاق إذا صحتْ لك السخرية من أن أتكلم في الأخلاق ؟ أنا يا ليلى متخرج في جامعة باريس ، وقد شربت الخمر مع كبار الأساتذة في أروقة السوربون ، وشربت مع المسيو هريو في باريس يوم كان إليه الأمر في تهذيب الأخلاق ، وما يصح في ذهني أبداً أن يحرُم عليّ قضاء سهرة شائقة مع جماعة من أدباء بغداد ، وبأي حق أدّعي أن أخلاقي أرفع من أخلاق الأدباء في بغداد ؟

وفي أي شريعة من شرائع الذوق جاء النص على أن الدكاترة لا يليق بهم أن يسامروا كرام الشعراء ؟ إن التبعة في الشراب يُسأَل عنها مَن خلق النخيل والأعناب

— ما هذا الكفر الموبق ؟

— الخروج على الأدب مع الله أسلم عاقبةً من الخروج على ما وضع بنو آدم من أصناف الشرائع والقوانين ، فالله عز شأنه لا يَحْرِم الكافرين من نعمة الشمس والهواء والماء ، ولا يمنع أرضهم من أن تُخرج أطيب الثمرات . وأكثر الحكومات الاسلامية تبيح استقطار ثمرات النخيل والأعناب وتعطي رخصة رسمية بفتح الحانات ثم تبثُّ العيون والأرصاد لتحصي ذنوب الشاربين ، فما هذا الوضع المقلوب في عقول بني آدم ؟ رضينا بقضاء الله وقدَره حين رأيناه ينهى عن بعض الطيبات ، وهو الذي خلق تلك الطيبات

— هل ترى الخمر من الطيبات ؟

— لا تقاطعيني يا ليلى ، ودعيني أكمل حديثي

— إعترفْ بأنك مضلِّلٌ أثيم

— و ما وجه الاثم والتضليل ؟

— أنت تقول إن الخمر من الطيبات

— ما قلتُ ذلك

— قلتَ إن الله ينهى عن بعض الطيبات وهو الذي خلق تلك الطيبات ، وسياقُ الحديث يُشعر بأنك ترى الخمر من الطيبات

— إعقلي ، يا ليلى ، إن القرآن يصرّح بأنّ في الخمرِ منافع

— قال إن فيها إثماً ومنافع ولكنه عقب على ذلك بأن الإثم فيها أكبر من المنافع

— ما أنكرتُ ذلك ، وإنما أريد أن أقول . . .

— ما ذا تريد أن تقول ؟

— أقول إن الله يخلق الشيء لحكمة ، ثم ينهى عنه لحكمة ، ولكني أُنكر أن يتخلق الحُكّام بأخلاق الله في هذا الباب

— ماذا تريد أن تقول ؟

— أقول إن الحكومات الاسلامية تقع في تناقض معيب حين تبيح فتح الحانات ثم تجعل الذهاب إليها مما يغضّ من كرامات الرجال

— إنها تفتح الحانات لحثالات الناس

— ومن الذي قال إن الحكومات الاسلامية غير مسئولة عن وقاية جميع الطبقات من آثام المسكرات ؟ إن من تسميهم حثالات هم أحوج الناس إلى الرعاية والحفظ ، لأنهم في الأغلب من الطبقات الفقيرة ، والطبقاتُ الفقيرة يتكون منها العمال والصناع والزراع وعليها يقوم الأساس في تكوين الجيوش البرية والبحرية ، والتفريطُ في تقويمهم وتهذيبهم يفضي بالأمم إلى الضياع والانحلال

— في هذا الكلام نفحات من الصدق ، ولكنك لستَ له بأهل

— إسمعي ، ياليلى ، إسمعي ، إسمعي كلام الرجل المسكين الذي ألقاه تناقض المجتمع في أتُّون الخبال ،

لقد جئت إليكم من مصر ، من البلد الذي يقول إنه شيخ الاسلام والمسلمين ، البلد الذي يزدان بمنارات الأزهر الشريف . ومصر يا طفلتي الغالية . . .

— لست طفلتك !

— اسمعي يا أُمي !

— يظهر أنك سخيف

— أنت أسخفُ مني

— أهذا أدب الدكاترة ؟

— أستغفر الله والحب ، اسمعي يا ليلى ، إن الناس في مصر لا يجعلون مَناط التَّبعة في ذات الشراب ، وإنما يجعلونه في ظَرف المكان : فالذي يغضّ من قدر الموظف فى مصر هو أن يشرب في مكان يغشاه سواد الناس ، ولا عيب عليه إن شرب في سان جيمس أو الكونتيننتال ، وربما كان غشيان تلك الحانات الاريستوقراطية باباً إلى الترفيع[1] وما يقع في مصر يقع مثله في العراق ، فما يعاب على

[١] الترفيع هو الترقية في اصطلاح أهل العراق

الموظف أن يقضي أوقات الفراغ كيف يشاء في الفنادق الكبيرة أمثال زِيًّا وتايجرس ومُود ، ولكن من المحرَّم عليه أن يقضي سهرة في الفنادق الشعبية . وقد هالني أن أرى الناس في العراق تختلف أقدارهم باختلاف أنواع الشراب : فالويسكي والبيرة والفيرموت أشربةٌ مَدَنية متحضِّرة لا تلطِّخ سُمعة شاربها بالسواد ، أما العَرَق وهو الشراب المُستَقْطَر من تُمُور العراق فهو في العُرف السائد شرابٌ مُستقبَحٌ مرذول ، ولو عقل الرأي العام لعرف أن الأمر يجب أن يكون بالعكس ، فالأشربة الأوربية منافعها للسادة الأوربيين ، وكل كأس من الويسكي يسبِّب الجوع لعشرة أو عشرين من العمّال في العراق

— هذا كلام في الاقتصاد ، ونحن نتكلم في الأخلاق

— من الجهل الفاشي في الشرق أن لا يعرف الناس أن الاقتصاد قِوام الأخلاق ، ومن واجبي أن أشرح هذه النقطة بالتفصيل

— لأنك فيلسوف !

— اتركي المطايبات في أوقات الجد ، يا حمقاء

— تكلم ، يا أستاذي ، تكلم

— إسمعي يا ليلى ، إن أساس الُخلق السليم هو النفع ، والأخلاق تَحسُن أو تَقبُح وَفقاً لقربها أو بعدها من المنافع ، فالُخلق الذي يعطّل على صاحبه منافع الحياة هو ُخلقٌ ذميمٌ وإن تخلّق به العُبّاد والنساك ، والأمم حين تَضعُف تختلُّ أمامها موازين الأخلاق ، ومن هنا كثرت الوساوس الأخلاقية في الأمم الإسلامية ، لأن المسلمين حين ضَعفُوا كَثُر عندهم القيل والقال حول ما يباح وما لا يباح ، ومثلهم في ذلك مَثل المرَضى من الناس ، فالمريض هو الذي يُكثر التفكير فيما يضر وما ينفع من ألوان الطعام والشراب ، أما السليم فلا يشغل نفسه بغير عظائم الأعمال .

— أين هذا الكلام مما نحن فيه ؟

— وأين نحن ؟

— نحن في ربط الأخلاق بالاقتصاد

— صحيح ، صحيح ، ويظهر أني انحرفت عن الموضوع بعض الانحراف

— أنت تنحرف أحياناً من حيث لا تشعر

— ما انحرفتُ ، ولكنك لا تفهمين، اسمعي يا حمقاء

— أنت وحدك الأحمق !

— وهو كذلك ، اسمعي ، الأمم الاسلامية تبيح فتح الحانات ثم تعاقب الشاربين ، وذلك تناقضٌ ممقوت ، وهي مع هذا التناقض لا تجعل مَناط التبعة في ذات الشراب وإنما تجعله في ظرف المكان ، وأقبح من ذلك أن تجعل الويسكي أشرف من العرق

— أنت إذن تبيح شرب العَرَق

— لم تفهمي كلامي ، يا بلهاء ، أنا أُبغض الخمر أشد البغض ، ولعنة الله على الصديق الذي شربت معه أول كأس ، ولكني سأفضح الحكومات الاسلامية التي تبيح فتح الحانات ثم تعاقب الشاربين ، سأفضح تلك الحكومات في كل أرض حتى تختار واحداً من اثنين :

أن تمنع استقطار ثمرات النخيل والأعناب وتغلق جميع الحانات ، وتمنع استيرادَ الخمر وبيعه منعاً صارماً ، فان لم تستطع ذلك — وهي تستطيع — فلتجعل حكم الخمر حكم الماء وتوفّر على الناس مشقة الابتلاء بالنفاق والرياء

— وهناك طريقٌ ثالث ؟

— ما هو ؟

— هو التنفير من الخمر وتحقير الشاربين حتى يتوب الناس عن الشراب

— ذلك ما صنعه المسلمون منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ولم يظفروا بغير انحلال الأخلاق

— النهي عن الخمر يسبب انحلال الأخلاق ؟

— نعم ، النهي عن الخمر يسبب انحلال الأخلاق ، فالخمر يشربها النصراني ويظل سليم الأخلاق ، ويشربها المسلم فيصير ضعيف الأخلاق

— خبّلتني ، خبّلتني

— اسمعي ، يا ليلى ، واعقلي

— سأسمع ، إن كنتَ أبقيت لي رُشداً أسمع به وأعقل

— اسمعي ، يا سمكة الفرات ، واعقلي ، إن الأوربي يشرب الكأس وهو يعرف أنه لا يُسأل إلا أمام محكمة الأعصاب والأمعاء ، فهو يشرب بحساب ، وتظلُّ شخصيته الخُلقية سليمة ، لأنه مقتنع بأنه لا يخرج على العُرف ولا على القانون ، أما المسلم فيعرف في سريرة نفسه أنه يخرج على الدين والتقاليد حين يشرب ، فهو يسرف في الشراب عناداً ومكابرةً فتنحلّ شخصيته الخُلقية أبشع انحلال

— وبماذا تشير ؟

— أشير بأن يكون الحساب مع الله لا مع الناس ، فان المرء يخجل من أَن يعاند الله كما يعاند الناس

— وتكفّ الحكومات أيديها عن معاقبة الآثمين ؟

— الحكومات ؟ الحكومات ؟ هذا كلام مضحك ، وأين الحكام الذين يزهدون في الشراب ؟

— في الأمم الإسلامية حكام كثيرون لا يشربون

— ولـكن هؤلاء الذين لا يشربون يُمضون بأيديهم الطاهرة جوازات الفتح !

— أي فتح ؟

— فتح الحانات والدّنان !

— هل أَستطيع أَن أَفهم من هـذا الحوار أَنك تبغض الشراب ؟

— أبغضه أشد البغض

— ولماذا شربت في بهو أمانة العاصمة ؟

— شربت لأني وجدت أكواب الصهباء ، ولأني رأيت بعض الوزراء يشربون ، ولست أعظم من الوزراء في ميادين الحزم والعقل ، ولو وجدت أكواب الحامض لاكتفيت بها وشربت حتى ارتويت

— منطق غريب !

— وما وجه الغرابة في هذا المنطق ؟

— كنت أحب أن يتم الانسجام بين قولك وفعلك

— ذلك تمام الانسجام

— خبّلتني ، خبلتني ! !

— إسمعي ، يا ليلى ، أتدرين من أين جاء البلاء ؟

— أحب أن أعرف !

— جاء البلاء من أني أديب

— والأدب يوجب هذه الموبقات ؟

— الأدب فنٌّ داعرٌ أثيم ، ولولا الأدب لكنت اليوم إماماً من أئمة المسلمين : فقد كنت من نوابغ الطلبة بالأزهر الشريف . الأدب هو الذي يوجب أن أرى جميع الأشياء ، وأن أعرف جميع الناس : فأنا أشرب المرّ من عصير الحياة لأحيله إلى شراب سائغ للشاربين ، وقد كوتني الحياة يا ليلى بمِيسم متّقد فَشَوَتْ وِجداني وَجناني ، أنا الفاتن المفتون الذي تلسعه العقارب وتلدغه الحيات في اليقظة والمنام ، وبلائي يا ليلى لم يقع إلا من حيث أردت النفع

— إيش لون ؟

— توهمتُ ياليلى أن من واجبي أن أخدم اللغة العربية

وقد نظرت فرأيت اللغة العربية لا تُخدَم إلا بالمحاولة الأثيمة التي توجب أن يكون أدبها صورة صادقة لما عليه العرب من أخلاق وآداب وأوهام وأضاليل ، فأنا أتسلّل إلى كل بيئة ، وأتغلغل في كل مجتمع ، لأرى كيف يعيش الحيوان الناطق الذي يرى نفسه سيد المخلوقات ، وهي دعوى أعرض من الصحراء ! ومن العجب أن يكون هذا مبدئي ولا أظفر منك بنظرة عطف ، أتذكرين يا ليلى ؟ أتذكرين ؟

— ماذا أذكر ؟

— أتذكرين أنكِ عبتِ عليّ أن أحضر الحفلات الساهرة في بَهْو أمانة العاصمة ؟

— أذكر ذلك

— فاعرفي الآن أنكِ كنتِ على ضلال ، فتلك الحفلات التي تقام بأموال الدولة لا تقام إلا لحكمة عالية ، فالدولة تعرف أن هناك رجالاً مكبودين محزونين سُدَّت في وجوههم أبواب الملاهي الشعبية ، لأنهم يقومون بأعمال

رسمية ، وأمثال هؤلاء الرجال في حاجة إلى حماية من فُضُول المجتمع ، وهم لا يُحْمَوْن من فضول المجتمع إلّا باقامة أمثـال تلك الحفـلات التي لا يحضرها إلا من يستطيعون لبس « الفِراك »

— وما هو الفِراك ؟

— هو ثوب يُلبَس في الحفلات الرسمية ويُلبَس يوم الموت !

— إيش لون ؟

— من عادات الأوربيين أن يكفّنوا موتاهم بلبـاس الفِراك ، وشُربُ الخمر ومخاصرة النساء في سهرة راقصـة قريب من الحياة وقريبٌ من الموت ، وفي تاريخ بغـداد. أن رجالاً كانوا يموتون في أعقاب هذه السهرات

— أنت حزين يادكتور

— وما خُلِق الحزنُ إلا لقلبي ، ولأمثال هذا القلب كان الخليفة هرون الرشيد يقيم حفلات الغناء والشراب ، وقـد أراد ناس أن يبرّئوا سمعة هرون الرشيد من

لستباحة الشراب والغناء ، ولكنهم كاذبون وجاهلون

— يظهر أنك تحنُّ إلى تلك الإنجليزية الحسناء !

— وأحب أن أقبِّل يدها مرةً ثانيــة على مرأًى من النواب والأعيان والوزراء

— فاتِك ، فاتِك ! !

— لن يكون قلبي أفتك من هذه العيون السُّود !

— وتخوض مع تلاميذك في أمثال هذه الأحاديث ؟

— ذلك هو ما يهمك ويهمُّ السفهاء من أعدائي ، أليس كذلك ؟ إن تلاميذي ليسوا بأطفال ، وهم لا ينتظرون أن أخوض معهم في أمثال هذه الأحاديث ، فلي ولهم شواغل أعمق وأشرف ، وهم يعرفون أن أستاذهم نموذجٌ للرجل الصالح ويرعَونه في المحضَر وفي المغيب

— والرجل الصالح يسامر شعراء بغداد !

— ويشرِّفه أن يسامر شعراء بغداد

— ويأكل السمك المسقوف فوق سطح الفُندق !

— ويداعب السمك الحيَّ في أبهاء الفندق

— ويقول : إن الأمم التي تشرب الخمر هي الأمم التي تسيطر على العالم ، و إن الأمم التي لا تشرب هي التي تعاني بلايا الاستعباد

— ما قلت ذلك

— قلتَه ليلةَ سهرتَ بالجَزْرة

— ما سهرْتُ بالجَزْرة

— سهرتَ بالجزْرة ، وقلت ذلك القول المجرم ، وعليك شهود

— من هم هؤلاء الشهود ؟

— قلتَ ذلك أمام السيدة (م) و الآنسة (ب) والسيدة (ف)

— لا تُقبَل شهادةٌ لأصحاب العيون السُّود

— لك مُطلق الحرية في أدبك وفي أخلاقك

— أحبُّ أن أشرح . . .

— كَفَى ، كَفَى

***

كانت العبارة الأخـيرة إيذاناً بوجوب الانصراف ،
فانصرفت وأنا أعرف أن هـذه آخر مرة أرى فيها ذلك
الوجه الجميل ، وجه المرأة البَتُول التي صهرتْ قلبي وأرهفتْ
بيـاني ، وجه ليـلى ذات العيون السود

انصرفت وأنا أُدَمْدِمُ بهذا البيت :

لقد زعمتْ ليلى بأنيَ فاجرٌ

لِنفسي تُقاها أو عليها فُجُورها

يا صاحبَ الإسمِ الزكيِّ وصاحبَ اللقبِ المباركْ

يَهْنيكَ أنك سَوْفَ في تمريضِ لَيلى بالمشاركْ

ومقالُها لك في غدٍ: يَفْدي الأطباءُ اقتدارَكْ

وغدوُّ بيتِك دارَها أوْ بيتِها المحبوبِ دارَكْ

مَنْ لَوْ رأتها في الضحى شمسُ الضحى قالت: تبارَكْ

لا كدَّرتْ بالغدرِ لَيْـــلاكَ يا وفيُّ ولا زيارَكْ

اخي العزيز الدكتور زكي مبارك

ان اخبار كلفك بليلى، اعزها الله، كادت تذيب صخر المقطم وتنطق اسماك النيل اشفاقاً عليك فارجو ان تطلع صاحبة وحيك على هذه الابيات عساها تعرف ان قومك يسرهم ان يسمعوا برضاها عنك وعطفها عليك والسلام من المخلص

حسن حمدي

القاهرة ١١/٦/٢٨

٣٠

على روحي أنا الجاني

على روحي أنا الجاني

على روحي أنا الجاني

* * *

ما أَحسب أني سأرجع لزيارة ليلى بعـد اليوم ، فقد تأذيتُ من لجاجتها وتألّمت ، وأحسب أني شبعتُ منها وشبعتْ مني

وكيف أغفر لها أن تراقبني إلى هذا الحد البغيض ؟

أقبّل فتاةً في بنك إيسترن فتسمع بالقُبلة بعد لحظاتٍ قِصار ، وتحضر بنفسها لمعاتبتي

وأسمر مع جماعة من الشعراء يشربون ويطربون فيصل إليها الخبر قبل نصف الليل

* * *

من حق ليلى أن تراقبني ، ولكني أكره هذه الرقابة الأرضية التي تعاقب بلا إمهال ، وكنت أتمنى أن تكون فيها نفحة سماوية تراقب ثم تمهل عاماً أو عامين ، كنت أتمنى أن تتخلق ليلى بأخلاق الله ذي العزة والجبروت ، فتعطي المذنب فرصاً كثيرة عساه يستغفر ويتوب

ولو أن الله تباركت أسماؤه عاملني كما تحب ليلى أن تعاملني لزُلزِلت الأرض تحت قدميّ منذ أعوام طوال فلم يَبق لي خبرٌ في شرق أو في غرب

تباركتَ يا ربي وتعاليتَ !

فما مرّتْ لحظة بلا شاهد يدل على عظمتك السامية

أنت تغفر لأنك عظيم

وبنو آدم لا يغفرون لأنهم صغار

كم أقمتَ الدلائل يا ربي على أنك تطّلع على كل شيء وإن دقّ وهان ، وكم نظرت إليّ كما ينظر الأب الرحيم إلى طفله الصغير ، ولولا الأدب معك يا ربي لقلتُ إني صافحتك بيدي أكثر من ألف مرة

نعم ، صافحتك ، ثم صافحتك ، وأنا أراك حيثما توجهتُ

أنا راضٍ عنك يا ربي ، فهل أنت راضٍ عني ؟

أحبك يا ربي فهل أنت شافعي

إلى سَرحةٍ في شط دجلةَ زهراء

رأيت فنائي فيك حين رأيتها

تحاول إضلالي وتَنشد إفنائي

ومن أنت يا ربي ؟ أجبني فإنني

رأيتك بين الحسن والزهر والماء

* * *

أنا الآن في غرفتي ، وحيداً شريداً ، أعاني غضب ليلى

وبلاء الحب

وأغلب الظن أنْ لن يسأل عني أحدٌ في هذا المساء

ومن الذي يسأل عني وقد أقنعت أصدقائي في بغداد

بأني لا أحب أَن يزورني أحدٌ في البيت ؟

ويشتد بلائي كلما تذكرت أَني كنت في حضرة ليلى

معقول اللسان فلم أُحسن الدفاع عن نفسي

كنت بين أمرين : الأول أن أنكر أن مجلسي مع شعراء بغداد لم يكن فيه شراب ، ويظهر أن الشاعر عبد الرحمن البناء كان من الملهمين ، فقد وقف عند هذا البيت :

فكم ليلٍ قطعناهُ بأنسٍ   تدور به علينا الخندريس

ثم قال : أنا مستعدٌ لحذف هذا البيت إن كان فيه زَحمةٌ عليك[1]

فقلت : الصدقُ أبقى وأنفع ، وما أحبُّ أن أكون من الكاذبين

الأمر الثاني هو الدفاع بقوة الحجة وقوة المنطق ، ويظهر أني عجزت في حضرة ليلى عن الحجة والمنطق

وهل تنفع الحجة أو ينفع المنطق في الدفاع عن الشراب ؟

الواقع أن الخمر أُمُّ الخبائث ، ولا يدعو إليها إلا رجلٌ مخبول

---

(١) الزحمة في لغة أهل بغداد معناها المشقة ، وهي كذلك في اللغة التركية.

ولكني كنتُ أملك إحراج ليلى لو شئت

كنت أستطيع أن أضع أوزار الخمر فوق رأس العراق ثم أنجو بنفسي

كنتُ أستطيع أن أقول إن فقهاء العراق هم الذين تفردوا بتفصيل أحوال الخمر فجعلوا منها ما يَحْرُم وما يباح

وكنت أستطيع أن أقول إن شعراء العراق هم الذين زينوا الخمر للشاربين ، فما تحدّث شاعر عن الخمر في مشرق أو في مغرب إلا وقد وسوس إليه شيطانٌ من شعراء العراق

ولكن عزّ عليّ أن أَعرِض لأسلافنا من فقهاء العراق بسوء : فهؤلاء رجال راَعوا الأدب مع الشرع فحرّموا ما حرّم وأباحوا ما أباح ، وهل كان أبو حنيفة من الفجار حين حلل النبيذ ؟

ما كان أبو حنيفة فاجراً وإن تجنّى عليه الشعراء الذين عرفوه في صباه ، وإنما كان رجلا يؤذيه أن يكذب على الشرع لتحسن حاله عند النساك

وعزّ عليّ أن أغتاب شعراء العراق ، ففيهم أبو نواس وكان أبو نواس فيما يظهر من الفاسقين ، ولكنْ أبو نواس على فجوره له في تاريخ الأدب العربي منزلة عالية ، وقد صرح الدكتور طه حسين مرةً بأنه لا يقلّ عظمةً عن أكبر شاعر أنجبته اليونان

وكنت أحسب الدكتور طه يمزح ، لأنه في أكثر أحكامه الأدبية من المازحين

فلما رجعتُ إلى خمريات أبي نواس رأيته من الأعاجيب وهل استطاع شاعر أن ينظم في المعنى الواحد أكثر من خمسين مرة ثم يتفوق في كل مرة غير أبي نواس ؟

كنتُ أستطيع أن أُحرج ليلى لتسكت عني ولو فعلتُ لنجوتُ من الهزيمة

ولكن لا بأس ، فالهزيمة قد تكون أشرف من النصر في بعض الأحيان

وما الذي يمنع من أن أنهزم لتنتصر ليلى ؟

إن ليلى مريضة ، والمريض حين ينتصر — ولو جدلاً —
يُحسُّ روح العافية

شفاك الله يا ليلى وهداني !

* * *

أنا محزون ، محزون ، محزون

كيف فاتني أن أنافق في زمن لا يسود فيه غير أهل
النفاق ؟

لعل السبب في هذه البلية أني أول دكتور في الفلسفة
من الجامعة المصرية

وهذه الأولية في الدراسات الفلسفية آذتني أخطر
إيذاء ، فقد توهمت أني مسئول عن درس جميع المزالق
الأخلاقية لأكون أعظم مؤلف في الأخلاق

وقد صرتُ بالفعل أعظم مؤلف في الأخلاق ،
ولكني وا أسفاه أصبحت مزعزع الأخلاق

صرتُ كالطبيب الذي يشرّح الأجسام ليستفيد العلم ،
فيخسر الخُلق من الوجهة الشكلية

وهل من الخلُق أن تهين أجسام الأموات ؟

أنا أسامر الشاربين لأدرس النفس الانسانية ثم تكون النتيجة أن أفتضح مع الشاربين

كنت أشرب لأدرس الناس فصرتُ أشرب لأدرس نفسي

فمتى أُخلُص من شر نفسي ؟ ومتى أُخلُص من شر الناس ؟

وقد انتهيت من التجارب الأليمة إلى أن الأخلاق لا رباط لها من العقائد الأزلية ، وإنما تختلف باختلاف الشعوب ، وهل أنسى ما وقع لي في جامعة باريس سنة ١٩٣١ وما وقع لي في الجامعة المصرية سنة ١٩٣٥ ؟

ففي سنة ١٩٣١ أقام لي فريق من أساتذة السوربون حفلة تكريم في بهو السوربون بمناسبة نجاحي في امتحان الدكتوراه في الآداب ، وكان من حظي أن أتناول كأساً من الخمر قدّمتها إليّ حرَم المسيو ديموبين ، وحاولتُ أن أرفض تلك الكأس ، ولكن تلك السيدة قالت :

« أنت المنتصر ، ومن حق المنتصر أن يشرب أول كأس »

أسعد الله أوقاتك يا مدام ديمومبين !

وفي سنة ١٩٣٥ كنت أراقب الامتحانات في الجامعة المصرية فسألتني الآنسة أمينة السعيد أن أسمح لها بتدخين سجارة فقبلتُ ، ثم وجدتُ من الزملاء من ينكر ذلك

وكنتُ مرة أراقب الامتحانات في معهد الليسيه مع زميلي الأستاذ فرنسيس العِتْر فأرسلتْ إلينا إدارة الليسيه زجاجتين من البيرة لندفع بهما وَقْدة القيظ ، ثم عزّ عليّ أن أشرب البيرة أمام التلاميذ وفيهم مسلمون ، فشرب العِتْرُ الزجاجتين في نَفَسٍ واحد !

وفي سنة ١٩١٩ زرت الشيخ الجيزاوي مع جماعة من الفرنسيين فعدّ ذلك من الهذيان !

وفي سنة ١٩٣٢ زرت الشيخ المراغي مع جماعة من الفرنسيين فرأى ذلك علامة تفوّق

والمسلم يرى من الأدب مع ربه أن يغطي رأسه عند

الصلاة ، والنصراني يرى من الأدب مع ربه أن يكشف رأسه عند الصلاة

فما هي الحدود الصحيحة لمكارم الأخلاق ؟

ليتني أعرف !

ليتني أعرف !

أتكون للشرق أخلاق وللغرب أخلاق ؟

وهو كذلك !

ولكن أين الشرق ؟ وأين الغرب ؟

أليست مصر من الشرق ؟

بلى ، هي من الشرق

فما بال جماعة من الوزراء لا يقضون سهراتهم إلا في سان جيمس والكونتيننتال ؟

وكيف يتفق أن يكون أعظم ما تغنم الجمارك المصرية من مُكوس الشراب ، وفي مصر شيخٌ عظيم يسمونه شيخ الإسلام ؟

أنا أرجو أن يُنْسِىء الله أجلي حتى أفضح هذا النفاق السمج المقوت

الحقُّ أن مصر لا تزال كما وصفها حافظ إبراهيم في كتاب « ليالي سطيح »

فالمصريون يستبيحون شرب الخمر ، ولكنهم يأنفون من فتح الحانات ، فعليهم الإثم ولغيرهم الغُنم

والعراق أعقل من مصر في هذا الباب

المصريون يشربون الخمر من أيدي الأفاقين الذين تلفظهم بلادهم الشحيحة

أما العراقيون فيشربون الخمر من أيدي ناس هم في الأغلب من نصارى العراق

وقد أخذت درساً عن أحد الواغلين في مصر لن أنساه ما حييت :

دخلت أشرب في إحدى الحانات فلاحظتُ أن الساقي في غاية من الصحو والعافية ، فدعوته إلى كأس فرفض ، وكانت حجته أنه يلتزم الصحو ليراقب الشاربين

أنت تراقبني ، أيها الوغد اللئيم ؟ !

وقد انتفعتُ بهذا الدرس فصدفتُ عن غشيان الحانات منذ ذلك اليوم

والله المسئول أن يحفظني من السفه والحمق فلا أُبدّد مالي في إغناء الحمق والسفهاء

كيف يجوز لي باسم المدنية أن أهين نفسي في مصر أو في العراق ؟

يجب أن أعرف ما أتعرض له من الخطر إذا انتشيتُ

يجب أَن أعرف أَن التفاسف لا ينفعني إذا فتكت بي سَورْةُ الصهباء

يجب أن أتذكر أني قد أُصبح قدوة سيئة لأبنائي إذا ارتضيتُ الأنس بالشراب

يجب أن أوجه نشاطي إلى محاربة الاثم والرجس والغواية والمجون

وما قيمة القلم إن لم أستخدمه في الدعوة إلى الفضيلة لأصل به إلى نعيم الفردوس ؟

وهل نحمل القلم لنعقّ الفضيلة ونفسد أخلاق الناس ؟

هل نحمل القلم لنزيّن البغي والفسوق ؟

إن مياه البحار قد تعجز عن تطهير ما جنيتُ من فتون فليكن من همي أن أحارب الغواية بقلمي عاماً أو عامين لألقى الله بوجه أبيض وقلب سليم

إن فقهاء العراق اتفقوا على أن الخمر لا تحرم إلا إذا عُصِرتْ من العنب وخُمِّرت حتى تقذف بالزَّبد ، وهم يتسامحون فيما استُقْطِرَ من التمر ، وأنا قد جربت المستقطَر من التمر وهو العرَق فوجدته سيئ العواقب ، وقد شربت منه كأسين في إحدى الليالي ثم زرت ليلى فكدت أقتلها لأشرب دمها بمحضر من الرقباء

وليتني فعلتُ لأتشرف بالفضيحة بالعراق !

أعترف بأن ليلى على هدى وأنني على ضلال

ولكن من يردُّني إلى ليلى ؟

لن أرجع إليها بعد اليوم

أنا أرجع إلى ليلى ؟

إيش لون يصير !

لو كانت ليلى من أرباب الوجدان لهجرتْ فراشها في
هذه اللحظة وجمحتْ إلى فراشي

لو كانت ليلى من أصحاب القلوب لعزَّ عليها أن أبيت
مؤرَّق الجفن محزون الفؤاد

لو كانت ليلى من أهل الذوق لساءها أَن أُمسي
بلا رفيق ولا أنيس

أنا أبيت في كرب وتبيت ليلى في عافية ؟

سأنتقم ، سأنتقم ، سأنتقم

سأقول في كل أرض إن أنكر الأصوات هو الصوت
الرخيم ، وإن أَبغض الأشياء هو الطَّرف الكحيل

وسأقول إن أَقبح الناس هم اليتامى لأن ليلى يتيمة

سأقول إن أخبث الناس هم الملاح لأن ليلى مليحة

سأقول إن الشجرة الملعونة هي العراق لأن ليلى
في العراق

سأقول إن الأدب نقمة لأن ليلى تعرف أسرار الأدب
الرفيع

سأقتل ليلى قتلاً

وسيعلم آل ليلى كيف يدوّي صوتي في العراق

و إني لواثقٌ بأنْ لن تنوح حمامةٌ بعد اليوم إلا و قد
سرقتْ نُواحي ، ولن يطغَى الفرات إلا غَضباً لشكايتي
و بلائي

ستعرف الشقية كيف أَجزيها لُؤماً بلؤم ، و إيذاءً
بإيذاء

سألقاك يا ليلى في كل حين

سألقاك حين تطلع الشمس ، وحين يُشرِق الزهر ،
وحين يفيض الفرات

سألقاك في هطول الأمطار ، وهبوب الرياح ، وهجوم
القيظ

سألقاك حين تبسمين ، وحين تعبسين

سأكون أقرب إليك من خيال العمل السيء في ذهن
الآثم المرتاب

سأطوّقك بطوق من حديد وفُتون كما طوقتني

بطوقٍ من حريرٍ وجُحود

أستغفر الله والحب

فلن أقف يا ليلى إلا حيث تحبين

سأقضي دهري كله في الطواف حول ذكرياتك الغالية

وسأذكر الليلة التي اختفينا فيها من القمرْ تحت

الأشجار البواسق

سأذكر ماتخوفتِ يا شقيةُ أن أنساه

سأذكر أنك دعوتني إلى أن أفتضح في هواكِ

النبيل

وليتني افتضحت ، ليتني افتضحت ! !

آه ، ثم آه

لو كنتُ أعلم أن آخر عهدكمْ

يومُ «العتابِ» فعلتُ ما لم أفعلِ

والحمد لله على أنْ لم أفعل ، فسُمعتك هي أثمن

ما أحرص عليه في حياتي

ليلى ، أحبكِ وأهواكِ ، فاذكريني بالشعر والدمع يوم أموت

* * *

انتصف الليل ، ولم يَعُد لي في زيارة ليلى أملٌ ولا رجاء

وسأرجع إلى مصر — حيّا الله مصر — لأُعاقر الحب مع ليلى المريضة في الزمالك

ولكن ما الذي أرجوه من ليلى المريضة في الزمالك ؟

سأعود إليها جسماً بلا روح ، وما الفائدة من جسم بلا روح !

وهل أضمن السعادة مع ليلى المريضة في الزمالك ؟

لي مع تلك الشقية تاريخ وتواريخ

ولو كان لي بَخْتٌ لما قضت الأقدار بأن أستجير من الرمضاء بالنار فأنتقل من هوى ليلى المريضة بالعراق إلى هوى ليلى المريضة بالزمالك

إن ليلى المريضة بالعراق تصدّق فيّ التُّهم الصحائح ،

أما ليلى المريضة في الزمالك فتصدّق فيّ التهم الكواذب

ليلى المريضة في العراق تذكر جميع حسناتي وبعض سيئاتي

أما ليلى المريضة في الزمالك فتذكر جميع سيئاتي ولا تذكر بعض حسناتي

زرتها مرة في ليلة عيد الميلاد فقالت : وهل نحن من النصارى حتى تختصني بالزيارة في ليلة عيد الميلاد ؟

فقلت : لذلك معنًى يا معبودتي

فقالت : وما معنى ذلك ؟

فقلت : جئت لزيارتك في ليلة مولد الرسول الذي أحاطت به الشبهات يوم وُلد وأحاطت به الشبهات يوم مات ، إن عيسى يا معبودتي الغالية استقبل الدنيا بالكدر والغم ، ثم ودع الدنيا بالكدر والغم ، وقضى عمره كله في كدر وغمّ ، ومصير عيسى في دنياه هو الشاهد على أن غدر الأصدقاء سِمةٌ أصيلة من سِمات الوجود ، ولولا غدر الصديق لما اتفق لعيسى أن يفارق دنياه وهو مصلوب

فقالت : وهل ترى أن عيسى مات مصلوباً ؟

فقلت : مات عيسى مصلوباً في رؤية العين ثم رفعه الله ، وأنا عندكِ مصلوبٌ بفضل الوشايات وسيرفعني الله

فقالت : وترى منزلتك كمنزلة الأنبياء ؟

فقلت : أنا أحوج إلى كرم الله من الأنبياء : لأنهم أقوياء بفضل النبوّة ، وأنا ضعيف بفضل الحب

فقالت : وهل الحبُّ ضَعف ؟

فقلت : وأين مظاهر الضعف إن لم تتوفر في رجل عارم تذلّه امرأةٌ مكسَّرةُ الجفون ؟

وما كدت أَنطق بهذه الكلمات حتى مدّت الشقية يدها فلطمتني

وأَسرعتُ فقبضتُ على يدها وقبلتها عشر مرات

وأنا رجلٌ يخافه الأسُود ويطمع فيه الملاح

* * *

سأرجع صاغراً إلى ليلى المريضة في الزمالك بعد أَن أَهانتني ليلى المريضة في العراق

ومن يدري فلعل ليلى المريضة في الزمالك تصهر روحي

بفضل ما نسمع فيّ من الوشايات فأصير كالمسيح عليه السلام ،
المسيح الذي أسرف في الدعوة إلى الصفح والغفران

وهل دعا المسيح إلى الصفح والغفران إلا بفضل
ما عانَى من أراجيف الناس وظُلم الناس ؟

سأرجع إلى ليلى المريضة في الزمالك ، وأمري إلى الله
لا إلى الهوى

سأرجع إلى شارع فؤاد الذي يَعْبُر الزمالك مرةً ،
ويعبرُ النيل مرتين

سأرجع إلى مصر التي تتأنق في صياغة الغدر والجحود

سأرجع إلى مصر لأعرف كيف تكون وَقدةُ الشوق
إلى العراق

فياليت شعري متى يعرفني أهل مصر ، ومتى يعرفني
أهل العراق

إلى الله أشكو لُؤمَ دهري وَصرفَهُ
وعند الاله البَرّ أُودِعُ حوبائي

٣١

أفي الحق أن ما بيني وبين ليلى انتهى بالقطيعة ؟

هو ذلك ، فكيف أخادع نفسي بانتظار الصفح الجميل !

آفة الآفات في عامي هـذا هي العزلة التي اخترتها لنفسي منذ أول يوم دخلت فيـه بغداد ، وقد أصبحت هذه العزلة طبيعة ثانية لا يمكن منها الخلاص

وقد درست نفسي مرات كثيرة حين أتصل بالنـاس فرأيتني لا أستفيد ولا أفيد إلا في قليـل من الأحايين ، وكان ذلك لأني حين ألقى الناس أظل وحدي محبوساً بين أحزاني وأشجاني ، وقد رأيت أن أخفف عن نفسي بعض التخفيف فلم أستطع : لأن ليلى ملأت أقطار ذهني وعقلي بالأفـكار والمعاني . وقصتي معها قصة خطرة قد تجرني إلى الحتف أو تجعلني ملهاة السامرين في القاهرة وبغداد ، والله المسئول أن يقيني شماتة الأعداء والحاسدين

وكان حالي مع ليلى محتملاً بعض الاحتمال إلى أن حلّ شهر حُزيران واشتدت زفرات القيظ ، ففي هذه الأسابيع ظهرت غرائز ليلى واضحةً صريحة : فهي تارةً زهرٌ يتنفّس وتارةً جحيمٌ يتسعَّر . ويظهر أن ليلى أعدتني فتعرفتُ : فأنا تارةً مثال اللطف ، وتارةً مثال العنف

وأنا فيما بيني و بين نفسي أعتب على ليلى أشد العتْب هي تراني عبدها المطيع

وهو كذلك ، وهل السعادة إلا أن يطمع في كرمك من تهواه ؟

ولكنها تنسى أني ضيف ، والضيف مُرهف الاحساس يتألم أحياناً بلا سببٍ مُبين

هل تعرف ليلى بعض ما قاسيتُ من عتابها الأليم يوم زارتني في داري على غير ميعاد ؟

وهل تعرف ليلى أني أكاد أتميز من الغيظ كلما تذكرتُ أن الدهر قد يضنّ بهواني في دارها مرة ثانية ؟

هل تعرف ليلى أننا قد نفترق إلى غير مَعاد ؟

ما هذه القسوة يا محبوبتي الغالية ؟

إن العمر وإن طال قصير ، فكيف نضيّعه في التلوّم والتعتُّب !

* * *

ما لي ولهذا التوسل ؟ إن الصخر أرقّ من قلب ليلى وأعطف

المهمُّ أن لا تضيع هذه الفرصة ، فرصة التعقيب على ما وقع بيني وبين ليلى من خلاف

يجب أن أدوّن بعض ما يجيش في صدري من المعاني ، فمن الحزم أن لا نترك الأفكار تتبخر وتبيد . والأديب الحق هو الذي يقتنص الخواطر عند فوْرة العواطف والأحاسيس

إن هُيامي بليلى هُيامٌ مضيَّع ، فما أحسب الدهر سيسمح بأن نعيش عروسين في مصر أو في العراق ، وما بقي لي من ليلى غير هذه اليقظة الروحية والعقلية التي تُلهب قلمي وبياني ، فمن واجبي أن أسارع إلى تقييد ما يجول في

الخاطر قبل أن يصنع الفراق ما يصنع فيخمدُ روحي ويتعثر قلمي

سنفترق ؟ سنفترق ؟

كيف يكون ذلك وقد تغلغل حبٌ ليلى في شِعاب القلب والروح ؟

وكيف أعيش بعد فراق ليلاي ؟

وكيف يصحّ أن تبحث ليلى فلا تراني وتسأل فلا أُجيب ؟ وهل تسمح يا ربي بذلك ؟

أنا كنتُ السبب في هذه القطيعة الباغية ، ولم تكن أول مرة أجني فيها على نفسي

أنا الذي أثرتُ ليلى ومهدتُ لها السبيل إلى البغي والعدوان والعقوق

كانت ليلى تجلس أمامي جِلسة الأدب والخشوع بطَرفٍ متكسّر وقلبٍ مطلول

وكانت ليلى تعجب لجمودي في بعض الأحيان فتترفق وتتلطف عساها تُدخل الأنس إلى روحي

فهل حفظتُ هذا الجميل ؟

ما حفظتُ شيئاً ، وإنما مضيتُ أعتسف حتى كدرتُ الموارد العِذاب

أُعطيتُ مُلْكاً فلم أُحسن سياستهُ

كذاك من لا يسوس الملك يخلعهُ

أنا المذنب ، فلينتقم مني الحب كيف شاء

* * *

ماذا أريد أن أقول ؟ ماذا أريد ؟

وهل تركتْ لي ليلى عقلاً أعرف به ما أعني ؟

أريد أن أبحث أسباب الخلاف حول الشراب

ولكن ما الموجب لهذه الوسوسة الُخلقية ؟

وهل كنتُ أول من شرب الخمر من المسلمين ؟

يجب أن أعترف بكل شيء رعايةً لليلى وإنصافاً للتاريخ

أنا نشأت نشأة صالحة ، في بيت يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ، وكان أبي رحمه الله من أصحاب الأذواق ، ولكنه لم يشرب الخمر أبداً ، وإن كان عرف أن له خالين

في القاهرة يعاقران الصهباء ، أحدهما من كبار الموظفين ، وثانيهما من كبار المحامين

وفي المدة التي أقمتها بالأزهر الشريف لم أسمع أن من العلماء من يشرب الإثم ، وإن كنت سمعت بعد ذلك أن الأستاذ فلان كان يشرب مع الشاعر فلان ، وكانا من أقطاب الزمان ، فكان الأول إمام العلماء ، وكان الثاني أمير الشعراء

ومنزلنا في سنتريس لم تدخل فيه الخمر ، لأن أبي رحمه الله لم يكن يتصور أن ذلك من الممكنات ، وسيصان منزلنا في سنتريس عن الخمر تكريماً لذلك الروح النبيل

ولن أنسى أني دعوت جماعة من كبار الموظفين لتناول العشاء هناك ، وكان بعضهم من المدمنين ، فلم أقدم إليهم غير الماء القَراح مراعاةً لخاطر أبي طيَّب الله ثراه ونفعني بدعواته الصالحات

وهذه النشأة الطيبة كان لها تأثير فيما صرتُ إليه ، فأنا أشعر بأني سفيهٌ مجرمٌ حين أشرب الخمر ، ومن أجل

ذلك تكثر وساوسي الخُلقية فيما يتصل بهذا المعنى

وقد فكرتُ مرةً في إقامة منزل على شاطىء النيل في سنتريس لأدعو إليه أصدقائي حين أشاء ، ثم خطر بالبال أن ذلك قد يساعد على قضاء بعض الليالي الساهرات ، فأهملت المشروع تكريماً للروح النبيل ، روح الأب العزيز الذي لم يلوّث فاه بلُعاب الخندريس ، وهو أخطر من لُعاب الأفاعي والصِّلال

ولكن الأدب الذي تلقيته عن أَبي لم يعصمني كل العصمة من الزيغ

وكيف أنجو وأنا أعيش في القاهرة ، وفي القرن العشرين ؟

شربتُ الخمر أول مرة بعد أن اجتزت امتحانات الليسانس في العلوم الفلسفية والأدبية سنة ١٩٢١ ، شربتها مع صديق سخيف لا يستحق أن أُغضب من أجله صاحب العزة والجبروت ، شربتها مع مخلوق رقيع يتوهم أن شرب الخمر من علامات المدنية

وأعترف بأني كنتُ أعرق منه في الرقاعة والسخف ، فقد توهمت أني محتاج إلى خلع الصِّبغة الأزهرية لأساير التمدن الحديث . والأزهريّ بين حالين اثنين : الفجور أو العفاف ، ولا يوجد على ظهر الأرض أسخف من الأزهريّ حين يتظرف ويختال

ثم لطف الله بحالي حين وصلت إلى باريس في سنة ١٩٢٧ ، فقد كنت أظن أن من واجب أهل باريس أن يشربوا « الأبيريتيف » وهو شراب ملعون ، ولاحظ ذلك المسيو بلانشو حفظه الله ، فنبهني إلى أن « الأبيريتيف » لا يواظب عليه من أهل باريس غير الأوغاد ، وأن أحرار باريس لا يشربون غير البيرة والنبيذ

والواقع أنه لا يوجد في باريس الماجنة العابثة رجل يشرب معشار ما يشرب الرجل المتظرف في القاهرة أو في بغداد

الرجل الباريسي يطلب نصف كأس من البيرة ، أو نصفين حين يسرف ، ويطلب على المائدة رُبع لِتر من النبيذ ، ولا يتجاوز ذلك إلا الأوباش

أما المتطرفون من أهل مصر والشام والعراق فلهم حساب تضل فيه الملائكة والشياطين

والحقُّ أني مَدينٌ للتصوف الذي خصني به الله في مطلع حياتي ، فأنا لم أقترف كبيرة ولا صغيرة قبل الثلاثين ، وما أذكر أني فرطت في الفرائض أو النوافل قبل الثلاثين ، ولعل هذا هو السبب في أني بقيت شابّ العقل والعاطفة والإحساس بعد الأربعين

ولو أن الله عز شأنه كان تداركني برعايته السامية لحفظ حياتي من جميع الشوائب لكان من الممكن أن تصل مؤلفاتي إلى أعظم مما وصلتْ إليه ، ودليل ذلك أني لم أذق قطرة من الخمر في الأوقات التي ألفت فيها كتاب النثر الفني وكتاب التصوف الاسلامي ، بغض النظر عن العبث الذي كنتُ أقترفهُ في لحظات الفراغ

يضاف إلى هذا أن من رجال العصر الحاضر من وصلوا إلى منزلة سامية في التفكير مع التصوف والعفاف

أمثال مصطفى عبد الرازق ومحمد جاد المولى وعبد المجيد اللبان ومنصور فهمي وأحمد أمين

وقد ألفت كتاب (الأخلاق عند الغزالي) في زمن لا أعرف فيه من المنبهات غير الشاي والبرتقال ، ومع ذلك ظل هذا الكتاب أعظم ما ألفتُ في مطلع شبابي ، وقد انتفع به كثير من الباحثين ، وكان أساساً لكل ما كُتب عن الغزالي بعد ذلك

وهل كان الغزالي يشرب الخمر وهو يؤلف كتاب إحياء علوم الدين ؟

هيهات ، هيهات ! !

إن من المؤكد أن نبي الاسلام لم يشرب الخمر أبداً ، ولم يَفْسُقْ أبداً

ومع هذه الصيانة صلح لتلقي القرآن عند قوم ، ولتأليف القرآن عند قوم

وهو في كلتا الحالتين أعظم العظماء

وهل كان عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب يشربان الخمر وهما من نوادر الرجال ؟

فما هي الشبهة السخيفة التي تجعل الخمر والمجون من علائم العبقرية ؟

إن للخمر فضلاً واحداً هو أنها كدرتْ حياتي ، ولو كان الله نجاني من هذا الأثم لكنت اليوم من كبار الوزراء واستغنيت عن اللجاجة مع ليلى وظمياء

وكيف يطيب العيش بدون ليلى وظمياء ؟

صدق والله شوقي حين قال :

سَيْطَرَ الحبُّ على دنياكمُ كل شيءٍ ماخلا الحبّ عَبَثْ

إن ليلى من همي وإن أنكرتني

أحبك ياليلى ، وليتني أعرف كيف تكونين ساعة الصفاء !

إيش لون يصير !

آه ، ثم آه ، منك ياشقية !

أتعرفين عواقب ماتجنين ؟

أتريدين أن تحوّليني إلى ملَك ؟

وأين أنا من هذا المطلب العالي ؟

أنا مخلوقٌ أرضيٌّ يتسامى إلى معشوقة سماوية ، إن
شاء لك الوفاء أن تكوني سماوية الطباع

أنا الرجل الذي تعرفين : الرجل الذي أهانك بقُبلةٍ
أثيمة في رحاب الكاظمية

لِمَ تنفرين مني ، أيتها الغزالة الدعجاء ؟ لم تنفرين مني
وأنا أثمن ما ملكت يُمناكِ ؟

وما ذنبي حتى أُجازَى بالقطيعة وأنا غريب ؟
أنا غريب ، يا ليلى ، غريب

غريبٌ مفارقٌ سيشرب كأس اللوعة بعد أيام ثم
لا يجد السبيل إلى التداوي برشفة من ماء الفرات

غريب لا يعرف متى يرجع إلى العراق
غريب سيظلُّ في كروب وأشجان إلى أن يغرق في
دجلة أو في النيل

أيؤذيكِ أن أشرب كأساً من الخمر ، ويدي هي التي
عناها جدك الشريف الرضي حين يقول :

فلا عارَ أن تستنجدَ الكأسَ راحةٌ
أضرَّ بهـــا حمل الجراز المصمِّمِ

لم أكن لاهياً ياليلى ، ولو كنتُ لاهياً لما استطعت
أن ألقاك ولي مؤلفات تعدُّ بالعشرات ، ومقالاتٌ ورسائل
تعدُّ بالمئات أو بالألوف

أنتِ التي تنكرين الكأس ؟

آمنت بالله وكفرتُ بالحب !

وما عسى أن تكون الكأس بجانب ما شربتُ من
عينيك الناعستين ؟

ألا تذكرين ؟ ألا تذكرين ؟

ألا تذكرين يا لئيمة ما صنعتِ بقلبي يوم التقينا
بالكرادة الشرقية ؟

ألا تذكرين يوم غضبتُ عليك أمام خالتك الرفيقة ،
فلما عاتبتكِ على مكايدتي قلتِ بعنفٍ وغطرسة « خلّيه يولّي »

أَنا أُوَلّي ؟ أَنا ؟ أَنا أُوَلّي يا ليلى ؟ وإلى أَين وقد
صيرتِ الدنيا أَمام عينيّ أَضيق من سُمّ الخِياط ؟

ستعرفين عواقب ذلك يا شقية يوم تيأسين من رجوعي
إلى العراق

بأي حق يجوز لكِ أَيتها الآثمة الجانية أن تقتليني
بعينيك الناعستين وأنا غريب ؟

غريبٌ دعاه الشوق واقتاده الهوى
كما قِيدَ عَوْدٌ بالزمام أديبُ

ليلى . اسمعي يا ليلى

كان هُيامي بسحرك الغلاب من أغرب ما أضمرت
الأقدار لسفير العُروبة المصرية في العراق كما وصفتني
جرائد لبنان

وحسبي من الشرف أن أكون
« سفير العروبة المصرية في العراق »

حضرة الاستاذ الفاضل الدكتور الزكي المبارك

انت الزكي الذي لم	يشق شهم غبارك
فقت الانام بخلق	بمثله لم تشارك
باركت في الخلق ثوبا	من لطفه قد اعارك
ان عز بالناس جار	فانت اعززت جارك
وان تبارك نفسا	انت الزكي مبارك

سلام اسنى وتحياة حسنى لك مني ايها الاخ الذي احببته والله قبل ان اراه وكنت امني نفسي بملاقاته والحمد لله على تلك الصدفة الطيبة التي حققت مناي لما التقيت بالاخ الاستاذ وجدت فيه الضالة في الصديق المنشود وعلى ان تلك الجلسة وان لم تطل فقد كشفت لي عن نفسية الاستاذ التي تشف عن لطفها ذلك المحيا الرقيق

اني زرتك مرتين في النزل فوجدتك مستريحا نائما فلم احب ازعاجك كيف وانا اتمنى لك كل راحة وهناء والذنب مني لاني زرتكم في الساعة الثالثة بينما كان وعدكم في الخامسة التي كنت فيها مشغولا.

لعلي الاقيك عن قريب ان شاء الله واسألك عن ليالي بغداد اين هي من ليالي سنتريس او ليالي باريس وعلى كل فاني ارجو لك ان تكون مستريحا ناعم البال هادئ الحواس بالرغم اذا هيئت لك شقة منزل تنقلك من تاكسي بالاس وعن ضوضائه وغلاء اثمانه ورخص مثواه.

وعلى اي حال فالامل اني اذا زرتك للمرة الثانية اجدك مستيقظا بعد الظهر مرحبا نومتك الى الليل زادك الله هناء وراحة وسلام لك ايها الاخ وللدكتور عقراوي وارجوه ان يسمعك قصيدتي في اطباء العراق فانه معجب بها وستعجبك ايضا ودم بخير لاخيك المخلص

٣٢

ظهر كتاب (عبقرية الشريف الرضي) منذ أسابيع ، وقد استقبله العراقيون أكرم استقبال

وكان الفراغ من تأليف هذا الكتاب وطبعه فرصةً للراحة والاستجمام ، وأين يستجمُّ مثلي ويستريح ؟ إن بغداد ضيقة وليلى تبث حولي العيون والأرصاد ، فلم يبق إلا الطواف بأروقة وزارة المعارف لمناوشة مَن هناك من الموظفين أمثال السادة محمد حسين الشبيبي ومحمد بهجة الأثري وسلمان الصفواني ومحمد صادق الوكيل ومن يختلف إليهم من حملة الأقلام في بغداد

أما السيد محمد حسين الشبيبي فقد أَلِفته مدة ثم صدفتُ ، لأنه كان يريد أن يَهَبَني داراً أُقيم بها في الكرادة الشرقية ، وذلك باب من الكرم واللطف ، ولكني خشيتُ أن يكون أراد إبعادي عن ظمياء

وأما السيد محمد بهجة الأثري فكان حالي معه من الأعاجيب : كان جِنّيًّا يراني ولا أَراه ! وتعليل ذلك سهل : فقد كانت حجرته مظلمة وكانت نوافذها مغطاةً بشبكات من الأســـلاك « ومَن في النور لا يرى من في الظلام » وكذلك كان يراني حين أَمرّ بالدهليز ولا أراه فيدعوني حين يشاء، ويتناساني حين يشاء . وأغلب الظن أنه لا يدعوني إلا حين يشتاق إلى من يفهم أسرار البلاغة في قصائده الجياد

لم يبق إلا مكتب السيد سلمان الصفواني ، وقد انجذبتْ إليه نفسي كل الانجذاب ، والأشرار يأنس بعضهم إلى بعض

يضاف إلى ذلك أن السيد صادق الوكيل كان يجاور الصفواني . وصادق الوكيل شابٌّ مهذّب ، ولا يعاب عليه إلا جاذبية خفيفة توجب أن يتطلع القلب إلى لقائه من حين إلى حين

* * *

أنا أذهب إلى وزارة المعارف كل يوم لأرى هؤلاء الرفاق ، ولأتناول الغداء مع صادق الوكيل حين يجوع ، وهو يجوع في كل وقت

والحق أن صادق الوكيل تحفة ، وهو نموذج للصديق النافع : فهو يحضر كل ما يهمني الاطلاع عليه من نادر المؤلفات ، وينسخ أو يستنسخ ما أحتاج إليه من الوثائق والأسانيد

وأُنسي بأولئك الرفاق الأوفياء كان نعمة ساقتها إليّ المقادير ، فلولا الأنس بهم لقتلتني الوحشة من غضب ليلى ، ليلى التي تغضب من كل شيء ولا ترضى عن شيء

أحبك يا ليلى ، أحبك يا غادرة ، أُحبك يا ظلوم

* * *

زاد أُنسي بوزارة المعارف ، وأصبح لي فيها أصدقاء يتطلعون إلى لقائي في كل صباح

ولكن ما بال وزارة المعارف تُفزِعني في هذا اليوم ؟

دخلتُ في الساعة العاشرة فوجدتُ جماعة من طلبة الحقوق متجمهرين أمام حُجرة الوزير ، وما كادوا يلمحونني حتى سارعوا إليّ غاضبين صاخبين

وما شأني بطلبة الحقوق ؟

ما شأني ! ألم يكونوا يرونني كل يوم مع أساتذة كلية الحقوق ؟

ابتدرني أحدهم فقال : هل تتحمل الحكومة المصرية تَبعة أعمال محمود عزمي ؟

فقلت : إن الحكومة المصرية لم ترسل إليكم الأستاذ محمود عزمي وإنما اختارته حكومة العراق لأنه كان ولا يزال من أصدقاء العراق

وصاح طالب آخر : هل تظن أن محمود عزمي سيجدّد عقده ليرجع في العام المقبل ؟

فقلت : ذلك في ضمير الغيب . وما كنت أنتظر أن أسمع مثل هذا الاستفهام الطريف !

وصرخ طالب ثالث : هل يجوز للأستاذ أن يُفهم

تلاميذه أثناء تأدية الامتحان أنهم سيرسبون في الامتحان ؟

فقلت : هذا غير معقول

فقالوا : هذا ما صنعه سيف

فقلت : اسمحوا لي أن أتهمكم بالتزيد ، فما يستطيع الدكتور سيف أن يقع في مثل هذا الغلط

فقالوا : عندنا شهود

وبعد نقاشٍ دام بيني وبينهم بضع دقائق تخلصتُ منهم وانصرفت

* * *

يظهر أن محمود عزمي مُقبلٌ على أخطار ، فما هو تاريخ هذا الرجل في العراق ؟

إن ذهني مشرّدٌ في هذه الأيام ، وحوادث هذا اليوم آذت أعصابي ، وزادتني تعباً إلى تعب ، وقد فكرتُ في مقابلة معالي الأستاذ الشبيبي بعد النقاش الذي دار بيني وبين طلبة الحقوق ، ولكني لم أعرف بالضبط ماذا يجب أن أقولُ ، فأمثال هذه البدَوات ليست غريبة من الطلاب ،

وهي تقع في مصر كما تقع في العراق ، ولعلها تنتهي بسلام

يهمني أن أدوّن في هـذه المذكرات كلمة عن حياة محمود عزمي في العراق

ولـكن هل تسعفني الذاكرة بما أريد ؟

لقـد انقضت الأشهر الماضية والدنيا تموج بالحقائق والأباطيل ، ومع ذلك كان اسم مصر يعطّر الأندية والمجالس في سائر أرجاء العراق

ونحن في اليوم التـاسع عشر من شهر حُزَيْرَان وسنرجع إلى مصر في اليوم الثـالث والعشرين ، فليس أمامنا للاقامة في بغداد غير ثلاثة أيام ، ثم لا يكون بيننـا و بين أهل العراق غير الذكرى

على أني مطمئنٌّ إلى حُسن الخاتمـة ، فالطلبة الذين يثورون اليوم كانوا منذ أشهر أمثلةً من الأدب والذوق ، وكانوا يحيطون عزمي وسيف بأصدق عواطف التبجيل ، و إني لواثقٌ بأن كلمةً لطيفةً يفوه بها أحـد الأسـاتذة تكفي لتهدئة هذه الثورة العَصُوف

وشواهد ذلك تحت يدي ، فقد شكا إليَّ جماعةٌ من الطلبة بعضَّ ماساءهم من محمود عزمي ، ودعوني للتوسط ، فأشرت عليهم بأن يتوجهوا إليه بلا وسيط ، وكان ما رجوتُ أن يكون ، فقد استطاع محمود عزمي بلطفه ولباقته أن يستلّ من صدورهم دفائن الغضب والغيظ ، وهو رجل معسول الحديث

أنا مطمئنٌّ إلى حُسن الخاتمة ، ولكن مظاهرة الطلبة بوزارة المعارف قد تتكرر وقد تكون لها عواقب : فهم يعيشون في جحيم القرن العشرين وهم يسمعون أن مصاير الكليات في مصر ليست في أيدي الأساتذة وإنما هي في أيدي الطلاب

ولا يخيفني إلا هذه الأيام القصار ، الأيام الثلاثة التي بقيتْ من أيامنا الطوال في بغداد ، أما العام المقبل فهو في ضمان الله ، ولن يظلّ الطلبة غاضبين ، فستجدُّ لهم في الصيف شؤون تنسيهم متاعب السنة الدراسية ، وسيذكرون أساتذتهم بالخير حين يتمثلون ما كان بينهم

وبين أساتذتهم من معاني المودة والعطف ، وهم على كل حال قريبو عهد بحياة الطفولة البريئة التي لا تتأصل في صدرها الضغائن والحقود

وأين الطالب الذي قُدَّ قلبه من الصخر فلا يذكر ما عانى أساتذته في تربيته وتثقيفه ؟

لقد وقع لي مع الأستاذ إسماعيل بك رأفت رحمه الله حادثٌ يشبه هذه الحوادث ، فقد كان أسقطني في امتحانات الجغرافيا ووصف الشعوب مرتين حين كنت طالباً بالجامعة المصرية ، وحملني الغضب والغيظ على أن أؤلف كتاباً في ثلبه وتجريحه ، ثم هدأت نفسي حين تذكرت أنه لم يكن يريد غير الخير ، فرجعت عن غيي وطويت الكتاب ، وكنتُ أصدَق من بكى عليه ورثاه يوم مات

ومحمود عزمي في هذه الأيام وصل إلى حال تشبه أحوال المساكين ، فقد هدَّه التعب وظهرت عليه الشيخوخة حتى ليكاد يُنكره من يراه ، فمن البعيد أن لا يذكر تلاميذه

أَن الأدب يوجب أن ينظروا إليه بعين العطف والرفق

أنا مطمئنٌّ إلى حُسن الخاتمة ، ولـكني مع ذلك قَلقٌ مُرتاع

* * *

أحب أن أَكتب كلمة عن تاريخ محمود عزمي في العراق ، كلمة قصيرة في حدود ما يسمح به هـذا الجوُّ القائظ الذي يفرض على الحمائم أن تنوح صباحَ مساء

والله يعلم أني أكتب ما أكتب وأنا مكروبٌ مكدود : فما ساغ لي طعامٌ ولا شرابٌ منذ يومين ، وإن كنت أَلقى إخواني في بغـداد بوجهٍ ضاحكٍ جَذْلانَ ، ولعل همومي تخفّ أو تزول حين نَسمُرُ في مساء الغد بمنزل الدكتور الجمالي ، فسيكون معنا الدكتور عزمي ، و قد تسنح الفرصة للمداولة في حلّ المشكلات التي تعترض طلبة الحقوق فيغمر السلام ما بقي من أَيامنا في بغداد

* * *

أحب أَن أَقول كلمة عن حياة محمود عزمي في العراق ،

كلمة قصيرة يوجبها نظام هـذه المذكرات ، وهي تشرح بعض الشرح ما أَدَّى إلى حوادث هـذا اليوم ، فلـكل نتيجة مقدمات

ولـكن ما الموجب لعناء الـكتابة في هذا القيظ ؟

ومن الذي يطالبني بذلك ؟

وما قيمة السُّخف الذي يسمونه التاريخ ؟

أَفي الحق أَن الإِنسـانية تستفيد من تقييد الحوادث التاريخية ؟

لو كان ذلك ينفع كما يزعم الزاعمون لما تكررت مآسي التـاريخ

ولـكن هل أَكون أول عاقل في الوجود ؟

لو كنت عاقلاً لبدأت بنفسي فجنّبتُها مكاره الحب ، ولو أني فعلتُ لنجوتُ من بلايا كثيرة أخفُّها ألم المرارة الذي يعاودني من حين إلى حين بفضل ما عانيت من اللواعج والشجون

إن ضياع الوقت في تاريخ محمود عزمي في العراق قد

ينفع بعض النفع ، فهو سيشغلني ساعة أو ساعتين عن التفكير في مصيري مع ليلاي ، ليلايَ التي تقضي هذه الساعة القائظة في هُجودٍ مُريح بعد تناول غدائها الخفيف من الفاكهة واللبن المثلوج

ومن المؤكد أنها تنام الآن بلا شِعار ولا غطاء ، وهي أحلَى ما تكون حين تُسلم نفسها عاريةً إلى سريرها الأمين

لو كنت أراها في هذه اللحظة !

لو كنت أخرج فأطير إليها لأرى كيف تُناغي الأحلامَ في هذا الوقت ! إيش لون يصير !

يا لئيمة ، ماذا تريدين مني ؟

أَعْفي خيالي من ذكراك لحظةً واحدةً لأدوّن هذا التاريخ

أُخرُجي من دنياي لحظة واحدة لأرى أن في الدنيا أشياء غير لواعج الصبابة والحب

أتركيني لحظةً أو لحظتين

إرحميني ، يا ليـلى ، فلي في دنياي همومٌ غير هموم الصبابة والحب

ليلى ، ليلاي

كيف تكونين في هذه اللحظة ؟

أنا أعرف كيف تكونين ، وأكاد أُقبّل الطلائع من صدركِ الجميل

* * *

ما هو تاريخ محمود عزمي في العراق ؟

في مطلع الربيع من السنة الماضية دعانا الأستاذ محمد علي الطاهر إلى حفلة شاي لمصافحة الأستاذ محمود عزمي قبل رحيله إلى العراق ، وكانت حفلة خفيفة الروح تبادلنا فيها الـكلمات الطيبات ، وألقى الأستاذ إبراهيم الدباغ خطاباً قال فيه « إن الأسـتاذ محمود عزمي متهمٌ بضعف العقيدة وليت المؤمنين كانوا في أخلاق هـذا الملحد الذي يعرف كيف يواسي إخوانه حين تجب المواساة »

وخطبت أنا أيضاً ولكني لا أذكر ماقلت يومذاك ،

ولما وقف محمود عزمي ليلقي كلمته علّق على عبارة رُقِشَتْ في صدر بطاقة الدعوة وهي « لا خُطب ولا قصائد » « فترجمها إلى الفرنسية بعبارة :

NI FLEURES , NI COURONNES

وقد ابتسم الحاضرون لهذه العبارة ، أَما أنا فقد تشاءمتُ لأن هذه العبارة في أصلها الفرنسي كانت تُكتب في ورقة إعلام الوفاة ، الإعلام الذي يرسله أهل الميت إلى المعارف والأصدقاء ، وما أنكر أن هذه العبارة تطورتْ فصار يراد بها الدعوة إلى رفع التكليف ، ولكنها مع ذلك وقعتْ من نفسي أسوأ موقع وقد خِفتُ أن تكون نذيراً بموت محمود عزمي في بغداد

وبعد انصراف المدعوين جلس بعض الاخوان يَسْمرُون ، ودار الحديث حول ما يُنتظَر أن يصير إليه محمود عزمي في العراق ، واتفقت كلمتنا على أن محمود عزمي رجلٌ يمتاز بثقافة واسعة وتفكير دقيق ، ولكن ماضيه في حياته الأدبية والسياسية يشهد بأنه في احتياج إلى أن

يُرزَق حُبّ العُكوف على عمل واحد والبعد عن مناوشات الأحزاب

وفي صباح اليوم التالي نشر الأستاذ أحمد الصاوي كلمةً في جريدة الاهرام أشاد فيها بفضل العراق ، وأعلن أسفه الموجع على أن تضيق مصر في وجه رجل مثل الدكتور محمود عزمي ، ثم حمد الله على أن يكون لأمثاله مجالٌ في خدمة العراق

***

دخلتُ بغداد في صباح اليوم الثالث والعشرين من تشرين الأول ، ومضيتُ فسلمتُ على معالي وزير المعارف وفخامة رئيس الوزراء وقيدت اسمي في قصر جلالة الملك ، وانطلقتُ فألقيت الدرس الأول بدار المعلمين العالية ، وكنت لا أزال بغبار الطريق ، ورجعت إلى الفندق فاسترحت قليلا ، ثم أخذت عربة وذهبت إلي جريدة البلاد لأسأل عن مقر الأستاذ محمود عزمي فطلبه السيد

زعرور بالتليفون ، وكانت دهشتي عظيمة حين عرفتُ أنه يقيم بالفندق الذي نزلت فيه

فرحتُ جدًّا بلقاء الأستاذ محمود عزمي ، فنحن أصدقاء برغم ما كان وقع بيني وبينه في باريس ، وتفضل فدعاني للعَشاء

ثم دار الحديث ونحن على المائدة فعرفت أن مركز الأساتذة المصريين في العراق كان تعرّض للعواصف في السنة الماضية بسبب مناوشة صحفية ثارت حول الدكتور علي عبد الواحد الذي انتُدِب من الجامعة المصرية مفتّشاً للغة العربية بمدارس العراق

وأصل الحكاية أن أحد المدرسين السوريين سمع من الدكتور علي عبد الواحد ما لا يرضيه فهجم عليه ذلك المدرسُ في إحدى الجرائد وادّعى أنه خالٍ من المؤهلات العلمية وأنه في مصر من النَّكِرات

ومن الواضح أَن مثل هذا الهجوم لا يقوم على أساس ، وما كان يمكن أن يَلتفت إليه أحدٌ من أهل

العراق ، ولكن الدكتور علي عبد الواحد ضعيف الأعصاب إلى حدٍّ مُزعج ، وقد اشتجرتُ معه مرةً يوم كنا طالبَيْن في جامعة باريس ، ولولا لطف الله لتضاربنا علانيةً في أحد المطاعم ، ومَن كان في مثل هذه الحال من ضعف الأعصاب لا يبعد أن يقع منه ما وقع ، فقد ساءه أن يُشتم في جريدة عراقية فامتطى طيارة ورجع إلى مصر بدون أن يستأذن رؤساه في بغداد

وفهمتُ من الأستاذ محمود عزمي أن مشكلة الأستاذ علي عبد الواحد لم تكن المشكلة الوحيدة التي صادفت المصريين في بغداد ، فهناك أستاذٌ ثانٍ ترك عمله قبل أن تنتهي السنة الدراسية ، وهو الأستاذ عبده حسن الزيات ، وأستاذٌ ثالث وقع بينه وبين بعض رجال المعارف خلاف ، وتحدثتْ عنه بعض صحف بغداد بما لا يحب فترك عمله في العراق قبل أن تنتهي مدة العَقد

وقد آذاني ما سمعتُ فقضيتُ أول ليلة في بغداد وأنا محزون

* * *

وفي صباح اليوم التالي حضر لتحيتي شابٌ يراسل السياسة الأسبوعية هو السيد فخري شهاب ، وهو من المعجبين بالأستاذ محمود عزمي كل الإعجاب ، وقد قصَّ عليَّ نادرةً يحسُنُ تدوينها في هذه المذكرات ، لأن لها نظائر سأُشير إليها فيما بَعد

حدثني أن الأستاذ عزمي دخل إحدى المدارس فقال للتلاميذ : هل تعرفون أن اختلاف السُّنة والشيعة أَضرَّ بالعراق ؟

قالوا : نعم

فقال : وكيف السبيل إلى الخلاص ؟

قالوا : ذلك داءٌ حار فيه الأطباء

فقال : الداء يرجع إلى الأساس الذي قام عليه هذا الخلاف

قالوا : وما هو ذلك الأساس ؟

فقال : هو الاسلام ، ولو خرج العراقيون من دينهم ورجعوا إلى الفطرة لزالت أَسباب هذا الخلاف

قال الراوي : فتدخّل مدرّس الديانة باللوم والاعتراض ، وكان لهذه المحاورة صدًى في أَندية بغداد

* * *

والحكاية غريبة ولكن وقوعها من الأستاذ عزمي غير مستحيل

فلهذا الرجل سوابق من هذا النوع ، وهو الكاتب الوحيد الذي اعترض على أن يُنصّ في الدستور على أن دين الدولة المصرية هو الاسلام ، وكان يسميه « النص المشئوم » في كلمات نشرها بجريدة الاهرام وجريدة الاستقلال

وهناك سابقة ثالثة وقعت منه يوم كنا في باريس ، فقد أثنى عليه الدكتور بشر فارس في أحد المحافل وقال : إنه يريد أن يكون الاسلام إسلاماً ، فاعترض الأستاذ عزمي قائلا : أنا ما يهمني أن يكون الاسلام إسلاماً !

والواقع أن الأستاذ عزمي صحيح العقيدة وإسلامه غير ضعيف ، ولكن بعض خصومه أسرفوا في اتهامه

بالزندقة والالحاد ، فقابل الاسراف بالاسراف ولسانُ حاله يقول : لكم دِينكم ولِيَ دين

وهذا الصِّنف من المثقفين كثير الوجود ، وهو يحتمَل في كثير من الأحيان ، لأنه في الواقع لا يكفر بالله وإنما يثور على أوهام الناس

ولكن من يظن أن هذه البدَوات العقلية تمرُّ بلا جزاء في كل مكان ؟

إن أهل العراق كسائر المسلمين لا يُرضيهم أن يتعرض إنسان بسوءٍ لأُصول الدين الحنيف

لم يكن عزمي أول من أشار بالارتداد عن الاسلام لتنقية الفطرة من أوهام المخرِّفين من أتباع الدين ، فقد سبقه إلى ذلك الأستاذ محمد فريد وجدي ، ولكن فريد وجدي يُقبَل منه كل شيء ، لأنه قضى حياته في الدفاع عن الشريعة الاسلامية ، أما محمود عزمي فرجلٌ يعلن أن إيمانه مقصور على الحقائق التي يؤيدها العلم الحديث ، ومن أجل هذا يقع هجومه على الاسلام موقعاً غير مقبول

رأيت من واجبي أن أتصل بالمصريين المقيمين في العراق عسانا نتعاون على تبديد الشبهات التي خلقتها حوادث السنة الماضية ، فكنتُ أزور زملائي بكلية الحقوق في كل يوم ، وساعدني على ذلك أنْ كانت كلية الحقوق بجوار دار المعلمين العالية ، وأنْ كانت هيئة التدريس مكوّنة من مصريين وعراقيين على جانب عظيم من أدب النفس ، فمن المصريين الأستاذ محمود عزمي وهو في قلبي صديقٌ محبوب وقد طوّق عنقي بجميل لا أنساه وهو الخطاب الذي ألقاه في الحفلة التي أقيمت لتكريمي في بغداد ، ومنهم الأستاذ محمود سعد الدين الشريف ، وهو شابٌّ حُلْو الشمائل طاهر القلب ، ومنهم الأستاذ حسن سيف أبو السعود وهو فتًى عذب الحديث لا تفوته النكتة الاسكندرانية ، ومنهم الأستاذ أحمد فهمي وهو إنسانٌ راجح العقل ، ومنهم الأستاذ عبد العزيز محمد وهو مثالٌ عالٍ من التكوين الفقهي ، وقد ظلَّ مرضيًّا عنه إلى آخر لحظة قضاها في بغداد

ومن العراقيين الأستاذ منير القاضي وهو من عيون أهل الفضل في الحياة الفقهية، والأستاذ مكّي الأورفه لي وهو رجلٌ سَمْحٌ ولأسرته مكانٌ مرموقٌ في بغداد

* * *

ولتنسُّم الهواء في هذه البيئة العلمية كنتُ أزور كلية الحقوق في كل يوم بعد أن تنتهي دروسي بدار المعلمين العالية

وفي خلال ذلك كانت تقع بيني وبين الأستاذ عزمي مداعبات في الأندية والمحافل يتناقلها السامرون من أهل العراق (١)

ونشط الأساتذة المصريون فزحموا المطابع بأطايب المؤلفات وأصبح نشاطهم مضرب الأمثال

وما حان موعد العطلة الربيعية حتى كان المصريون استردُّوا ما كان ضاع منهم في السنة الماضية ، وحتى كان محمود عزمي في طليعة الموفّقين بفضل انقطاعه لأعمال كلية

(١) تجد شواهد هذه الداعبات في كتاب « وحي بغداد »

الحقوق وعُكوفه على الواجب صباحَ مساء ، وهذا الرجل إذا انقطع لعملٍ بَلغَ من الاجادة فيه أبعد الحدود

* * *

وبحلول العطلة الربيعية بدأت المتاعب

سافر محمود عزمي إلى مصر وكنتُ اتفقتُ معه على أَن يبقى في العراق ليقيَ نفسه شرَّ ما في مصر من فتن سياسية ، وليته سمع نُصح الصديق

وما كان عليه من عيب في أن يسافر إلى مصر ، فقد كنتُ أنا أيضاً أحب أن أَقضي تلك الإجازة بين أهلي ، لولا انشغالي بالمؤتمر الطبي العربي الذي عُقد في بغداد ليعينني على مداواة ليلى المريضة في العراق

ما كان على محمود عزمي من عيب في أن يقضي العُطلة الربيعية في مصر ، ولكني سمعت بأذنيَّ تعليقات تحدث بها أهل بغداد ، وهم في الأغلب لا يتحدثون مازحين ، فقد قيل إن محمود عزمي سافر إلى مصر ليجسّ النبض ، أي نبض ؟ نبض الحكومة الجديدة التي أُلِّفتْ بعد إقالة

الحكومة النحاسية ، ومعنى ذلك أنه يريد أن يبحث عن عمل في الحكومة المصرية يغنيه عن العمل بحكومة العراق

وقد قوّى هذه الشبهة أن المجلات المصرية أخذت تتحدث عن منصب قيل إنه سيُسنَد إلى الأستاذ محمود عزمي وهو رياسة قلم المطبوعات

ومن حق الأستاذ محمود عزمي أن يعيَّن في الحكومة المصرية بعد أن أصبح أقطابها من أصدقائه القدماء ، ولكن أهل العراق يؤذيهم أن لا يعرفهم الناس إلا في أيام البؤس ، فقد كان حين استقدموه للعمل بالعراق مغضوباً عليه من الحكومة المصرية لذلك العهد

* * *

وقد رجع محمود عزمي إلى العراق ، ولكن كيف ؟ رجع وفي يده ثلاث نسخ من أول عدد من جريدة الدستور وفيه مقالٌ بقلمه الرشيق ، وكان معنى ذلك عند أهل بغداد أنه سيتركهم بعد أيام

* * *

وهناك مسلك لم يسترح إليه العراقيون وإن جهله محمود عزمي ، فقد كان بغريزته السياسية — وهي غريزة تأصلت فيه — كان بتلك الغريزة مشغوفاً بحضور جلسات مجلس النواب العراقي ، وكانت تلك الجلسات مثاراً للجدال والصيال من حين إلى حين ، وكان محمود عزمي يستبيح التعليق على ما يدور في تلك الجلسات ، يستبيحه علانيةً في الأندية والمعاهد ، وكان يُوهِم محدثيه بأنه على اتصال بالمقامات السياسية العالية !

وهذا المسلك يراه العراقيون من الفضول ، فهؤلاء الرجال يحبون أن يعتمدوا على الأساتذة المصريين في توجيه الدراسات العلمية والأدبية ، ولكنهم يكرهون من يتدخل في شؤونهم السياسية . وقد أشار الأستاذ سامي الكيالي في مجلة الحديث إلى أن الأساتذة السوريين لن يطول بقاؤهم في العراق إلا إذا انصرفوا انصرافاً تاماً عن التدخل في الشؤون السياسية وعرفوا أنهم يُستَقدَمون لعمل أنفع من خدمة الأحزاب

* * *

يضاف إلى هذا أن نجاح محمود عزمي في العراق سهّل عليه أن يمزح كيف يشاء ، وفي العراقيين شيء كثيرٌ من حدّة الطبع ، وقد يرون في المزاح شيئاً من السخرية فيغضبون

وهو نفسه قد حدثني أنه كلّف أحد طلبة الحقوق بدرس من دروس التمرين ، فلما وقف الطالب يتكلم لاحظ عليه أنه يؤدّي مخارج الحروف تأدية قوية فيغنُّ ويمدُّ ويفخّم ويرقّق وفقاً لأصول التجويد ، فابتسم ابتسامة السخرية وقال : انت كنت في الأزهر ؟

فقال أحد الطلبة : لقد جاء من النجف !

وكانت نكتة ضحك لها فريقٌ وتألم منها فريق

وإنما تألم من هذه النكتة من تألم لأسباب يعرفها من يتذكر أن التعليم في النجف كالتعليم في الأزهر ، فهو في ذاته تعليمٌ متين ، ولكن تقاليد العصر الحديث لا ترتاح إليه كل الارتياح ، ونحن في مصر نعرف أن السخرية من

الأزهريين لا تقابل بالقبول في كل حين ، فكيف يتلقاها النجفيون بالقبول ؟

على أن السخرية من الأزهر غير السخرية من النجف ، فالنضال بين الأزهريين وغير الأزهريين نضال بين مذهبين في التعليم ، وهو نضال لا يثير فتنة ، أما النضال بين النجفيين وغير النجفيين فهو نضال بين عقيدتين ، وهو نضال يتحاماه العقلاء

* * *

رجع محمود عزمي إلى بغداد بعد أن استقر في الأذهان أنه سيتركها بعد قليل

وكنت أحب أن أراه بعد رجوعه من القاهرة وأن نستأنف سهراتنا في فُندق مُود وأحاديثنا في كلية الحقوق ، ولكن الشواغل صرفتني عما أريد ، فقد كانت ليلى تمردتْ عليّ كلّ التمرد ، ومضيتُ أبحث عن الشفعاء في الحواضر العراقية بلا جَدْوَى ولا غَناء . وكان يزيد في نُفرتي من الاتصال بزملائي في كلية الحقوق عِرفاني بأنهم

عاتبون ، أو حاسدون ، فقد ساءهم أن يكون لي مع ليلى كل ذلك التاريخ

وأحمِلُ في ليلى لقومٍ ضغينةً   وتُحمَل في ليلى عليّ الضغائنُ

* * *

وفي تلك الأثناء كانت تصل إلى سمعي أنباءٌ مزعجةٌ عن كلية الحقوق ، فقد سمعتُ أن الدكتور سيف اضطُرّ إلى أن يخرج من حجرة الدرس مرة أو مرات . والفرارُ من حجرة الدرس كالفرار من ساحة القتال . وسمعت أن الدكتور عزمي يسأل الطلبة عن مذاهبهم الدينية وأنه يتلقى منهم خطابات تهديد ، وأن بعضهم واجهه بكلمات لا تخلو من عنف ، وأن ذلك البعض فُصِل من الكلية بأمر وزير المعارف محافظةً على مركز وكيل العميد ، فمضى الطالب وهو في ثورة الانفعال فألف رسالة في شتم محمود عزمي ، وقد أمرت الحكومة العراقية بمصادرة تلك الرسالة ومنعها من الوصول إلى أيدي الناس ، ولكن ذلك لم يمنع من أن أسمع وأنا في الموصل أنها وصلت إلى هناك ، ولعلها

وصلت إلى غير الموصل من البلاد العراقية . والقايل من الشر كالقليل من النار يحسب له العاقل ألف حساب

وحملتني هذه الأنباء المزعجة على أن أسحب من جريدة الكلام مقالاً كنت كتبته في نقد النظام المتبع في كلية الحقوق العراقية ، نظام الاكتفاء بالمذكرات ، وكنت أرى أن تكون مراجع الطلاب العراقيين في المؤلفات العظيمة التي يخرجها أساتذة كلية الحقوق بالجامعة المصرية

وإنما سحبتُ ذلك المقال لأني خشيت أن يزداد مركز الأستاذ عزمي حَرَجاً إلى حَرَج . وأنا أُراعي الظروف في قليل من الأحيان . والحوادث قد تُصيِّر الطائشين حكماء

* * *

كنتُ أفهم ما يحيط بالأستاذ عزمي من المضجرات فرأيت من واجبي أن أُبدّد مايثور حوله من أقاويل ، من حيث لا يعرف . والصديق الحق هو الذي يرعى صديقه في المغيب

وزاد خوفي عليه حين لاحظتُ أن بعض من أصطفيهم من أدباء العراق لم يعودوا يتحدثون عنه كما كانوا يصنعون ، فما الذي يخفون عني من أخبار هذا الصديق ؟

* * *

وفي ذات يوم نشرت جرائد بغداد أن الحكومة العراقية رفّعت الأستاذ محمود عزمي فجعلت مرتّبهُ خمسةً وسبعين ديناراً ، وهو خبر لطيف ، ولكن تلك الجرائد سكتت عن التعليق على ذلك الترفيع ، وكان يُنتظَر أن تخصه في مثل هذا الظرف بكلمة ثناء ، وهذا السكوت له مدلول عند من يفهم أنه مقصود ، والسكوت المقصود أَخطر من الافصاح

وتفردتْ جريدةُ الرأي العام بالتعليق فقالت إنها ترجو أن يكون هذا الترفيعُ فرصة يراجع فيها محمود عزمي نفسه فيكفُّ عن شتم أهل العراق !

محمود عزمي يشتم أهل العراق ؟ وكيف يقع ذلك ؟

هذا مستحيل ، هذا مستحيل ، ولكن :

قد قِيلَ ما قِيلَ إنْ صِدْقاً وإنْ كذِباً

. فما اعتذارك من قولٍ إذا قيلا

ومضيتُ أبحث عن صديق عراقي يعرف محرر جريدة الرأي العام فاهتديت إلى السيد عبد الجليل الراوي فأخذته من يده وقلت : إن هذه الكلمة قد تثير الطلبة على الأستاذ محمود عزمي ، ومركزه في هذه الأيام دقيق ، فتعال معي نقابل محرر جريدة الرأي العام ، ونرجوه أن يراعي مقتضيات الأحوال

مضينا إلى إدارة الجريدة بشارع المتنبي ، ولكني رأيت الأنسب أن يدخل وحده ، وانتظرته على الباب ، فلما أنهى مهمته رجع يقول : يظهر أن بعض خصوم الأستاذ محمود عزمي أشاعوا أنه يتحدث في مجالسه بسوء عن أهل العراق

فقلت : هذا مستحيل ، وأنا أعرف محمود عزمي كما

أعرف نفسي ، ولا يصح في ذهني أبداً أن تَنِدّ من لسانه كلمةٌ تؤذي أهل العراق

ولم يمنعني ذلك من الاعتراف بأن هذه الاشاعة الكاذبة قد تُفتح لها الآذانُ فتكدّر بها القلوب ، والعراقيون يؤذيهم أن يسمعوا أن من ضيوفهم من يذكرهم بالسوء . والاشاعة كاذبة بالتأكيد ، ولكن اضطراب كلية الحقوق يُوهِم من لا يدقّق أنها خبرٌ صحيح . ولو كان الناس يتبيّنُون كل مايسمعون لتغير وجه التاريخ

* * *

نحن في آخر السنة الدراسية ، والقيظ شديد ، وأعصابُ الطلبة في تهالكٍ وضعف ، وقد شاع وذاع أن الأستاذ محمود عزمي أعان الطلبة بأن مستوى التعليم في كلية الحقوق قد انحطّ ، وأنه لا بدّ من التشديد الصارم في الامتحان حتى يرتفع مستوى التعليم في الكلية

وهذا كلام لطيف ، ولكن قواعد التربية تأباه كل الإباء

يضاف إلى ذلك أن الأستاذ محمود عزمي كتب خطاباً إلى إحدى الجرائد يقول فيه : « إن الذي ينفع العراق هو الاقبال على قسم العلوم المالية » وقد فهم الطلبة أنه يريد أن يخرّب كلية الحقوق ليعمّر قسم العلوم المالية ، فهو الذي أنشأ ذلك القسم ومنصبه فيه منصب الرئيس ، أما منصبه في كلية الحقوق فهو منصب الوكيل

* * *

أين وجه الحق فيما شاع وذاع ؟

ومن ذا الذي يَنقُد كلّ ما يسمع ؟ ومن ذا الذي يفترض أن وجه الحق قد يغيب عنه في بعض المستور من الشؤون ؟

هؤلاء طُلاب يعيشون في سنة ١٩٣٨ وهم يقرأون في المجلات المصرية تفاصيل ما يقع من اعتداء الطلبة على الأساتذة والعُمَداء ، وعَدْوَى الشر تمشي في القلوب مَشيَ النار في الهشيم

* * *

ما أصعب حالي في هذه الأيام !

لقد وَقَذَني حبُّ ليلى وأَضْرَعَني ، وأنا من ليلى في بلاءٍ جديد كلَّ يوم ، فكيف تشاء المقادير أن أحمل مع هموم الحب أحمالاً ثِقالاً هي الأحزان لمصاير زملائي فى كلية الحقوق

* * *

أين محمود عزمي ؟

أين ؟ أين ؟

لقد بحثتُ عنه في كل مكان لأُنذره بهبوب العاصفة ،

ولكني لم أهتد إليه

فلتصنع المقادير ما تشاء

آه من ليلى ومن زماني !

أزعجتني مظاهرة الطلبة ضدّ عزمي وسيف ، وقد دوّنتها ودوّنتُ ما توهمتُ من أسبابها ظُهر اليوم

وحاولت أن أستريح قليلاً فلم أستطع ، وكيف يستريح من يشهد هذه المزعجات ؟ !

ويظهر أن غرامي بتدوين ما أرى وما أسمع سيجعلني أسخف الناس أو أعقل الناس . والحدُّ بين السخف والعقل أدقُّ من الشعرة وأحدُّ من السيف

ويظهر أيضاً أني سأقتل نفسي في بغداد ، وإن لم يكن بيني وبين فراقها غير أيام ، فهذا الغرام بالكتابة ينقل أعصابي من ضعف إلى ضعف ، وأنا ما زلت أتذكر بلائي بنفسي يوم رجعت من الموصل ، وهل لي عدوٌّ غير نفسي ؟

إن الحكومة المصرية أخطأت كل الخطأ حين أرسلتنى

إلى بغـــداد ، فأنا في الواقع مريض بالحذلقة السخيفة في تصوير الأشياء و الأشخاص ، و هذا التصوير كان ينفع لو كنت من أدباء باريس أو برلين ، ولـكني — رضيتُ أو كرهتُ — من أدباء القاهرة أو بغداد ، وجزائي على الصراحة في التصوير قد يصير عند الجامدين أقبح جزاء

لقد تأذيتُ من الحال الذي صرتُ إليه في العراق ، و يجب أن أسجل أني وقعت في أبشع ضروب الاسراف ، فمنذ ثمانية أشهر أو تزيد وأنا أطالع الجمهور العراقي بمقالات وخُطب و أقوال و أحاديث تضر أكثر مما تنفع ، لأنهـا تفتح أمام الناس باباً من الجدل هم عنه أغنياء

و أعتقد أن مصيري إن انتهى إلى السوء فلن يُسأل عنه غير رجلين : عبـد الرحمن عزام ومحمد رضـا الشبيبي

أما عبـد الرحمن عزام وزير مصر المفوض في العراق فقد شكاني المصريون إليه مرّات ومرّات وقالوا إن أحاديثي وخطبي ومقالاتي تعرّضهم لألوان من المكاره أمام الجمهور العراقي ، لأن فيها إشارات كثيرة تحتاج إلى تفسير وتأويل .

وأما الشبيبي وزير المعارف العراقيـة فقد سمعتُ أن ناساً شكوني إليه وانتظروا أن ينـذرني لأكفَّ عن مراسلة الجرائد ، ولو أنه فعل لأراح واستراح ، فالقانون في العراق صريح في أن الموظفين لايجوز لهم أن يراسـلوا الجرائد أو يعرّضوا الجمهور للإكثار من القال والقيل

والإنصاف يوجب أن أدوّن في هذه المذكرات أن سـعادة عبد الرحمن عزام اعتـذر عني لمن شكوني إليه ، وأكد لمحدثيه أن زكي مبـارك قد أفلح في إيقاظ الحيـاة الأدبية في العراق وأنه لذلك جدير بالتشجيع

وأما الوزير محمد رضـا الشبيبي فقد شهد لي شهادة لم يشهد بمثلها لأحد من قبل ، إذ قال في حضرة الأستاذين علي الجارم وأحمد السكندري ما نصه بالحرف : « لقد جاء كثير من فضلاء المصريين للتدريس بالعراق ، ولـكن لم يستطع أحد أن يُـدخل البهجة على تلاميذه ويغرس فيهم الشوق إلى الأدب غير الدكتور زكي مبارك » فقال الجارم :

« وأنتم حرمتمونا منه » وقال السكندري : « لقد أخذتم منا روضة »

وقد علمت فيما بعد أن ناساً شكوني إلى الأستاذ الشبيبي وأظهروا عجبهم من أن يتركني أتحدث كيف أشاء، فأجاب : « زكي مبارك أستاذٌ نافع وهو فوق ذلك من أشرف أصدقاء العراق »

والواقع أن شهادة هذين الرجلين آذتني أشد الإيذاء، لأنها دفعتني دفعاً إلى الطريق المخوف، فقد مضيتُ أكتب وأخطب بلا تحرز ولا تهيب، وأخشى أن يزلّ قلمي زلة سخيفة فيشمت أعدائي في مصر والعراق

أنا مِسكين، مِسكين، مِسكين

والعجيب أن لا تقوم ضدي مظاهرة كالمظاهرة التي قامت صباح اليوم ضد عزمي وسيف

ولكن لماذا أظلم نفسي بهذه التصريحات ؟

وما الذي جنيت حتى يثور عليّ العراقيون ؟

كل ذنبي عنـد فريق من أهل العراق أني قدمت الشريف الرضي على المتنبي

ومن هو المتنبي حتى يُقْرَن بالشريف الرضي ؟ وأين شاعرية المتنبي من شاعرية الشريف ؟

إن كان هذا هو ذنبي عند فريق من أهل العراق فلن أتوب ولن أتوب ولن أتوب

وأنا مع ذلك مخطىء ، فلي مقال عن المتنبي يجعله سيد الشعراء ، فما الذي كان يمنع من نشر هذا المقال مرة ثانية في بغداد ؟

يمنعني العنـــادُ السخيف الذي آذاني في مصر وسيؤذيني في العراق

ولـكن هل يحتاج المتنبي إلى من يُشيد بذكره وقد طبّقت شهرته آفاق الأرض ؟

إن الذي يحتـاج إلى ذلك هو الشاعر المظلوم الذي تناساه النـاس عامدين أو جاهلين ، هو الشريف الرضيّ الذي يعدُّ أصدق شاعر تنسم هواء العراق

أنا أعرف أن ناساً رَضُوا عني حين رأوني أتعصب للشريف الرضي ، ولكن هؤلاء لا يهمونني لأن مودتهم للشريف ليست بالمغنم الجديد ، وإنما الذي يهمني هو أن أخلق للشريف صداقات جديدة عند من يتجاهلون قدره عامدين

ومن هم الذين يتجاهلون قدر الشريف ؟

هم فيما سمعتُ أهل السُّنة في العراق

ولكن هل كان المتنبي سُنِّيًّا ؟ هو شيعيٌّ أيضاً ، ولكن يظهر أن تشيع الشريف كان أقوى وأعنف ، لأنه صاحب الوثيقة المشهورة في سِناد التشيع وهو تصنيف كتاب (نهج البلاغة) المنسوب إلى أمير المؤمنين

آه ، ثم آه ، ثم آه !!!

إن مذهب أهل السنة هو أسمح المذاهب الإسلامية لأنه يحترم جميع الخلفاء ، وهو من هذه الناحية أرحبُ صدراً من التشيع ، فكيف يعيبُ ناس على رجلٍ مثلي أن يهتمَّ

بالشريف الرضيّ ، مع أن في هذا الاهتمام تعزيزاً لما يدعو إليه أهل السنة من التسامح والرفق ؟

أُحب أن أعرف كيف يستبيح ناسٌ إيذائي في العراق من أجل الشريف ، وهم يعرفون أن المصريين لا يقيمون لهذه الخلافات المذهبية أي ميزان ؟

نحن في مصر لا نعرف شيئاً من هـذه الخلافات على لاطلاق ، ولو سُئِل إنسانٌ في القاهرة عن مذهبه أشيعيٌّ هو أم سُنّيٌّ لدَهش وعجز عن الجواب

فمن واجب أهل العراق أن يراعوا ذلك

من واجبهم أن يذكروا أن المصريين لا يلتفتون أبداً إلى هذه الشؤون

ولـكن لا موجب للتخوف من عواقب هذا الخلاف

فأنا اليوم في أمان بعد ظهور كتاب (عبقرية الشريف الرضي) الـكتاب الذي سيجعلني صديقاً لجميع أهل العراق

وأهل العراق يُظلمون أقبح الظلم حين يُتهمون بالطائفية ، فقد كان في تلاميذي شابٌّ لا يشهد المحاضرات التي ألقيتها

في كليـة الحقوق عن عبقرية الشريف الرضيّ ، فلما سمع محاضرتي في الاذاعة اللاسلـكية عن العُلَا والمعالي في شعر الشريف جاء فقبّل يدي وأقسم أنه بكى حين سمع أشعار الشريف في الفتوّة وأخلاق الفتيان

ليس في العراق تعصُّبٌ عند من يتأمل ويدقّق

أهل العراق يعيشون على الفطرة ولا يثورون إلا على من يتوسمون فيـه سوء النية

ويستطيع الرجـل المخلص أن يعيش عمره كله في العراق بدون أن تَقْرع أُذنه كلمةٌ فيها إيذاء

ولـكن هل أعيش عمري كله في العراق ؟

ليتني أستطيع ! ليتني أستطيع !

وكيف أستطيع وأنا رجلٌ أحمق يخاطب الناس كل يوم بما لا يفهمون ؟

وهل من العقل أن أتـكلم في أطلال الحيرة بالأسلوب الذي أتـكلم به في باريس ؟

وما الذي عانيتُ في الحيرة و في النجف ؟

لقد رأى أولئك الناس مني ما لا يحبون ، لأني رفضت أن أقيم في بلدهم غير ليـلة واحدة ، ومع ذلك صبروا عليّ واستقدموني مرة ثانية ، واحتفلوا بتـكريمي أعظم احتفال

وهل أنسى لطف الرجال الذين لقيتهم في كربلاء ؟

هل أنسى كيف تنسمت الحياة في يوم قائظ في البلد الذي تشرف برفات الحسين ؟

* * *

ما لي و لهذا الحديث الذي أدور به حول نفسي ؟

أنا أريد أن أسجل ما شهدتُ بعـد ظهر اليوم فيما يتصل بالزميلين : عزمي وسيف

ذهبت لمقابلة الشاعر عبد الرحمن البناء في قهوة الشّهبندر فرأيت اثنين من طلبة كلية الحقوق ، أحدهما كاتب يشغل نفسه بالمسائل الاقتصادية ، وثانيهما شابٌّ مهذّب لا أحسبه يعرف غير الأدب الجميل

أعطيت أذني اليمين للشاعر عبد الرحمن وأعطيت أذني الشمال لهذين الشابّـين ، وكانا يتحاوران في همسٍ خافتٍ ملفوف

أما عبد الرحمن فتكلم في الشعر والخيال

وأما هذان الشابان فتكلما في نتائج الامتحان بكلية الحقوق

لا أذكر ما قال البنّاء فقد شُغِلتُ عنه بحديث هذين الشابين : لأن له صلة بالمظاهرة التي قامت صباح اليوم في فِناء وزارة المعارف ضدّ الزميلين : عزمي وسيف

فما الذي كان من حديث هذين الشابين ؟

كان الحديث يصل إلى أذني مقطَّع الأوصال ، ولكني فهمتُ أن مكان الناجح الأول في أحد الصفوف احتلته إحدى الطالبات . والنص على هذه الظاهرة في ذلك الحديث له مدلول ، ومعناه أن الطلبة استنكروا أن تظفر إحدى الطالبات بالسبق

فما العيب في ذلك ؟

الحقّ أن الأساتذة في كل أرض يترفقون بالفتيات في الامتحان ، وقواعد التربية لا تأبى ذلك ، لأننا نحاسب كل طالب وَفْقَ مظهره ومخبره ، وما يجوز عندنا أن

يستوي القويّ والضعيف ، فالقويّ له امتحان ، والضعيف له امتحان

وقد وقع لي حادث من هذا النوع يوم كنت مدرساً بالجامعة المصرية

كنت في لجنة مع الأستاذ أحمد أمين وكنت معروفاً باللطف وكان أحمد أمين معروفاً بالعنف

وكانت هناك فتاة تخاف من جهامة أحمد أمين ، فانتظرتْ طول الصباح عساه ينصرف ويتركني أمتحن الطلاب وحدي ، ولكنه لم ينصرف ، فلما خرجنا عند الظهر للغداء تعقبتني تلك الفتاة ثم سلّمتْ وقالت : يادكتور ، أنا خائفة من الأستاذ أحمد أمين !

فابتسمتُ وقلت : أنا والأستاذ أحمد أمين سنتغدّى في منازلنا بمصر الجديدة ثم نرجع في الساعة الرابعة ، وسأحرص على الحضور في الميعاد بالضبط لأمتحنك قبل أن يرجع

فقالت : وكيف أضمن أن لا يرجع في الساعة الرابعة بالضبط ؟

فقلت : أنت تعرفين يا طفلتي أنه رجلٌ وقور ، وللوقار مِشيةٌ ثقيلة توجب أن يتأخر الرجل عن الموعد نحو عشرين دقيقة في مثل هـذا اليوم الصائف ، وهذه المدة تكفي لامتحانك

وفي الساعة الرابعـة حضرتُ قبل أن يحضر الأسـتاذ أحمد أمين

وجلست الفتاة تؤدي الامتحان في طمأنينة وأمان

وبعد دقيقتين اثنتين حضر الأستاذ أحمـد أمين ، فنظرتْ إليّ الفتاةُ نظرة استنجاد !

فالتفتُّ إلى الأسـتاذ أحمـد أمين وقلت : يهمني يا حضرة الأستاذ أن أخبرك أني اتفقت مع هـذه الفتـاة على أن أمتحنها وحدي !

فقال في تلطف : ويهمني أن أخبرك أني ذاهب إلى المقصَف لأشرب فنجان قهوة ثم أرجع !

تلك أخلاقنا في مراعاة الذوق بالجامعة المصرية ، وما كنا بذلك من المتهاونين

ولكن من يخبر طلبة الحقوق في العراق بهذه الحقائق ؟

من يخبرهم أن الأساتذة يقومون مقام الآباء ؟

من يخبرهم أن الأب الرحيم يترفق بالبنات أكثر مما يترفق بالأبناء ؟

لو كان محمود عزمي من أهل الفُجور لعذرت هؤلاء الشبان في ثورتهم عليه ، ولكن محمود عزمي فيما أَعتقد سليمٌ من هذه الناحية ، واهتمامه بالتلطف مع الفتيات قد يرجع إلى رغبته في الظهور بمظهر الحرص على تشجيع الحركة النسوية ، ليكون من زعماء التجديد

بقي حسن سيف ، وهو شاب يغلب عليه المزاح ، ولكني أستبعد كل الاستبعاد أن ينطوي صدره على غرض غير شريف

فما الذي يُغضب طلبة الحقوق من أن تكون إحدى

الفتيات أول الناجحين في صف من الصفوف ؟

أعتقد أن سوء النتيجة هو الذي خلق هذا الروح المتمرد الحانق

وأعتقد أن التعليم المختلط قد يجرنا إلى ويلات ، لأنه لن ينجح إلا بعد أن تستقر قواعد الذوق

لن ينجح التعليم المختلط إلا يوم يفهم الشبان أَن التنافس لا يقع بين فتًى وفتَاة ، وإنما يقع بين فَتَيَيْن أو بين فتاتين

لن ينجح التعليم المختلط إلا يوم يفهم الشبان أن الطالبات أخواتٌ لا مُنافِسات

لن ينجح التعليم المختلط إلا حِين نُصبح كأهل أوربا وأمريكا من جميع النواحي ، فالتعليم المختلط نبات نقلناه من هناك ، ولن يعيش إلا إذا خلقنا له جوًّا يشبه الجو الذي كان يعيش فيه

ولن أنسى أنني اعترضتُ مرةً على أن يُوكَل أمرُ الطالبات بكلية الآداب في القاهرة إلى سيدة أوربية فقلت :

وما الذي يمنع من أن تقوم بذلك سيدة مصرية ؟ فقال الأستاذ عباس محمود : يمنع من ذلك أن تسلّم عليها مرةً فيقول أهل الفُضُول إنها عشيقة الدكتور زكي مبارك !

آه ! ثم آه !

إننا نسيء بأنفسنا الظنون ، ونرى الأجانب أفضل منا في جميع الأحوال ، وذلك داءٌ عُضال

لو كانت التُّهم الصحيحة هي كل ما نخشاه لخفّ الأمر وهان ، فلنا ذنوبٌ وآثام هي ألوانٌ مما ابتُليتْ به الانسانية من ذنوب وآثام ، والانسان معرّض للضعف ، وادّعاء العصمة عملٌ ممقوت ، ولكن الذي نخشاه هو التُّهم الكواذب التي تُساق إلينا بلا حساب . والذي يؤذينا هو تلك التهم الكواذب : لأن المفترين لا يكفيهم أن نكون ناساً مذنبين ، وإنما يحاولون أن يجعلونا ذئاباً فاتكين

وكان الأمر في الشرق كذلك لأن الشرق نهض في ظلال دعوة خُلُقيه كانت في الأصل نوعاً من ردّ الفعل .

الشرق قام على التوحيد الذي يحارب الوثنية ، والوثنية كانت تمجّد الشهوات ، فرأى الشرق الموحّد أن يحارب الشهوات بقوةٍ وعنف ليتفرد بالدعوة إلى مكارم الأخلاق

ونجح الشرق الموحّد يوم دعا تلك الدعوة أول مرة ، لأنه احتاط كل الاحتياط ، فلم ينه عن الشهوات جملةً واحدة ، وإنما لوّن ونوّع وفصّل ، فبيَّن ما يباح وما لا يباح ، وتظهر آثار ذلك في تحريم الخمر وتحريم الرّق ، فالخمر تحرم في حال وتباح في حال ، باختلاف الجنس والنوع ، والرّق تلطّف فيه الشرع الموحّد فدعا إلى الخروج من آثامه بحكمةٍ ورفق.

وكذلك استطاع الشرق لأول عهده بالتوحيد أن يجمع بين عناصر الحلم والجهل فصحّت له الحياة

ثم أراد أن يندمج في صفوف الملائكة الذين لا يأكلون ولا يشربون فوقع في هاوية الانحطاط

يا ابن آدم ، أنت من لحم ودم وأعصاب

وأخلاقك لن تصلح إلا إذا فهمت أنك من لحم و دم وأعصاب

فما هذا الغرور الذي يوهمك أنك تستطيع أن تلحق بملائكة السماء ؟

ومن أنت حتى تصير مَلَكاً يا جهول ؟

مَن أنت ، ومِن الأرض خُلِقْتَ وإلى الأرض تعود ؟

إن قوتك هي في الاعتراف بأنك مخلوقٌ ضعيف

إن قوتك هي في البكاء على آثامك ، فابكِ ما طاب لك البكاء ليصفح عنك غفار الذنوب

* * *

مالي ولهذا التفكير المزعج ؟

أنا أحب أن أعرف ما يصير إليه أمر محمود عزمي وحسن سيف

لقد بحثت اليوم عن محمود عزمي في كل مكان ولم أهتد إليه ، فهل أستطيع أن ألقاه في الصباح ؟

٣٤

أين أنا وكيف حالي ؟

أنا بين جدران الغرفة التي كتبتُ فيها ألوف الصفحات في أشهر معدودات ، الغرفة التي دوّنت فيها ما عرفتُ من أسرار المجتمع وسرائر القلوب ، والتي أَلّفت فيها كتاب (عبقرية الشريف الرضي) وكتاب (وحي بغداد) وكتاب (؟ ؟ ؟) وقد كتبتُ ما كتبتُ وأنا مبتهجٌ جذلان ، فما الذي سأكتب في هذا المساء ، مساء اليوم العصيب ، اليوم العشرين من شهر حُزيران سنة ١٩٣٨ ؟

ماذا أكتب في الغرفة التي كانت أَحبّ مكان في بغداد إلى قلب ليلى وقلب ظمياء ؟

أكذلك تتحول دنياي من أفراح إلى أحزان بسرعةٍ لا تخطر في بال مخلوق ؟

* * *

خرجتُ صباح اليوم للبحث عن محمود عزمي وكان في النية أن أُحدّثه عما تراءى إليّ من أخبار كلية الحقوق، وكان ذلك قُبَيْل الساعة الحادية عشرة، فقد منعني التعب من التبكير لرؤية ذلك الزميل، ثم بدا لي أن أمرّ على دار المعلمين العالية لمراجعة بعض الشؤون، فما كدت أجتاز عتبة الدار حتى واجهني الدكتور عقراوي وهو مذعور: وقع اعتداء على الدكتور عزمي!

وأسرع إلى التليفون يستنجد برئيس الشُّرطة في بغداد

أما أنا فقد عَدَوْتُ عَدْواً لأتدارك ذلك الاعتداء

هل أستطيع وصف ما رأيت؟

وجدت مدخل الكلية ملوثاً بالدماء: فانخلع قلبي، وطاف بالخاطر أن محمود عزمي قد يكون ضُرِب بالرصاص في هذا اليوم. وما هي إلا لحةٌ حتى عاد صوابي: فقد رأيت محمود عزمي حيًّا وإن كان في صُفرة الأموات. ومددتُ يدي أصافحه وأواسيه فظهرتْ عليه أمارات التأثر لقدومي في ذلك الوقت، ولم نكن على ميعاد. وفي تلك

اللحظات سمعتُ صرخةً أليمةً فالتفتُّ فاذا رجلٌ ممدّد في غرفة العميد وهو مضرّج بالدماء

من هذا الذي يصرخ ؟

لقد أخفى الدم معالم وجهه فلم أعرف هُويّته إلا حين عاود الصراخ: عرفت أنه الصديق العزيز الدكتور حسن سيف

وكذلك فهمت كيف شاءت المقادير أن يُختم عامنا في بغداد

وجاء شرطيٌّ يهزّ رأس الدكتور سيف وهو يقول : مَن ضربك ؟ من ضربك ؟

ولكن سيف لا يجيب

وهل يستطيع مَن قدَّ الرصاصُ رأسه أن يجيب !

وبعد لحظات نُقِل سيف إلى المستشفى وبقيتُ مع محمود عزمي أواسيه

وما هي المواساة في مثل هذه الحال ؟

قدمت إليه سجارة فرفض

فقلت هي تَلْهية تزجي بها الوقت إلى أن ينتهي هذا هذا الاستجواب (وكان بعض الضباط أخذ يسأله عن تفاصيل الصورة التي وقع بها الاعتداء)

وراعني أن يمدَّ محمود عزمي فاه لا يده لأخذ السجارة فعرفتُ أنه مطعون

فقلتُ : تجلَّد ، يا دكتور

فأجاب : ما كانت تخيفني هذه الطعنة لو لم أكن مريضاً بالبول السكَّري ، وأنا أخشى أن تكون ضربةً قاضية

وأسرعتُ فأحضرت عربة ونقلته إلى المستشفى

وبعد لحظة قدَّمتْ إليه إحدى المضمِّدات كأساً من الكونياك

أخذ رشفةً من الكأس ، ثم عاف الكأس

فقلت : إشربْ يا رِسكِّير !

فابتسم

وأردت أن أُنسيهُ أحزانه فذكَّرته بما كان وقع في فندق مُودْ منذ أشهر طوال ، فقد طلب كأساً من

الڤيرموت ، فلما ذاق الشراب رفضه بحجة أنه ليس بڤرموت ، فقال الغلام : كيف تكذبني وأنا أخدم في الحانات منذ ثلاثين سنة ؟ فقال محمود عزمي : وكيف تراجعني وأنا أعاقر الكؤوس منذ خمسين سنة وأعرف جميع أنواع الشراب بالشمّ قبل الذوق ؟ !

وعند تذكيره بهذه القصة قال : إنما أرفض هذا الكونياك لأنه ممزوج بالسُّكر

فأسرعت المضمّدة وأحضرت إليه كأساً من الكونياك الصّرف

وجاء الدكتور صائب شوكتْ يشخّص الجرح ، فبدا لي أنه أخطأ التشخيص ، ولكني لم أعترض ، فقد شاع في بغداد أني طبيب أرواح لا طبيب أبدان

وفي تلك اللحظة بكى محمود عزمي ، بكى الرجل الشّهم الذي لم يعرف البكاء قبل اليوم ، بكى الرجل الضحّاك البسّام الذي كان وجهه زينة المحافل والمنتديات ، بكى العالم الجهْبَذ الذي طوّف بالشرق والغرب وملأ رأسه بالأوهام والحقائق .

وبالغتُ في التجلد فحبست دمعي ، وإن كنتُ أحسستُ الدموع تتفجر من قلبي ، والقلوب تبكي كما تبكي العيون

وجاء طبيب انجليزي فوجّه إلى محمود عزمي دعابة نقلتْه من البكاء إلى الابتسام

ثم نُقل محمود عزمي بالنقالة إلى إحدى الُحجرات ، وكان عجزه عن المشي دليلاً على الكرب الذي يعانيه

* * *

ونظرت فرأيت معالي الأستاذ محمد رضا الشبيبي وأصحاب السعادة طه الراوي وفاضل الجمالي ويوسف عز الدين ، فجلسنا ننتظر رأي الأطباء في نهاية الدكتور سيف

وقد أبدى معالي الأستاذ الشبيبي دهشته من أن يراني في ذلك الوقت ، فقلت : كذلك شاءت المقادير أن أشهد هذا المصرع الأليم

ولم يكن بدٌّ من تزجية الوقت بكلام يتصل بالتربية والتعليم ، فاقترحتُ نقل مواعيد الامتحان من الصيف إلى

الشتاء ، وقلت : إن هـذا رأيٌ قدمته إلى وزارة المعارف المصرية منذ سنتين ، وحجتي أن القيظ يضعف الأعصاب وهو السبب في حوادث انتحار الطلبة في مصر وفي العراق

ثم جاء الأطبـاء فأخبرونا أن الدكتور سيف قد لا يعيش ، فانصرفنا مكروبين

* * *

جلسنا في مكتب الأستاذ طه الراوي ومعنا الدكتور الجمالي والأستاذ الألوسي

جلسنا ندرس أسباب هذا الاعتداء ونفكر في مصير كلية الحقوق

واتفقت كلمتنا على وجوب نقل مواعيد الامتحان من الصيف إلى الشتاء

وحين هممنا بالانصراف احتجزني الأستاذ طه الراوي بلطف ثم قال : أنا أعرف يادكتور أنك تهرب مني ، ولكنك تجهل أني معنَّى القلب بسبب التقصير في حقك ،

وكنت أظن أن هـذا التقصير هو أشـد ما ساءني ، ثم فاجأتنا المقادير بما رأيت

« واندفع الأستاذ طه الراوي يبكي بكاءً أليما »

فأقبلتُ عليه أواسيه فـكفـكف من دمعه ثم قال :

إن الشبان لا يعرفون ما نصنع من أجلهم ، نحن شعب كان له تاريخ ، وصنعتْ به الحوادث ما صنعتْ ، وكلٌّ همنا أن نجاهد ليكون للعراق تاريخ جديد في رعاية العلوم والآداب ، واعتمادنا على مصر هو الشاهد على صدق تلك النية ، ولولا ثقتنا بأخوّتكم لما وكَلْنا تثقيف شبابنا إليكم ، فانظر كيف نجزع حين نرى هـذا المصير لبعض من استقدمناهم من العلماء المصريين ؟ انظر كيف ندافع عن أنفسـنا في عصر يكثر فيه التقول على الأمم والشعوب ؟ أنت تعلم يا دكتور أن هذه الحادثة قد يؤوّلها رجل مثلك بأنها من جنـايات القيظ ، فأين من يحلل المقدمات والنتائج على هذا الأسلوب ؟ وهل تظن أن المصريين وهم إخوان أشقّاء سيلتمسون لهذه المأساة أبواباً من التخفيف ؟ أنا حزين يا دكتور ،

ومتوجّع لما وقع ، ويزداد حزني حين أتذكر أنْ سيوجد في مصر من يقول « لقد خاب الظن في سماحة أهل العراق »

وانهزم الأستاذ طه الراوي أمام الدمع مرة ثانية فتوجعتُ لكربه وأساه

فالتفت إليّ وقال : أنت عرفت العراق وعواطف أهل العراق ، فهل أستطيع أن أثق بأن هذه الفاجعة لا تغيّر رأيك في سماحة أهل العراق ؟

فصوبت بصري إلى الأستاذ طه الراوي وقلت : تلك أقدار ، ولا يثور على الأقدار إلا غافلٌ أو جهول

* * *

خرجت من مكتب الأستاذ الراوي لأعود إلى المستشفى عساني أعرف ما صار إليه محمود عزمي بعد ذلك الإعياء ، فعرفت أن الدخول عليه ممنوع

ثم التفتّ فرأيت جماعة من الرجال والنساء يصرخون

فمضيت إليهم فرأيت الشاب المسكين الذي أطلق الرصاص على محمود عزمي وحسن سيف

وأي شاب ؟

مخلوق هزيل هدّته الأمراض والأحزان ثم أنقذه الموت

مخلوق تنطق معارف وجهه وهو ميتٌ بأنه لم يكن يدري عواقب ما يصنع

مخلوق أفسدته الأنظمة الحديثة التي توجب أن يكون بأيدي الشبان إجازات وألقاب

وما قيمة الاجازات والألقاب بجانب هذا المصير الفاجع ؟

ما قيمة الكليات والجامعات بجانب الحقيقة الأزلية التي تفرض أن يعيش الناس سعداء ؟

وكان بين الباكين شابٌّ من تلاميذي بدار المعلمين العالية فاستفهمت منه عن أشياء تتصل بذلك الشاب الصريع فأخبرني أنهم وجدوا في جيبه أوراقاً تشهد بأنه كان يعاني

بين أهله ضروباً من الغمّ والكرب ، وأنه ترك في جيبه دينارين ليقدّما إلى أحد دائنيه من الشبان ، وأنه أوصى بأن لايذرف عليه أخوه دمعةً حين يموت ، وأنه يكتفي بما صادف من « العطف » في دنياه !!

وما كدت أسمع هذا الكلام حتى غلبني الحزن ، فقد تذكرت أن نظام الأسرة في بلادنا نظام مُضَعْضَع وأن من النادر أن يعيش شابٌ بين أهله عيش النَّضرة والنعيم وتذكرت الشاب الذي انتحر بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٦ وكنتُ أنا والدكتور طه حسين من المسئولين عن انتحار ذلك المسكين : فقد شكا إلينا أن أهله سيقطعون عنه المرتب إن رسب في الامتحان ، ورجانا أن نتوسط له عند عميد كلية العلوم ليمنّ عليه بأربع درجات حتى لا يعرّض نفسه للقتل . وقد ظنناه يمزح فلم نفكر في أمره ، ثم علمنا فيما بعد أنه شرب السم ليتخلص من شماتة الأهل والأقرباء !

تذكرت أن الشبان في بلادنا أشقياء ، وأنهم

لا يتعلمون ليسعدوا ، وإنما يتعلمون ليحسوا معاني الشقاء

وتقدم أحد أقرباء ذلك الشاب فقال : لطفاً يا دكتور فما كان هذا الشاب لئيماً ولا أحمق ، وإنما قضى الله ما قضاه ، والبقية في حياة الدكتور عزمي والدكتور سيف !

ورأيت من المروءة أن أنتظر حتى أشيّع جنازة ذلك الشهيد

وهل في الدنيا ميتٌ أحقُّ بالرحمة ممن يستشهد في سبيل النظام السخيف ، نظام المدرسة ونظام البيت ؟

* * *

ورجعت إلى داري مكروباً محزوناً ، ثم طرق الباب طارقٌ ومعه خطابٌ ينتظر الجواب ، فقرأت الخطاب مرات ومرات فلم أفهم شيئاً ، وهل أستطيع في مثل هذه الحال أن أقرأ فأفهم ؟

أمري إلى الله

وبعد العصر قرأت الخطاب من جديد فعرفت أنه من الأستاذ محمود فهمي درويش وهو يقول إنه علم أني

سأفارق بغداد وهو يرجو أن أقدم إليه صورتي تذكرةً لأيامنا في بغداد

إطمئنّ ، أيها الصديق ، فلن أنساك ولن أنسى بغداد !

*

* *

وقُبيل الغروب رجعت إلى المستشفى لأعرف شيئاً من أحوال محمود عزمي وحسن سيف ، فرأيت رئيس الوزراء هناك فواساني بكلمة لطيفة سأذكرها ماحييت

*

* *

وكنت على موعد مع سعادة الأستاذ طه الراوي بوزارة المعارف فمضيت إليه فعرفت أن هناك جلسة برياسة الوزير للنظر في مصير الدكتور سيف ، وهم يفكرون في نقله بطيارة إلى أحد المستشفيات في القاهرة أو باريس ، ثم عرفت مع الأسف الموجع أن رئيس المستشفى قرر أن نقله قد يعرّضه إلى الموت

وخرج معالي الأستاذ الشبيبي من الجلسة ومعه الدكتور الجمالي فالتفت إليّ الوزير وقال : كنا نريد أن

نصنع المستحيل في سبيل إنقاذ حياة الدكتور سيف
ولكن إدارة المستشفى تعارض ترفقاً بالمريض

وقال الدكتور الجمالي : من العزيز علينا أن تُراق
قطرةٌ من الدم المصري في بغداد

فقلت : تلك أقدار ، تلك أقدار ، تلك أقدار ،
والحمد لله على السرّاء والضرّاء

ومضيت مع الأستاذ طه الراوي إلى منزله لندرس
مصاير هذا الحادث الأليم

ثم رجعت إلى منزلي لأستريح ، ولأسجل حوادث
اليوم ، فماذا في صباح الغد ؟

سأنتظر ما يأتي به الصباح

٣٥

ما ذا صنعتُ في هذا اليوم من الصالحات ؟

أعتقد أن روحي لم يرتفع كما ارتفع في هذا اليوم

خرجت مبكراً للسؤال عن حالة الدكتور سيف فعلمت أنه قضى نحبه في منتصف الليل ، وأن وزارة المعارف تستعد لتشييع جثمانه بصفة رسمية ، وأنها قررت أن يشترك في تشييعه مُدَراء المدارس والأساتذة والتلاميذ[١]

وعندئذ مرّ بالخاطر أن هذه الفاجعة قد تفسد الصلات بين مصر والعراق ، فرجعت إلى داري بسرعة وكتبت مقالا بيَّنتُ فيه أن الحادثة فردية وأنها لن تعكر ما بيننا وبين العراق من صلات ، وكان روحي قويًّا جدًّا عند كتابة ذلك المقال ، وأعتقد أنه أفضل ما كتبت في حياتي ، ثم أرسلته بالبريد الجوّي إلى جريدة الأهرام ، وأغلب الظنْ أنه سينشر في أحسن مكان وسيكون له في مصر أحسن وَقْع[٢]

(١) أهل العراق يجمعون مدير على مدراء (٢) تجد هذا المقال في كتاب (وحي بغداد)

وهل لمصر مصلحةٌ في أن يذاع خطأً أن أبناءها يُؤذَوْن عمداً في العراق ؟

وبعد أن وضعتُ الخطاب في البريد شعرت بأني بذلت من الجهد في إنشاء ذلك المقال ما ضعضع بنياني ، فرجعت إلى المنزل لأستريح

ثم سمعت الباب يُطرق طرقاً عنيفاً فلم ألتفت إليه لأني كنت في حال من التعب لا تسمح بمقابلة أي إنسان

ونظرت فرأيت الطارق دسّ ورقة تحت الباب وانصرف

وجذبت الورقة فرأيت الدكتور عقراوي يقول إنه جاء ليبلغني أن الدكتور الجمالي طلب منه أن يخبرني « بأنه يرغب كثيراً أن أواجهه في وزارة المعارف »

فمضيت لأنظر ما يريد الدكتور الجمالي فلم أجده هناك

وحدثتُ أحد أصفيائه عن هذه الدعوة فقال : يجب أن تراه لأنه يريد أن تسحب استقالتك ، ففي مساء هذا

اليوم ستنظر الوزارة في تجديد عقود الأساتذة الأجانب ، وما يمكن أن يجدّد عَقدك وأنت مستقيل

فقلت : و ما أريد أن أرجع إلى العراق ما دام يراني من الأجانب !

فقال وهو يبتسم : هذه أمور شكلية لا تخفى على فطنتك ، و الحكومات لا تقيس الجنسيات بالعواطف وإنما تقيسها بشهادة الميلاد ، و أنت من مواليد مصر لا من مواليد العراق

فقلت : هذا حق ، ولكني على كل حال لن أسحب استقالتي ، لأن الظروف توجب أن يكون لكم صديقٌ في مصر ، و سأكون ذلك الصديق

* * *

في هذا اليوم نشرت جريدة الأخبار مقالاً للأستاذ عزمي و قالت إنه أرسله إليها قبل حادث الاعتداء ، و المقال صريح في أن كلية الحقوق كانت انشطرت شطرين و أنه كان يقاسي لواعج من الامتعاض

وفي هذا اليوم تلقى محمود عزمي برقية من الدكتور هيكل ، وهي برقيــة دبلوماسية ، فقد نص فيها على أنه يحمد لحكومة العراق عطفها على المصابين وقيامها بما يوجب الاخاء بين القُطرين الشقيقين . وقد فرح محمود عزمي بالبرقية وقدمها بسرعة إلى مندوبي الجرائد . ثم أخبرني حين عُدته أنه لم يقدّمها لمندوبي الصحف إلا حين رآها مذيلة بعبارة « وزير المعارف » فلها معنى أكثر من المواساة الشخصية

* * *

وقع اليوم حادث مضحك للأستاذ عزمي ، وهو فكاهة تستحق التدوين

ذهب رجل لزيارته باسم صديق القُنصُل فظنه فرّاشاً بالمفوضية المصرية وسمح له بالدخول ، ثم هاله أن يراه مسدّراً لا مُطَرِبَشاً ، وجلس الرجل يتحدث في شؤون مختلفات ومحمود عزمي يتكلف الاصغاء ، وبعد لحظة مدّ الرجل يده إلى خاصرته ليهرش فظن محمود عزمي أنه يبحث في جيب بنطلونه عن مُسدّس

فصرخ صراخَ الفزَع : إيه يا شيخ ؟ إيه يا شيخ ؟ أتريد أن تقتلني ؟

وانزعج الرجل من فزع محمود عزمي فخرج !

وكانت أول مرة ضحكنا فيها بعد أن اكتأبنا يومين كاملين

عُوفي محمود عزمي أو كاد ، وسيسافر بالطيارة في يوم الخميس — في طيارة غير الطيارة التي تحمل جثمان المرحوم سيف — ومن حسن الحظ للأستاذ عزمي أن يعافَى بهذه السرعة وأن يسافر في الموعد الذي كان محدداً لسفره من قبل

* * *

بغداد كلها في جزع لما وقع في كلية الحقوق ، وبالرغم من التأويلات الكثيرة التي أُوّلت بها أسباب هذه الفاجعة الأليمة فقد ظهر العراق بمظهر الشهامة والنبل ، وأعلن أساه لمصرع الدكتور سيف ، وجميع الصحف

أنكرت الاعتداء وتمنت أن لا يكون بداية قطيعة بين مصر والعراق

وإني لأرجو أن تكون هذه الفاجعة أول وآخر ما يقع من هذا الضرب في بغداد ، فالسُّمعة الحسنة هي أثمن ما تحرص عليه الشعوب

* **

هذه الفاجعة أليمةٌ جدًّا

ولكني أحسب أنها ثمن النجاح الذي صادفته مصر هذا العام في العراق

وأغلب الظن أن العراق لم يعرف مصر كما عرفها في هذه السنة التي خُتمتْ بهذه النهاية الدامية

فهل أعتقد أن العَين حقٌّ ؟

هل يصح القول بأن الأوهام القديمة فيها شيءٌ من الصدق ؟

كانت مصر عنوان العروبة في هذه السنة ، وكان صوتها يرنُّ في جميع أجواز الشرق

كانت مؤلفات المصريين تزحم مطابع بغداد ، وكانت أصواتهم تملأ أندية بغداد

وكان انعقـاد المؤتمر الطبي العربي في مدينة الرشيد فرصةً طيبةً للتنويه بالمواهب المصرية ، فقد استطاع أطباؤنا أَن يؤلفوا بين الأطباء في سائر الأقطـار العربية ، وأن يكوّنوا منهم رابطة شرقية ستقوى على الزمان

* * *

كان قلبي يحدثني بأننا نسرع الخطوات أكثر مما يجب وأن ذلك قد يجرنا إلى مزالق

وهل أنسى أني دَوَّنت في هذه المذكرات منذ شهرين كلمات تشير بأنْ قد يقع بعض الذي وقع ؟

ألم أقل في التعقيب على حفلة توزيع الجوائز في كلية الحقوق إن من واجب الأساتذة المصريين أن يرحّبوا بالموت في سبيل تلاميذهم بالعراق ؟

إن فاجعـة الأمس تشرّف مصر ، إن كان في مصر

من يفهم قيمة هذا التشريف ، وهل كُتِب القتل إلا على الرجال ؟

كلُّ ما أخشاه أَن ينزعج المصريون لهـذه الفاجعة و يتهيبوا الاتصال بالشرق

كل ما أخشاه أَن تكون هذه الفاجعة وَقوداً جديداً للدسائس الأجنبية

أَلم تقل إحدى الجرائد الانجليزية : إن اعتماد العراق على الأساتذة المصريين يدل على أن الروابط العربية قد اصطبغت بصبغة جدية ؟

هذا كلام نقلته جريدة الاهرام في صباح اليوم الذي هاجرتُ فيه إلى بغداد ، ولا يزال محفوظاً بين أوراقي ، وما يسوغ في ذهني أن تمرّ هذه الصلات بدون أن تُحدِث رَجّةً مُخّيِّة في رؤوس أهل الغرب

ولـكن من الذي يفهم أن هـذه الصلات يجب أن يكون لها بين أبناء العرب شهداء ؟

إن الـكلمة التافهة قد تجد من ينقلها من أرض إلى

أرض ، فكيف يفرّط المفسدون في استغلال حادث سالت فيه الدماء ؟

أعتقد أن هذه تجربة قضت بها الأقدار ، وسنعرف إلى أي درجة وصلنا في التربية القومية ، وأخشى أن يثبت أننا لا نزال في بداية الطريق

* * *

اتصلتُ اليوم بمراسلي الجرائد المصرية في بغداد ورجوتهم أن ينقلوا إلى مصر عواطف أهل العراق

* * *

لا أزال محزوناً أشد الحزن مما رأيت وسمعت

فقد آذاني وآلمني أن يحتاج العراق إلى من يدفع عنه قالة السوء بعد أن أقام ألوف الشواهد على أنه من أقوى الحصون للأُخوّة العربية

وأهل العراق في هذين اليومين لم يكن لهم إلا حديث واحد هو التخوف من صدًى هذا الحادث في الأندية المصرية

ومن واجب العراق أن يتخوف عواقب القيل والقال

فمتى أرى إخواني في مصر لأُهوّن في أنفسهم وقع هذا الحادث الأليم ؟

إن المقال الذي أرسلتُه إلى جريدة الأهرام قد ينفع بعض النفع إذا وجد من يزكّيه من العقلاء ، وذلك ما أرجوه ، فالصحافة المصرية قد شبّتْ عن الطّوق ، وهي في الأغلب لا تنشر شيئاً إلا بعد تأمل ورَوِيّة

أنا أعاني من الضجر ما يهدُّ الجبال ، ويخيَّل إليّ أني سأموت قبل أن أرى أطفالي ، لا قدّر الله ولا سمح !

ومن العجائب أن هذه الفاجعة زادتني حبًّا في العراق ، ولا أعرف لذلك تعليلا واضحاً من الوجهة النفسية ، إلا أن يكون اشتباك الأحزان يزيد الألفة بين القلوب

لم نكن تجارًا حين قَدِمْنَا العراق ، وإنما كنا طُلّابَ مجد ، وللمجد تكاليف منها الدم ، فلنصبر إن كنا صادقين ، فلنصبر إن كنا صادقين ، فلنصبر إن كنا صادقين

وسلام الله على شهداء العلم والوطنية !

ليتني أستطيع أن أُفلح في تصوير ما طاف بقلبي من الخواطر في هذا المساء !

ليت ! ليت !

كان عليّ أن أجيب دعوتين : الأولى دعوة الرفاق رافائيل بُطي ومِنَشّي زَعرور وحسين تيمور ، والثانية دعوة الجار العزيز الذي يزدان بيته بسيدة مصرية

أما الدعوة الأولى فيرجع تاريخها إلى أسبوع يوم كانت الدنيا هادئة ، ويوم كان القمر في عُنفوان الشباب ، وكان أولئك الرفاق يريدون أن نقضي سهرة طريفة أرى فيها ملاعب بغداد قبل أن أفارق بغداد

ثم تغير منهج الدعوة مرةً واحدة ، تغير لأن الناس في بغداد لا يتحدثون في هـذه الليلة إلا عن نظام الجنازة التي ستُشيّع في صباح الغد من المستشفى الملكي إلى المطار المدني : جنازة الدكتور سيف

ولو وجدنا الشهوة إلى ارتياد الملاعب في هـذا المساء لصدّنا الذوق

وكيف ألهو ذات اليمين أو ذات الشمال وما رآني عابر سبيل إلا عزّاني في الدكتور سيف ؟

كذلك شاءت المقادير أن تكون الليلة الأخيرة من لياليّ في بغداد ليلة تحزُّن وتوجُّع واكتئاب

والحق أني كنت أحب أن أقضي سهرة سعيدة مع هؤلاء الرفاق ، فأوّلهم وهو رافائيل بُطي صديق قديم عرفته في الاسكندرية سنة ١٩٣٢ ولما وفدتُ على بغداد رأيته في حال لا تخلو من انزعاج بسبب مسلكه في الحياة السياسية ، ولكن أبت نفسي أن ألتفت إلى هذا الجانب لأني صديق ، ولأني ضيف ، والصديق يُدَّخَر لأوقات الشدائد ، والضيف لا يحقّ له التدخل في الأمور المحلية

وثانيهم منشّي زعرور ، وهو أول أديب عرفته في بغداد ، وما أذكر أني لاحظتُ عليه شيئاً يُعاب

أما حسين تيمور فهو تحفةٌ : لأن الابتسام لا يفارق

شفتيه ، ولأنه يحفظ أشياء كثيرة من غَزَل الأعراب

وكان في نيتي أن لا أستجيب لهذه الدعوة فراراً من هذا الظَّرف العصيب

كان في نيتي أن أقضي مساء هذا اليوم في منزل السيدة التي ترجّ الأرض والسموات حين تقول :

« قلبي مات ! قلبي مات ! »

السيدة التي يذكّرني وجهها بوجه أمي رحمها الله ، السيدة التي وُلدت في مدينة . . . والتي تشبه في كرمها ولطفها ملامح السيدة . . . والدة الصديق العزيز . . .

ليتني ما رأيت بغداد ، ولا عرفت عواطف النساء في بغداد !

* * *

طوّفتُ عصر اليوم بمنازل أصدقائي وقبّلتُ أيدي آبائهم وأمهاتهم ، وضممت الطفل الذي يشبه عبد السلام إلى صدري فطبع على جبيني قُبلتين

متى أراك يا عبد السلام ؟ متى أراك ؟

وأُهديتْ إليّ صور كثيرة ، وسأمزق بعض تلك الصور بالرغم مني ، حتى لا تثور زوجتي . وهل في الدنيا امرأة تصدق أن زوجها إنما يعشق الصباحة والجمال ليزداد إيمانه بخالق الصباحة والجمال ؟ تلك معان تعلو على أفهام النساء

ومن بين تلك الصور صورة الفتاة التي قالت في دَلال : أنا أجملُ أَم السيدة البصرية التي طلبت أن تراك وحدك يوم زرتَ البصرة ؟

وقد صرخ أخوها في وجهها وقال : ما هذه القِحة (وشدّد الحاء)

فقلت : أنت تخطىء في الألفاظ لأنك تخطىء في المعاني !

* * *

طوّفتُ بجميع شوارع بغداد إلا شارع العباس ابن الأحنف

وما الموجب لذلك ؟ لقد اختصمتُ مع ليلى و بلغتْ لجاجة الخصومة أبعد الحدود .

ولكني – ولا أكذب نفسي – أستأهل التأديب

كنت أستطيع أن أظفر بليلاي ظفراً أبديًّا

لو رُزقتُ مرونة التعبير وسهولة الترفق ، ولكن غرامي بالدراسات الفلسفية كدَّر أمامي جميع الموارد : فقد كنت أستثير غضبها من وقت إلى وقت لأعرف الدقائق من غرائز المرأة ، وقد عرفتُ من ليلى كل مجهول ، ولكنها ضاعت من يدي

اليوم أبكي على قلبي وأندُبُهُ

قلبٌ ألحَّ عليه الحبُّ فانصدعا

وقد أُعلل نفسي فأقول : هذا درسٌ ينفع في الأيام المقبلات

هاها ، هاها ! !

وهل ينفعني شيءٌ بعد أَن أُحرَم عطف ليلاي في العراق ؟

هى الغاية القُصوَى فان فات نيلها

فكلُّ مُنَى الدنيا عليَّ حرامُ

ومتى يسمح الدهر بأن أرى امرأة تحبني بمثل هذا الصدق ؟ متى أرى امرأةً تُدير عينيها الناعستين وهى تغنّي

يا نَبْعَةَ الرَّيحانْ حِنّي على الولهانْ

سأخرج من أحلامي كما خرج آدم من الفردَوْس

وسأذكر العراق إلى أن أموت : لأن ليلى هدتني في رحابه وأضلتني

سأذكر العراق بكل خير ، فهل يذكرني بالشعر يوم أموت ؟

لو كنت أعرف أن ليلى تبغضني لانتهيتُ وسلوتُ

ولكن ليلى تحبني ، تحبني ، تحبني

وما وقع مني ما وقع إلا لأني أحمق

ولا وقع منها ما وقع إلا لأنها حمقاء

ولن أَعقل وتعقل إلا بعد الفراق

* * *

ما أنتِ يا دنيا أرُؤيا نائمٍ

أم ليلُ عرسٍ أم بساطُ سلافِ

كانت ليلى تتوهم أني سأقضي بقية العمر في بغداد ،

وكنت أتوهّم أني سأقضي بقية العمر في بغداد

ومن هنا كان الحمق الذي تردّينا فيه

فلو كنتُ أعرف أن أيامنا في بغداد إلى زوال لسرني

أن أفتضح في هوى ليلى أشنع افتضاح

ولو كانت تعرف أننا قد نفترق لأرغمتني على ترك

الأدب والحياء

غداً ينتهي حُلم الحب فلا أرى ليلى ولا تراني

غـداً يشمت المقيمون بشـارع العبـاس بن الأحنف

وشارع صريع الغواني

غداً يكثرُ الباكون منا ومنكمْ

وتزداد داري من دياركُم بعدا

غداً تهتفُ ليلى فلا يستجيب مجيبٌ

وهل كنتُ إلا طيفاً زار في السحر بساتين الكرخ

وبغداد ؟

غداً أذكر أيامي بالعراق ، أذكرها بالدم القـاني ،

وأذكر الصديق الذي قال : ليتني أعرف من الذي أشار باستقدام الدكتور زكي مبارك إلى العراق !

لا تذكروا الرجل الذي أشار بأن أعرف العراق ، فما أحسبه كان يجهل أنه سيرميني في أَتُّون العذاب ، وسأعادي ذلك الرجل ما حييت

وماذا غنمتُ من العراق ؟

سيعود ناسٌ إلى أوطانهم صِحاح القلوب ، وأعود إلى وطني بقلبٍ ممزَّق لم تَبْقَ منه غيرُ أطيافٍ من الأشلاء

لو بقيتْ ليلى بجانبي تحرسني وترعاني ليلة الفراق !

لو برَّتْ ليلى بالوعد !

ألم تكن وعدتْ أن نبيت مُعتنِقَيْنِ ليلة الوَداع ؟

سأفارق بغداد ، فهل تمدُّ القاهرة ذراعيها لِعناقي يوم أعود ؟

وكيف والقلب يحدِّثني بأنني سأخاصم القاهرة في سبيل بغداد ؟

آه من ليلى ومن زماني !

ما أدري كيف أعجز في هذه اللحظة عن دفع الذكريات التي تنهال على قلبي

أنا تَعبان ، وأحب أن أستريح : فقد كتبت في أيام قصار ما كانت تعجز عنه الأسابيع الطوال

ولكن الخواطر تهجم على ذهني بلا ترفق ، وأشتاق إلى صحبة القلم أشد الاشتياق ، وأخشى إن دفعتُ هذه الخواطر أن لا أجدها بعد اليوم ، وهل يسمح الدهر مرة ثانية بأن أقضي ليلةً في توديع بغداد وأنا محزون ؟

إن من الناس من يحتال على الخواطر الشعرية ليلوّن بها آثارهُ الأدبية

وأَنا أَرى الخواطر الشعرية تنثال انثيالاً على قلمي ولساني ، فما الذي يمنع من التهجُّد في هذه الليلة لأُدوّن حسرتي على فراق بغداد ؟

دخلتُ هذه المدينة وأَنا خائفٌ أترقَّب ، فقد كنتُ أخشى أن أُطيع فِطرتي في الجدل والمناظرة فأُبتلَى بعداوات يعجز عن حملها كاهل الرجل الغريب

والواقع أن مواطنيّ في مصر آذوني ، فقد أجمعوا على أني رجلٌ غير مصقول ، وقد كنت اطمأننت إلى أنهم على حق ، فكففت عن الكتابة في الجرائد بعد أن عُيِّنْتُ مفتشاً بوزارة المعارف المصرية

و ما هي قدرتي حتى أعادي الحكومة وأعادي الناس ؟

لقد كانت جماهير كثيرة ترتاح إلى مصاولاتي في الجرائد والمجلات وتراني أُمدُّ الحياة الأدبية بالنار والوَقود

ولكن هذه الجماهير كانت تقف موقف المتفرج حين ترى جناية قلمي على معاشي

وقد تحمست الأندية الأدبية في مصر والاسكندرية لظهور كتاب « النثر الفني » فأقاموا لي حفلات التكريم مشكورين ، وطوّقوا عنقي بكرائم الخطب وجياد القصائد

ولكني لم أفهم أن من حقي أن أنتظر حماسة هؤلاء الرجال في كل وقت ، وأن أتخذ منهم ظهيراً أدفع به شر الحاقدين ، وهل يستطيع إبراهيم المازني أن يعادي الناس من أجلي كل يوم ؟

أَقول إني دخلت بغـداد وقد تأدبت بأدب الزمان فصممتُ على أَن لا أَعرف شيئاً غير دروسي وتلاميذي ، ونزلتُ أَولاً في فُندق تايجرس ، ولـكني عرفت منـذ أَول يوم أَن من تقاليد أَهل العراق أَن يسألوا عن ضيوفهم في كل وقت ، وصَعُبَ عليّ أَن أُعلن زهدي في لقاء من يسأل عني ، فانتقلت إلى منزل مجهول وأَعلنت في الجرائد أَني لا أَستطيع مقابلة أحد إلا في مساء يوم الخميس وفي نادي المعلمين

كـذلك احتجبتُ عن أهل بغداد

ولـكن من الذي يستطيع أن يفرّ إلى الأبد من نور الشمس ؟

لقد تعقبني أهل بغـــداد وعرفوا أين أُقيم بفضل ثرثرة ظمياء

وبعد شهرين اثنين كنتُ على صلات وثيقة بأكثر من ثلاثين داراً في بغداد

فكيف اتفق ذلك ؟ وكيف وثق بي كل من عرفت في مدينة الرشيد ؟

كنت أدخل تلك الدُّور كما أدخل المحراب ، وأهل العراق يحبون الرجل الأمين ويستريحون إليه . وأغلبُ الظن أنهم لم يروا ضيفاً في مثل أدبي وأمانتي

وما أَدري كيف اتفق لي أن أصوم عن الشبهات في أيامي بالعراق مع أني أعرف فيما بيني وبين نفسي أَني لستُ من الصالحين

ولعلها دعوةٌ استجيبتْ من دعوات أَبي وأُمي لحمتني من الآثام والمهلكات

ولكن الثقة التي خصني بها أَهل بغداد كدرت حياتي في بغداد بعض التكدير ، وأَين الصفاء المطلق فى هذا الوجود ؟

كان لي صديق يحب أن يعرف أَسراري وكان يتوهم بفضل ما فُطر عليه من الشيطنة أنني لا أَخلو في بغداد من صبَوَات

وكان هذا الصديق يطرق بابي في لحظات يعرف هو أنها لحظات الأنس في بغداد

كان يطرق الباب في النهار وفي الليل حتى تَدمَى كَفّاه ، ثم أُضْطَرّ إلى الاشفاق عليه فأفتح الباب فيقول قبل إلقاء السلام : شكُو عندك ؟ شكُو عندك ؟

فأجيب وأنا أبتسم : ماكو ، ماكو !!

فيقول : بلى ، بلى ، أَكو ليلى ، أكو ظمياء

وأفتح أمامه جميع الغرف فلا يرى ليلى ولا ظمياء

وما صدَقتُه القول ولا هدتْه عيناه : فقد كانت ليلى في قلبي ، وكانت ظمياء في فؤادي ، وما عشت في بغداد لحظة واحدة إلا وأنا معمور القلب بغطرسة ليلى ولطف ظمياء

والحقُّ أني كنت أغلق بابي في أوجه الزائرين لسببين .

السبب الأول : أن بيتي في بغداد أضحوكة الأضاحيك فهو عبارة عن مكتبة بلا رفوف ، وكل غرفة من غرفه تحتوي على بساط مغطى بالكتب والدفاتر ، وقد آذاني أن

يزورني بعض الصحفيين فيكتب في جريدته أني أقيم في حانوت ورّاق !

ومع لطف هذا الوصف فاني أذكر أنه آذاني أشد الايذاء

السبب الثاني : أن حياتي في بغداد كانت مملوءة بالأفكار والعواطف ، وما مرّ نهار ولا ليل بدون أن آنس بالدواة والقلم والقرطاس

وكان الظن أن أطرب للصلات التي عقدتها مع بيوت كثيرة في بغداد

ولكن هذه الصلات ساعدت على شقائي

كان البغداديون يُطْلعونني على أشياء من ذوات أنفسهم تُقِضُّ مضجعي وتشرّد نومي ، وكانوا يستريحون بإزاحة الستار أمام قلبي عن سرائر قلوبهم ، وما يعلمون أنهم يخاطبون شاعراً يتوجّع لآلام القلوب

وكَثُرتْ هذه المآسي أمام خواطري فعرفتُ أحزان بغداد من الكاظمية إلى الكرادة الشرقية ، وصرتُ لا أرى

نخلةً تداعب النسيم إلا سألتُ : كيف تجدين الحياة يا بنت بغداد !

وكنت أول الأمر أتوهم أن كل من يركب عربة في المساء يتوجه إلى موعد غرام ، فأمسيتُ أُوقنُ أن الناس لا يركبون العربات بعد الغُروب إلا ليصلوا بسرعة إلى أودية الشجون !

وطغى الحزن والكرب حين عرفت أن مشكلات المعاش في بغداد تشتبك بمعضلات العواطف ، فليس فيمن عرفتُ بهذه المدينة من خلتْ دنياه من هموم الجيب وهموم القلب

وقد استطعت أن أُنقذ خمسة بيوت من الخراب ، أنقذتها بالترفق لا بالمال ، لأن أهل بغداد يتسامون عن قبول الهدايا من الضيف

ومن الغريب أن يتم هذا كله بدون أن يفطن إليه أهل بغداد ، فالأسرة التي عرفتُها بالكاظمية تجهل كل الجهل أني موصول القلب بأسرة تقيم بالأعظمية ، وأهل

الأعظمية لا يتوهمون أن لي صلات بأهل البتّاوين ، والدار المحبوبة في الباب الشرقي لا تعرف أني متصل بالدار التي كان فيها قمر ابن زُرَيْق ، وسمكات دِجلة لا تصدّق أنني مشغوفٌ بسمكات الفُرات ، وأتباع عليّ بن أبي طالب لا يخطر في بالهم أني أحب أشياع عمر بن الخطاب ، وليلى نفسها تجهل أنني أحب ظمياء

ليت أيامي طالت في مكايدة ليلى و مداعبة ظمياء !

و زاد البلاء حين عرفتُ أن من أهل بغداد من لا يزال يذكر كتاب « الأخلاق عند الغزالي » و الغريب أن يكون من الشيعة بالعراق من يغضب للغزالي ، مع أنه من أقطاب أهل السُّنَّة ، و هذا جانبٌ متين من الجوانب العقلية في العراق

وهل آذيت الغزالي حتى يحلف ناس بالعراق أن لا يصالحوني من أجل الغزالي ؟

اتقوا الله يا فقهاء العراق إن لم تتقوا الذوق ، فالاسلام

هو دين الفكر ودين العقل ، وأنا ما خاصمت الغزالي إلا باسم الفكر والعقل .

ولم تكن هذه المُحرجات كلّ ما عانيتُ في بغداد ، فقد كان أطفالي يكتبون إليّ في كل أسبوع مرتين ، ولم تكن رسائلهم مما يُطَمْئِن في كل مرة ، وكان خصومي في مصر لا يزالون يذكرونني بما لا أحب في الجرائد والمجلات ، فضلاً عن المناوشات التي كانت تصوّب إليّ في بعض صُحف لبنان

وكنتُ إلى هذا كله مسئولاً أمام وزارة المعارف العراقية ومسئولًا أمام وزارة المعارف المصرية ، بغض النظر عن المسئولية الخطيرة أمام تلاميذي بدار المعلمين العالية ، وبغضّ النظر عن المسئولية أمام المصريين الذين يشتغلون بالطب والهندسة والتعليم في العراق

كنت أمشي بشارع الرشيد مشرّد الذهن فيصدمني أحد المصريين وهو يقول :

إيهٍ ، أنت متونّس في بغداد !

وليتني كنت متونّساً في بغداد !

وهل أنست في بغداد بغير سواد المداد وسواد الليل ؟

تلك شهورٌ طوال قضيتها في بغداد بثغرٍ باسمٍ وقلبٍ محزون

وهـذا القمر الشاحب الذي يعاني البؤس في الرابعة والعشرين من ربيع الثاني يعرف كيف أُداري بلائي

هـذا القمر الذي حييتهُ ألف مرة وهو يُطلّ على منارة جامع مَرجان يعرف كيف كان يعيش الروح الحزين في بغداد

هذا القمر يعرف من أخباري كل شيء ، ويشهد بأنني لم أتونّس في بغداد

هـذا القمر يؤمن بأنه لم يرَ الصبر على السهاد قبل أن يراني

وأيامي في بغـداد ستكون الفَيْصَل بين شيخوختي وشبابي

فاللهم عونَك على ما قدّرتَ من المكاره لأحرار الرجال

أين أنا مما ابتدأتُ ؟

كنت أحب أن أتكلم عن آخر سهرة قضيتها

في بغداد

كنت أحب أن أقول إنني ذهبت لملاقاة إخواني

في جريدة الأخبار

فماذا صنعنا بعد ذلك ؟

ذهبنا للعَشاء في أحد المطاعم بشارع الرشيد ، وكنا

نعرف أننا سنذهب في صباح الغد لتشييع جنازة الدكتور

سيف

رحمك الله يا سيف ، وجعل في الجنة مثواك !

انطفأت الأنوار ثلاث مرات في المطعم الذي اخترناه

وكان طعامنا شبيهاً بالسم الزُّعاف

هي ليلةُ كدَر لا تصلح لشيء ، والله المستعان على

غدر الزمان

* * *

وفي الساعة العاشرة مضيت إلى الجار العزيز أحييه
وأُحيي زوجته الغالية

فماذا رأيت ؟

رأيت الأطفال يئسوا من قُدومي فناموا

والذنبُ ذنبي ، فأنا الذي لم أُراع عواطف هؤلاء
الأصدقاء اللِّطاف

وأي أصدقاء ؟

هم أطفال يحسُّون بفطرتهم أني رجلٌ كريمُ الطبع ،
خفّاقُ الفواد

* * *

لقد تنفّس الصبح أو كاد

ومن واجبي أن آوي إلى فراشي لأستريح لحظات
عساني أستطيع في صباح اليوم أن أودّع جثمان الدكتور
سيف

بغدادَ

الوَداع ، الوَداع ، الوَداع ! ! !

يا راحلين

يا راحلين قفولي كي اودعكم
وداع مشتاق لا يرجو البقاء غدا
وكيف ابقى وقلبي لا يفارقكم
وهل رأيت بلا قلب بقى احدا

حبيبتك الوفيه
ليلى المريضه بالعراق
٢٨/٦/١٠

الدكتور زكي مبارك

علم الاسف ان يطلب الدكتور زكي مبارك استاذ الادب العربي في دار المعلمين العليا انهاء خدماته وقد وافقت وزارة المعارف على طلبه اعتباراً من ١/ ١٠/ ٩٣٨

ومهما اردنا ان نتحدث عن حضرته فنجد انفسنا عاجزاً والان كانت مدة سنة قضاها الاستاذ الكبير في ربوعنا كان في خلالها مثال العربي النبيل مضحياً باسعد ساعاته وألذ أوقاته في سبيل تثقيف ناشئتنا .

ومؤلفاته العظيمة ومقالاته عن العراق مما سوف تمر اعوام واعوام وأهل العراق يذكرون الدكتور زكي مبارك وما قام به في سبيلهم من خدمات .

فيا سيدي الدكتور بقلوب مملوءة بالاجلال والاحترام يودعك العراقيون . وفي قلوبهم الحسرة والألم لفراقك .

« انتهى الجزء الثاني و يليه الجزء الثالث »

عبقرية الشريف الرضي

كلمة نشرتها مجلة المكشوف للأستاذ خليل هنداوى

ليس الشريف الرضي رجلا مغموراً ، ولكنه رجل محدود . و ليس الشريف رجلا خامل العبقرية ، ولكن الحظ لم يسلمه زمامها !

والدكتور زكي مبارك في هذه الأيام رجل يلبي الحق أينما ناداه، ويهبّ إلى دعوة الملهوف حيثما تعالت . وكيف لا يكون طلاب الحق أصحابه وهو واحد منهم وكيف لا يكون الملهوفون إخوانه وهو ملهوف بُغيَ عليه ؟

الآن انتهيت من هذا الكتاب الجديد الذي لم يشر إليه الناقدون ولم يتحدث عنه الأدباء ، كأنه كتاب يخص كل الناس إلا هم ، وليس هذا الكتاب أول ما أطالع للدكتور مبارك ، فصحبتي لكتبه قديمة ، وما يوم « الأخلاق عند الغزالي » عني ببعيد

والطابع الذى تتّسم به هذه الكتب هو طابع العمل الجبار ، والذهن المتوقد والإخلاص للأدب . وما كان لهذا الذهن أن يحيد عن غايته برغم مايصادفه من عَنَت القوم ، وأنانية البعض ، وأذى الأصدقاء .

ولكنه ذهن يطلب إنصاف نفسه ، إن أعياه إنصاف الناس ، ويقنع بتشجيع ذاته إذا حرمه الناس التشجيع ، وكأن عاديات الحظ تأبى إلا أن تسجل للدكتور في كل برهة سيئة من سيئآتها ، فحياته خوض من كريهة إلى كريهة ، وحظه استنقاذ خيبة بخيبة . وقد يكون مايلقاه من الأصدقاء أشجى

عليه مما يلقاه من الخصوم . ولـكن هذا كله ما كان ليزيد الدكتور إلا تصلباً في همته ، وصعوداً فى عبقريته

والدكتور فى « عبقرية الشريف الرضي » وفِّق جد التوفيق فى شرح هذه الشخصية المجهولة ، وتحليل العوامل التي تألبت على تكوينها . وما كان الدافع له إلى دراسة هذه الشخصية إلا مايجده المؤلف من مشابهة بينه و بين شخصيته فى تدفق الإحساس ، وكآبة العاطفة ، وسواد الحظ . ولـكن العبقريين أو جُلَّهم ممن يهضم الناس حقهم أحياء ، ويعذرونهم وهم أموات . أما الشريف فكان مظلوما هضيم الحق فى حياته و بعد مماته . والآن يأتي صاحب « عبقرية الشريف » فينفخ فى هذه الجمرة المختنقة ، ويخرج منها لهب العبقرية

* * *

درج الدكتور فى تحليل هذه الشخصية على طريقة واضحة . وكانت دراسته مجموعة محاضرات ألقاها على طلابه فى بغداد ، وهو فى أكثر مباحثه يستعين على تحليل خفايا هذه الشخصية بشعرها

قد يلمح القارىء فى أول السطور أن الدكتور عاملٌ فى كتابه هذا على ردِّ حق للشريف الرضي تعامى الناس عنه ، ولكن الدكتور قد يجمح فى سبيل طلب هذا الحق كثيراً : فينال من عبقريات نَمتْ قبل زمن الشريف أو بعـده كعبقرية المتنبي . والمتنبي حظه وحظ الدكتور سواء ، لم ينصفه الناس إلا بعـد زمن ، أفمن الحق أن نجعل هذا الإنصاف كذباً وافتراءً ؟ وقد رأى الدكتور أن الشريف نفسه لم يسلم من تأثير المتنبي ، ولعل قصيدة الشريف الدالية المدرجة فى الصفحة ١٦٨ خير دليل على ما كان للمتنبي من سَطوة بيانية على روح الشريف

وهل يقول هذه الأبيات إلا شاعرٌ أحب قصيدة المتنبي الذائعة « عيدٌ بأيةِ حال عدت يا عيد ! » وهذه أبيات الشريف :

أُعيذ مجدك أن أبقى على طمع ... وأن تكون عطاياي المواعيدُ
مالي أُحب حبيباً لا أُشاهده ... ولا رجايَ إلى لقياه ممدود
أ كثرتُ شعري ولم أظفر بحاجته ... فسقّني قبل أن تفنى الأغاريد

فما لزكي مبارك لا يستخرج من هذه الأبيات روح المتنبي ؟

ولقد يعمد الدكتور إلى التهكم على أُدباء العصر ليريك كيف يجهلون شاعراً سمعتْ يوماً صوته الأرض . ومن هؤلاء الأستاذ على الجارم يسأل الدكتور عن صاحب أبيات ما عرف الأدب أذيعَ منها ولا أسْيَرَ ، وقد أثبتها الشيخ محمد عبده فى مقدمته لشرح نهج البلاغة وهى :

ولقد مررت على ديارهمُ ... وطلولهُا بيد البِلَى نَهْبُ
فبكيت حتى ضجّ من لَغَبٍ ... نضوي ، ولجّ بعذليَ الرّكب
وتلفتت عيني ، فمذ خفيتْ ... عني الطلول تلفّت القلب

وما منع الدكتور بحثه أن ينطلق فى كتابه هذا من نظرات محلية ضيقة إلى نظرات عالية إنسانية لا يوحيها إلا أدب رفيع ، وثقافة شاملة . وقد كنت أود أن أحمل معي القارىء إلى هذه النظرات المبثوثة فى كل فصل تتناول شتى المعاني لأن الناقد لا يريد أن يكون نقده صورة حاكية للشيء . ولو أراد الدكتور ذلك لما استطاع ، لأن قلبه أقوى من كل قلبٍ يتناوله ، وإحساسه أطغى من كل إحساس يعالجه . . . فكم يقف القارىء على أحاسيس هي أحاسيس الناقد لا الشاعر ، وفيض قلبه لا قلب غيره

وهو فى هذا يتبع طريقة النقد التأثري الذي يخرج أحكامه بحسب انفعالاته

الشخصية ، ومهما قيل في هذا النقد ، ومهما أُخذ عليه جوحه ، فالحقيقة أن النقد لا يخرج أبداً من دائرة الانفعالات الشخصية تنشئها في النفس عهود طويلة ، وقد يستطيع العلم المجرد أن يخفف من حدتها وأن يقلِّم من أظفارها ولكنه لا يستطيع أن يعدمها . ومتى تجرد النقد من هذه الانفعالات أضاع رونقه ، وفقد عنصراً هو فى الأدب قِوام الأدب ، وماخرج النقد يوما عن نطاق الأدب

وقد يأبى الدكتور إلا أن يذكر عَرَضاً قواعد نقده الأدبي النفسي في معرض كلامه عن المتنبي (ص ١٨٧) إذ يقول : « وأستطيع أن أهجم علىشاعر مثل المتنبي فأثبت أن معانيه كلها من الحديث المعاد ، ولكني لو فعلت لكنت من الظالمين، لأنى أعرف أن المتنبي أحسَّ معانيَ شعرِه أدق إحساس ، وكان يفترع المعاني افتراعا . . . لقد آن لنا أن نقيم النقد الأدبي على قواعد علم النفس»

وقد كنا نود من الدكتور أن يزيد قواعده هذه تحليلاً ، على أن مثل هذه القواعد إذا أفادت في تحليل الشخصية ، فهل تغني في تحليل الشخصية الأدبية ؟ الحق أن النقد عاملٌ فيه عوامل ، و حِقلٌ ينطوى على حقول ، و بينا ترى الناقد هنا يستعين بدرس البيئة والزمان ، يجد الضرورة تدعوه إلى شرح النفس شرحاً نفسياً ، ومن الحق أن تجتمع كل هذه الأنواع من الدرس لتتمكن من دراسة « نفس واحدة » وهيهات !

إن للدكتور ، كما قدمت ، امتيازات خاصة في بعض نظراته الأدبية ، فمثلاً بينما نرى الدكتور يتمسك بنقده القائم على قواعد علم النفس، نراه يذهب بعيداً وراء النقد القائم على تأثير البيئة والمكان .

واسمعه فى معرض القول عن عفاف الشريف (ص ١٣٣) : « إن الشريف كان من المتجمِّلين ولم يكن من المنافقين ، فهو قد عَشق بالفعل ، وكيف

لا يعشقُ والعراق بفطرته مفطورٌ على تقلب القلوب ؛ ألم تروا كيف يتلاعب جوُّه من صحو إلى غيم ، ومن برد إلى قيظ ؟. ألم تروا كيف تطيش أنهاره ؟ ألم تروا إلى أهله كيف يغضبون ويبسمون في لحظة واحدة ؟ ألم تلاحظوا أن العراق تفرد بمزية غريبة هي الإسراف : ففيه ظهر أعاظم النساك ، وفيه نبغ أكابر الفُساق . إن هذه الطبيعة المزدوجة هي الشاهد على تقلب القلوب ، والقلوب لا تتقلب إلا بقوة الإحساس ، والإحساس القوي هو مَنبَع العشق »

وهذه نظرية قوية لا أظن أن الدكتور كان يوفّق إليها لو لم يهبط العراق ، ويتلمس طبيعته المتوثبة ، ويعاشر قلوب أصحابه المتقلبة .

وحبذا لو انتقل الناقد من كلامه عن الطبيعة المزدوجة إلى النفسية المزدوجة ، وهل يجد بينهما ترابطاً ؟ ولكن هل كان الانتقال من بسمة إلى غضبة ، ومن حب إلى مقت ، إلا علامة ازدواج في النفسيات ؟

وبحثُ عفاف الشريف بحث ناضج يصف اصطراع العاطفة في نفس الشاعر وشاعرنا في مركز ديني قدسي يختلف عن غيره من الشعراء ، فهو تارة يريد أن يبث شكواه ويعبر عن عاطفته الحادة ، وتارة يغلب عليه العفاف فيخنق هذه العاطفة في قلبه ، ومن هنا تبدأ النظرية القائلة : « إن الفن نتيجة هذا الاصطراع »

ولقد رأيت أن هذا الجانب من الفن أكثر ما تراه العين في الشعر العراقي الشيعي ، وشاهدي على ذلك « العراقيات » وهي مجموعة مختارة من شعر عشرة شعراء محدَثين ، يحث الوجد أكثرهم ، ويكبت العفاف أنفسهم ، ولكن النار تأبى إلا أن تكون خلف الرماد .

وما هي العفة بعد ذلك ؟

إن عقل الشريف الباطن يقررها بحقيقتها فيقول :

وما عفةُ الإنسانِ إلا غباوةٌ إذا لم يُكافح داءَ وجدٍ مُغالبِ

فما أجمل هذه المكافحة للداء المغالب !

* * *

على أن الناقد يحمد للشاعر موقفه من فطرته ويرى أن « الشريف يستطيع أن يكون رجلا تقبَّل بمناه ، ولكنه لو عق فطرته لكان شيخاً تافهاً كألوف المشائخ الذين يسمح الدهر المخبول بأن يكونوا من أساتذة الأزهر الشريف »

ويأخذ الدكتور فى التحدث عن مواطن مختلفة طرقها الشريف ، منها « غرائب الوفاء ، والبكاء على الشباب ، وطلب المعالي ، والحب » وعند ما يتكلم الدكتور زكي مبارك الذى كان يعيش بين الأزهار والرياحين عن الحب ، وعند ما يتكلم الدكتور زكي عن غرائب الوفاء ، وهو الذي ابتُلي به يوم ابتُليَ أصدقاؤه بالغدر ، ينبغي لنا أن نصغي !

يريد أن يقرر سبب ثورة الحب فيقول فى ص ١٧٨ :

« وهل فى الدنيا أفظع وأشنع من أن ترى العين مالا تنال اليد ؟ إن هذا أصل الشقاق والنزاع بين طوائف الإنسان والحيوان ، وكل شقاء فى عالم الذوق والوجدان يرجع إلى أصل واحد هو أن ترى ولا تملك ، وهل يعرف أحد حقيقة اللوعة فى قلب الشاعر الذى يرى امرأة جميلة وهو يعرف أنْ لن تنالها يده ، وأنها مع ذلك قد تكون ملكا لرجل سخيف لايدرك أسرار الجمال »

وللشريف وثبات فى الحب تكنُّ عما يعتلج فؤاده ويحبس أنفاسه ، وليس المكان مكان اختيار روائعه فى الحب ، ولكني مجتزىء بهذه الأبيات التى انتقاها الدكتور وهي فى اعتقادي تعبر أقصى تعبير عن افتراع هذه الروح الشعرية للمعاني :

كِلِيني إلى ليل كأن نجومَه   تغازل طرفي عن عيون الجآذر
أمرُّ بدارٍ منكِ مشجوجةِ الثرى   بمجرى نسيم الآنسات الغرائر
تمرُّ عليهـا الريح وهي كأنهـا   تَلفَّتُ فى أعطاف تلك المقاصر

وإني لأشهد مع الدكتور أن للطبيعة أحاسيس ولـكن من عسى يؤمن بأحاسيسها غير الشعراء ؟

وللدكتور جولة صادقة في الصداقة والوفاء، وقد يعجبه من الشريف أن يبكي رجالا مجهولين بعد موتهم . ولـكن الدكتور يدلي إلينا بتعليل فني صادق كل الصدق فى معرض الفن والأدب ، يقول : « أما بكاء المغمورين المجهولين فهو فيض من الطبع الصادق والإحساس الأمين . ومثَل الشريف فى هذا البـاب مثَل الفنان الذي ينحت التماثيل ، فهو دائماً يوهم الجمهور أنه يصنع تمثالا لامرأة مجهولة أو رجل مجهول ، هو يخدع الناس حين يوهمهم أنه لا يهتم بغير تمثيل المعاني ، لأنه فى الواقع يستوحي صورة هى بعض مافى ضميره من دفائن الـكنوز . »

فما أوسع ضمير الفنان لهذه الدفائن ! ولـكنه ضمير لا يتسع على سعته إلا للـكنوز من النفوس

وقد تجد الدكتور فى إحدى خطراته شاكًا فى الحب ؛ وهو المؤمن الأكبر به ، مرتاباً في صدقه وهو الذي عاف كل شيء إلا الصدق

يقول فى الصفحة ٢٠٤ فى البكاء على الشباب :

« حتى الحب قد تزوّر فيه العواطف فيكون الدمع فى عين العاشق كالسم فى ناب الثعبان . إن تزوير العواطف مما يعرف الشعراء ، ولـكن هناك عاطفة لا تزوير فيها ولا رياء وهي سَورة الحزن على الشباب »

ولـكن ما لنا لا نسأل الدكتور : ولماذا يسور حزن المرء على الشباب ؟

أليس الشباب مطية الحب الوحيدة ، يركب عليه ، ويمشي في موكبه ، ويهلل في عرسه ؟ ولكن لهذا التشاؤم عوامل من استجلاها لا يستغربها ، وألفُ حمد وحمد للدهر الذى ابتلَى قلب الدكتور بكثير ، وأبقى منه بقيةً تهجس بالحب وتضحك للحياة

وإزاء هذه النزعة النفسية تتيقظ في نفس الدكتور نزعةٌ قومية عربيةٌ خالصة أوحاها إليه جوُّ العراق ، وتركه يؤمن بها أصدق الإيمان ، فهو خلال محاضراته يستثير الشعور القومي ويذكي الروح الأدبي

وبينما نرى الشريف يبكي على الشباب نرى الدكتور ينفخ في روح الشباب ، فيهتف بالقوم : « يا قومنا بيننا أواصر الآداب وهي أقوى الأسباب » ويقول عن شاعره « إنه رجل عظيم يضر وينفعُ ويُبرم ويَنقض ، ولا يبيت إلا وهو مثقَلٌ بهموم الرجال »

ولا ينسى أن يبدي ما يتمناه على لغته فيقول

« وما أنا بلاهٍ ولا عابث ، وإنما أنا رجلٌ يبكي مصير لغته بين اللغات ، ويؤذيه أن تصبح لغة جامدة غبية بليدة ، إنها لن تنهض إلا يوم تصبح قيثارةً تعبر عن المآسي الإنسانية ، وأخطر المآسي هي مآسي القلوب »

أما حكمنا على الشريف الرضي فنتركه للدكتور يطلع به على القارىء في جزأين ضخمين يضمان الكثير من شواهد شعره الرائع ، وما أروع قصيدته في وصف الحيرة وقد نظمها قبل موته ، وقصيدته الغزلية التي مطلعها :

من شُافعي وذنوبي عندها الكِبَر . . . .

راحت تُريح عليك الهمَّ صاحيةً وعنـد قلبك من هم الهوى سَكَرُ

هذا الكتاب ينطق عن روح الشريف وعن روح صاحبه الدكتور ،

لأن صاحبه يكتب بإحساسه ويستشهد بعاطفته ، وكنت أقول منذ بدأت بالتلاوة : « ما هذا ؟ لغته فيه شعر ، وشعرٌ فيه إحساس متوقد » حتى جئت فى آخر الكتاب على هذه الجملة البليغة :

« ورثيته أنا بقصيدة طويلة جداً هى هذا الكتاب »

وجميل أن يحلل الشعرَ شعرٌ ، وأن يتحدث عن الشاعر شاعر . وإذا كان الشاعر الرمزي « ستيفان مالارمى » يتشدد كثيراً على قراء الشعر حتى ليطلب إلى قارئه أن يسمو حتى يصبح شاعراً ، فكيف الأمر مع من يريدون أن يحللوا الشعر ؟

وبعد — إذا تركك النقد أيها الدكتور تضيِّع أصدقاءك ، فإنا نريد أن يجعلنا النقد لك من الأصدقاء ؟

خليل هنداوي



كلمة للأستاذ على الطنطاوى

في كتاب « عبقرية الشريف الرضي » فصول قيمة . أما الجانب الإنشائي فقوي جداً ، لما لأسلوب الدكتور مبارك من الجمال ، وما عليه من الطلاوة . وأشهد أن الدكتور في بعض نثره لأشعار الشريف أو تعليقه عليها أشعر منه ، وأثر نثره أعمق في النفس أحياناً من أثر شعر الشريف .

والكتاب قيم ممتع ، وفيه صفحات تضم أجود البحوث وأجمل الصور ، ثم إنه حلقة مستقلة في سلسلة التاريخ الأدبي : لأنه أول كتاب ألف في درس شعر الشريف ، ولأنه يضم أجمل شعره . ولولا أن الدكتور يقوم بمشروعات أدبية كثيرة يضيق العمر عما يجب لها جميعاً من إحاطة واستقصاء ، ويأبى إلا أن يشتغل بإنجازها جميعاً في وقت واحد لخلا كتابه من العيوب . ولكن الدكتور يحب العمل والإنتاج الكثير فيضطره ذلك إلى السرعة .

ومهما يكن من أمر فإن لزكي مبارك أثراً في العراق لا يمحى ، ولمقامه في العراق أثر في الأدب لا يبلى ، فليكتب زكي مبارك ، وليسرع النقاد إلى نقده : فإن ذلك كله غذاء للأدب وقوة له ؟

على الطنطاوى

نقلا عن « مجلة العالم الاسلامى »

كلمة الأستاذ حافظ محمود

قال لي الدكتور زكي مبارك مؤلف « عبقرية الشريف الرضي » وأنا أهنئه على إخراج هذا الكتاب الضخم ، وأشير في التهنئة إلى سعة هذا الكتاب ، قال : اقرأ منه « أعوام البؤس » فإنك ستعرف فيها الشريف الرضي ، وستقرأ فيها زكي مبارك أيضاً . وعكفت على قراءة هذا الفصل الخاص بأعوام البؤس في حياة الشريف ، ثم انصرفت إلى قراءة الفصول التي تسبقه ، ثم إلى قراءة الفصول التي تلحقه ، فلم أجد في فصول الكتاب بجزءيه خيراً من هذا الفصل .

* * *

يصدّق الدكتور زكي مبارك صاحبه الشريف الرضي في دعوى اضطهاده وظلمه وغبن الناس له ؛ ولست أدري كيف يكون هذا الشاعر مغبوناً وقد وجد مؤلفاً كالدكتور مبارك يكتب فيه كتاباً في جزءين يشتمل كل جزء منهما على مئات الصفحات . . . إنها لحسنة لزكي نرجو الله أن يثيبه في تاريخه الأدبي عليها بمثلها إن لم يكن بعشرات من أمثالها .

تأخذك حرارة المؤلف في هـذه الدعوى ، فتنضم إليه في رأيه القائل بأن الشريف الرضي رجل لم يأخذ نصيبه من دنيا الأدب والأدباء في حياته ، ولا بعد مماته ، فما تـكاد تصل إلى صفحة ١٥٣ من الجزء الأول حتى يشكك المؤلف نفسه في صحة هذه الدعوى : ذلك أن المؤلف يرى أن الأدباء المعاصرين للشريف قد ناهضوه واضطهدوه ، أو اضطهده الناس من أجلهم ، لـكن الدكتور زكي مبارك عالم مأخوذ في تأليفه بأسلوب العلماء ؛ فما يكاد يذكّره صديقه الأستاذ

طه الراوي بعطف المعري على الشريف في مرثيته لوالد الشريف التي يقول في مطلعها :

أودى فليت الحادثات كفاف   مال المسيف وعنبر المستاف

حتى يثبتها زكي ، فيشكك - من حيث لايدري - في دعوى اضطهاد الشريف الرضي .

الواقع أننا حين ننتقل إلى الجزء الثاني من كتاب (عبقرية الشريف الرضي) لمؤلفه (زكي مبارك) نرى في هذا الشاعر رجلاً محظوظاً جديراً بأن يحسده الناس ، لا أن يحسد الناس ، فالشريف الذي يشكو الصحاب كان له صحاب مخلصون ، وهو القائل في صديقه (ابن حمد) :

وكنت إذا ضاقت مناديح خطة   دعوت ابن حمد دعوة فأجابها

أخ ليَ إن أعيت عليَّ مطالبي   رمى ليَ أغراض المنى فأصابها

إذا استبهمت علياء لايهتدى لها   قرعت به دون الأخلاء بابها

ماذا يرى الشريف الرضي وماذا يرى صاحبه زكي مبارك في الصداقة إلا أن يكون للرجل مثل هذا الصديق ؟ !

ليس هذا فحسب ، بل إن الشريف كان محظوظاً في علاقاته بالجنس الآخر ، و هاهو المؤلف يقول لنا في مقدمة فصل « غراميات الشريف الرضي » :

« لقد شاع في المشارق والمغارب أن الشريف الرضي كان من المغرَمين ، فقد كان القدماء يضربون الأمثال بقصائده الحجازيات ، فيقولون مامعناه : لا تصقل نفس المتأدب إلا إن حفظ هاشميات الكميت ، وخمريات أبي نواس ، وزهديات أبي العتاهية ، وتشبيهات ابن المعتز ، ومدائح البحتري ، وحجازيات الشريف الرضي »

وهو القائل :

تضاجعني الحسناء والسيف دونها ضجيعان لي والسيف أدناهما مني
إذا دنت البيضـاء مني لحاجة أبى الأبيض الماضي فأبعدها عني

فهل يمكن لرجل شاعر أن يبعد البيضاء عنه إذا لم يكن ذا نصيب من الحسان ! ؟

إن هـذا الرجل الذي تضرب الأمثال بغزلياته في حسان الحجاز أيام الحج لايمكن أن يكون قليل الحظ عن عفة أو قسوة من عواطف الحب وملاعب الغرام .

ماذا تبغي لشاعر أخذ نصيبه من الحب والصداقة حتى لا تـكون الحياة قد بخست حقه من هنائها ؟ إنه يروم المجد ، وليس فيما يقدمه لنا المؤلف من تاريخ الشريف وشعره ما يدل على أن الشاعر قد افتقد المجد في حياته فلم يجده ، فهاهو الشريف ينادد الأمراء والخلفاء ، وها أنت تقرأ فيما يسوق المؤلف من شعره ثلاثة أبيات يخاطب بها الخليفة القادر حيث يقول :

عطفاً أمير المؤمنـين فإننـا في روضة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبداً كلانا في المعالي معرق
إلا الخـلافة ميزتك فإنني أنا عاطل عنها وأنت مطوق

اللهم إلا أن تصح رواية بعض الناقدين الذين زعموا الشريف الرضي طامعاً في الخلافة لنفسه ، وجاء زكي مبارك يبرئه من هذا الزعم ... وسواء أكان هذا الزعم صحيحاً أو غير صحيح ، فقد كان الشريف حقاً يشعر بحاجة إلى أمجاد جديدة لشخصيته فوق هذه الأمجاد التى توارثها عن أبيه وجده وعبقريته ، وهذا الشعور هو الذي جعله يقول :

رُمتُ المعالي فامتنعن ولم يزل أبداً يمـانع عاشقاً معشوقُ

لكن ماحيلتنا نحن وما حيلة الحقيقة العلمية في ذاتها إذا كان الشاعر لا تقف

أهواؤه في المجد عند حد بعينه ؟ لم يكن الشريف فقيراً فيجملة حياته ، ولا محروماً في شبابه كله ، ولا قعيداً دون المراكز الأدبية العالية في رجولته ، ولم ينسه الناس بعد موته ـ كما يظن المؤلف ـ بدليل أنهم لايزالون يتمثلون بمجازياته ، ويعتبرونها إحدى مشخصات الأديب فيالأدب العربي . فإذا كانت لهذا الشاعر هوية نجهلها ويزيد في غموضها أمامنا إنكار مؤلف « عبقرية الشريف الرضي » أنها الخلافة أو الحكم ، إذا كانت لهذا الشاعر هوية نجهلها فوق مستوى العاطفة وفوق مستوى الحياة الأدبية والاجتماعية ولم يحققها له القدر ، لأنها شيء لايتحقق فليس هناك مايبرر الرثاء له واتهام الناس بجحده

ألا إنه هيام زكي مبارك بالجد والجد استقر فيتاريخ الشريف الرضي خلال إقامته السعيدة في بغداد ، فاستجلب جبروت فكره لهذا الهيام ، وأنجبت أفكاره هذين السفرين الجليلين في « عبقرية الشريف الرضي » . . . وأنت قد تخالف الدكتور زكي مبارك في تفاصيل آرائه التى يراها في الشريف وقد توافقه على هذه التفاصيل ، لكنك في النهاية لا بد متفق معه على هذه العبقرية التى عقد لواءها للشاعر بمؤلفه الفياض .

أجل قد تخالف الدكتور زكي في تفاصيل آرائه التى يراها في الشريف وقد توافقه على هذه التفاصيل لكنك في النهاية معجب بهذا المجهود العلمي الكبير الذي بذله فيتصوير الحياة الاجتماعية والسياسيةفي عهد الشريف الرضيوأثر هذه الحياةفي نفسه وفي شعره بعد هذا الشرح المستفيض لما يمس الحياةالبيتيةالخاصة من هذه الحياة الاجتماعية العامة في حياة الشريف . ويزيد في تقديركلمجهودهأن مراجعه في هذا البحث مراجعليس فيها هذا التحليل كله ولا هذا التفسير كله لحياة الأدباء والعلماء ؟

حافظ محمود

نقلا عن « السياسة الاسبوعية »

كلمة الاستاذ أحمد حسني عبد الحميد

كان طبيعيًّا ، بل كان لزاماً عليّ لنفسي أن أمتعها بالكتاب الجديد الذي أخرجه الدكتور زكي مبارك عن عبقرية الشريف الرضي ، وأقول : كان هذا لزاماً عليّ لأسباب : منها أن الرجل جدير بأن يحفل بإنتاجه الأدبي كل قارىء أو مشتغل بالأدب أو شغوف بما تدبج يراعات الأدباء ، ومنها أنني كمصري فخور بما قدم الرجل من خير في غربته ، فقد شغل نفسه طيلة إقامته في العراق بما يجدي وينفع ، وقلما يسافر الناس في بعوث أو في رحلات أو في مهمات أو في رياضة ليعود الواحد منهم بسفر ضخم مشرّف لمصر والعراق وللشرق العربي أجمع .

لم نشأ أن نكتب عن كتاب عبقرية الشريف الرضي قبل أن نقرأه كله ونقف على ما فيه من رائع الآثار و بديع العرض وجميل الأسلوب .

وما كان من اليسير على من شغل بعمل يومي ملح أن يقرأ كتاباً ضخماً من جزءين في وقت أقصر من الوقت الذي قضيناه في قراءته ، أما وقد قرأنا الكتاب من أول سطر إلى آخر سطر فيه فإنا لموفوه من رأينا مايستحق .

أولاً وقبل كل شيء نحمد الله إلى الدكتور زكي مبارك لأنه نظر إلى الشريف الرضي بعين الرضا فأكرم مثواه وردّ الجميل إلى العراق الذي أكرم مثوى مؤلف الكتاب وأذاقه من حلاوة البيان الشهد المصفّى، وقلما يحلو لسان الأديب الثائر ذي القلم العنيف في النقد الذي يتوقاه من تضيق صدورهم بالنقد الأدبي وقليل ما هم ، ونحمد الله إليه أن عامل الشريف الرضي معاملة الصديق

للصديق ، وسار معه سير الصديق مع الصديق ، فبدأ الكتاب صديقاً ، وختمه صديقاً ، ولولا أن أتاح الله للدكتور زكي مبارك صفاء الذهن في العراق بإبعاده عن ليالي سنتريس وحرمانه من ليلى التي تركها مريضة في الزمالك وتفرغ في دار المعلمين العالية ببغداد بكلياته وجزئياته وأعصابه للشريف الرضي ، لولا ذلك كله لما أجاد الدكتور زكي مبارك في تقديم الشريف الرضي لقراء العربية ولما مكنته براعته من الاعتراف للشريف الرضي بالنبوغ والعبقرية ، وإهداء صورته في إطار من مجد وجلال إلى العراق وإلى مصر وإلى الناطقين بالضاد .

ولا بدّ قبل المضي في عرض فصول الكتاب أن نقول إن طريقة البحث الفنية التي اتبعها الدكتور زكي مبارك في إعداده طريقةٌ مبتكرة جزلة سهلة سلسة القياد تشهد لعقليته بمزيد من نضوج ولأسلوبه بمزيد من جمال ، وتدل على مقدار ما أفاد الدكتور زكي مبارك في رحلاته الأخيرة التي هذبت أسلوبه فوق تهذيبه فصار مزيجاً من الأدب العربي والأدب الفرنجي كأنه شرابٌ شهيٌّ سائغ للشاربين .

ولقد علمنا فيما علمنا أن الكتاب لم يدرّ على الدكتور المؤلف خيراً كثيراً أو خيراً قليلاً ، وقيل إن أعداده ذهبت هدايا في العراق وفي مصر . ولا شك أن الدكتور زكي مبارك ، وقد طاب نفساً بالكسب المعنوي دون الكسب المادي ، قد اقتدى في ذلك بالشريف الرضي الذي كان يقول الشعر للشعر ، والذي اتخذ الشعر وسيلة إلى الغاية والمرمى ، وفي هذا يقول الشريف الرضي

وما قوليَ الأشعار إلا ذريعةٌ ... إلى أمل قد آن قود جنيبهِ
وإني إذا ما بلّغ الله غايةً ... ضمنت له هجر القريض وحُوبه

ويقول أيضاً :

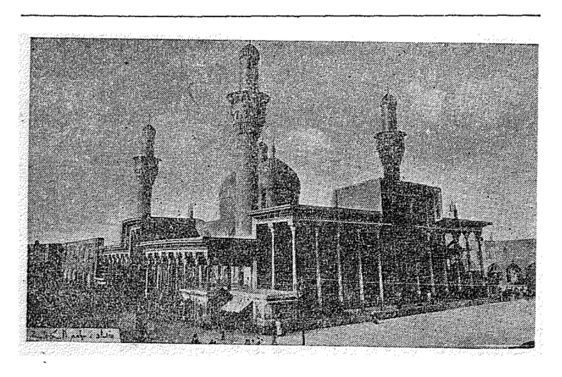
وما الشعر فخري ولكنما أطول به همة الفاخر
أنزهه عن لقاء الرجال وأجعله تحفة الزائر
وإني وإن كنت من أهله لتنكرني حرفة الشاعر

فهل ابتغى الدكتور زكي مبارك الكرامة قبل أن يبتغي المال من كتابه ؟ إن كان ذلك فالله يشهد والمنصفون أن الرجل بكتابه قد أدى الرسالة ، وحفظ الكرامة : كرامته وكرامة مصر ، فكان عاملاً بما نقله عن الشريف الرضي

مدحت أمير المؤمنين وإنه لأشرف مأمول وأعلى مؤمم
فأوسعني قبل العطاء كرامة ولا مرحباً بالمال إن لم أكرّم

أحمد حسني عبد الحميد

نقلا عن « جريدة المصري »



ويقال إن الشريف الرضي دفن بالكاظمية . ولأخيه المرتضى ضريح يزار بالكاظمية

زكي مبارك كما عرفته
على ذكر كتابه الجديد
« وحي بغداد »

بقلم الاستاذ عبد الله حبيب

اللهم إني أسألك السلامة !

اللهم إني أسألك العفو والعافية !

اللهم إني لا أسألك رد القضاء ، بل أسألك اللطف فيه ! ! !

اللهم إن كنت كتبتني عندك فى أم الكتاب مقضياً عليّ بتصوير زكي مبارك فألهمني من لدنك قوةً وعزماً ، وهبني اللهم قلباً لا يرهب ، وجناناً لا يضطرب

* * *

لا ، يا ابنتي ! دعي الأوراق لا تعبثي بها ، دونك أثاث البيت كله ، ودونك كل أمتعتي وكتبي ، إلا هذه الأوراق التي أمامي ، فإني أعددتها لأصور فيها زكي مبارك

وأنت يا ابنتي في ربيعك الثاني فلا تعرفين شيئاً عن زكي مبارك ، ولكنك تعرفين « البُعْبُع » فإن أمك سامحها الله قد أخطأت كما يخطيء كثير من الأمهات

فألقت فى رُوعك أن في الدنيا شيئاً اسمه « البُعْبُع » وتصورت أنت لهذا الشيء المخيف أبشع صورة ، فشقيتِ به فى يقظتك وفى أحلامك ، وإنها لقسوة بالغة من أمك أن تعرفي الشقاء والخوف والفزع فى ربيعك الثاني ، ولقد كان حسبك ما قد يضمر لك الغد فى مقبل دنياك .

دعي الأوراق ياابنتي ! فسأصور فيها شخصية مخيفة مرعبة لم يسلم من أذاها أحد إلا الذين نجوا بأنفسهم عن الدنو منها ، فأولئك وحدهم هم الذين كتب الله لهم السلامة .

ستكبرين يا ابنتي وستشهدين — فيما ستشهدين من عجائب الدنيا — « زحمة آدمية » يقال لها : « زكي مبارك » وسترينه — كما هو — لا يتغير ولا يتبدل ، وستعجبين لهذه الكتلة من اللحم والدم والأعصاب التي لا تنال منها الأيام ، ولا تهدُّها الأعوام .

ستكبرين وستشهدين ، وستعرفين يومئذ أن أباك كان شجاعاً يوم سولتْ له نفسه أن يستهدف لخطر تصويره بالقلم على القرطاس .

ستكبرين وستقرئين عن مصوري « الأفلام السينمائية » الذين تبعث بهم الشركات إلى مجاهل الصحارى والقفار والغابات لتصوير الوحوش الضارية ، وكيف يُلقي هؤلاء بأيديهم إلى التهلكة فى سبيل فنهم الذي يعملون له ، وأنهم لا ينجون بأنفسهم من مخالبها وأنيابها إلا بفضل ما تبذل شركاتهم فى سبيل حمايتهم وتزويدهم بمخترعات العلم الحديث التي تقيهم شر هذه الوحوش .

ستكبرين ، وستعرفين أن أباك كان أشجع من هؤلاء جميعاً لأنه وحده استطاع أن يدنو من هذه الشخصية ، وأن يصورها فى أوضاعها المختلفة وجوانبها العديدة دون أن يخشى أنيابها ومخالبها !

ستعرفين أن لقلم « زكي مبارك » أنياباً ومخالب كأنياب الوحوش ومخالبها ، وستعرفين أنه يُعمل هذه الأنياب والمخالب في كل من يمسه ظالماً أو غير ظالم .

دعي الأوراق يا ابنتي فسأكتب . . .

والأمر لله من قبل ومن بعد !

* * *

منذ خمسة وعشرين عاماً أو ما يزاهي هذه الأعوام أمر المغفور له السلطان حسين كامل أن تُعقد مباراة في الشعر والخطابة والإنشاء بين المعاهد الثلاثة : الأزهر، ودار العلوم ، والقضاء الشرعي . وأراد كل معهد أن يختار من بين طلابه نوابغ الشعراء والخطباء والكتاب ليكونوا عدته في هذه المباراة ، وكان مدير المعاهد الدينية هو المرحوم الشيخ محمد حسنين العدوي ، فألف لجنة من خيرة علماء الأزهر لتختار من بين هؤلاء الطلاب خطيباً وشاعراً وكاتباً ليكونوا عُدة الأزهر في المسابقة العامة بين المعاهد الثلاثة ، وعُقدت هذه المباراة التجريبية في جامع محمد بك أبي الذهب ، وشهدها جمع غفير من الطلاب والعلماء . وكنت قد وفدت في هذا العام أو الذي قبله إلى الأزهر طالباً ناشئاً ، فرُحت أشهد هذا الحفل ، وإن كنت إذ ذاك لا أقوى على المفاضلة بين شاعر وشاعر ، أو خطيب وخطيب ، وكان طبيعياً أن تكون ملاحظات مثلي في هذه السن ملاحظات شكلية لا تتصل بمعدن الشعر والخطابة .

. . . وتعاقب الشعراء والخطباء . . . ثم انبرى لإلقاء قصيدة من شعره فتىً أزهري لا تنمّ عن أزهريته سِمة أو صفة ، ولولا أن الذي قدّمه لإلقاء قصيدته أعلن أنه أحد طلاب الأزهر لما عرفتُ من سيماه أزهرية قديمة أو حديثة ، حسبته بادئ الأمر أحد تجار الغلال قد دَس نفسه بين طلاب الأزهر ، وإلا فأين

شحوب أبناء الأزهر وما ينتاب أجسامهم من هزال ، وأين ما يتميز به المجاوز من ضعضعة وانكسار ؟

هذا الجسم المكتنز ، وهذا الوجه الأحمر المتطلق ، وذلك الأنف الكبير المتقوّس ، وهاتان الشفتان الغليظتان اللتان تنمان عن النهم والحيوية المتدفقة ، وهذه الألواح العريضة المنبسطة ، وهذا « المنحر » المنتفخ الذي تحيط به « ياقة » الجبة والقفطان ، وذلك الصوت الناشز المدوّي :

قيل لي يومئذ إنه زكي مبارك ، وعلمتُ في نهاية الحفل أنه ظفر بلقب « شاعر الأزهر » وإنه هو الذي سيمثل معهدنا في المباراة العامة بين المعاهد الثلاثة ، ولا أذكر اليوم ماذا كان من شأن هذه المباراة .

طربتُ لشعره ـ إن جاز لمثلي أن يطرب لشعر في مثل سني ـ ونفرتُ من هيكله ، وآذى سمعي صوته ، وتمنيتُ أن لو قال مثل هذا الشعر فتىً من الفتيان الآخرين الذين شهدتهم وراقني مرآهم وأثرتْ في نفسي نبراتهم .

وقدّر لي بعد ذلك أن ألتقي بزكي مبارك في الجامعة المصرية في عهدها الأول ، وكنت أختلف إليها طالباً ، وكان هو قد سبقني إلى الانتساب إليها .

وكان ذلك العام أول عهدي بمعرفتي به معرفة الدارس المتأمل . . . كان « شيئاً » عجيباً منذ نشأته تلك ، فقد كان يباين الطلاب جميعاً في كل مظاهر الحياة : كان الطلاب يتأنقون في ملابسهم قدر ما تسمح به الظروف لطلاب يغتربون في طلب العلم بعيداً عن أقاليمهم ، وكان هو من بينهم « الدرويش » المتقشف الذي اختار رَبع الغورية العتيق لسكناه ، والذي قنع من دنياه بمترهل الثياب ، أو الذي حبب إلى نفسه هذا النوع من « البهدلة » المعيشية التي تشبه فوضى البوهيميين : كانت عمامته أشبه بعمائم البنائين في أعلى العمائر لا يُقرئ

الهواءُ المتدافع منها طَرَفاً على طَرَف ، وكانت جبته قلِقة فوق قفطانه منخلعةُ الأطراف لا تستقر ولا تنسجم على جسمه ، لأن جسمه لا يعرف الاستقرار أو الانسجام ، وكان حذاؤه يُطلُّ وقد تدلّى عليه الجورب ، معفراً مغبراً كأنه قد تكفل لمصلحة التنظيم بحمل الأوحال والأتربة التي تعجّ بها الأحياء الوطنية إلى ميدان الأزهار كل مساء فى طريقه إلى الجامعة المصرية . وكان منظاره الغليظ الذي يحمله فوق عينيه يتدلَّى إلى منتصف أنفه الطويل المقوّس ، فيبدو كالكهول من صيارف القرى ، وكان شعره الكَثّ الأشعث يبدو من تحت عمامته ويغطي جزءاً من ظهر أذنيه الواعيتين ، فيدعه صاحبنا يتمرد ويتلوّى ويتدلى ، فلا يخضع لمقص حلاق ، ولا يعبأ بتأذي الرفاق ، وكان إذا مشى باعد مابين ذراعيه وجسمه وفرطح خطاه وراح يهرول فى مشيته تاركاً ذيل الجبة لعبث الهواء

كان كل شيء من ظاهر هيكله يخالف النظام والانسجام !

وكان عقله يمثل فى تصرفاته هذه « الدروشة » التي تتمثل فى هيكله : فكان لا يعرف الحدود أو القيود ، وكان لجوجاً فى نِقاشه وجَدَله ، لايسلم من لجاجته طالب أو أستاذ ، وكان جريئاً مقتحماً لا يعرف الخوف من موقف يدعو إلى الخوف ، ولا يعرف الانزواء حيث يجب الانزواء ، وكانت « مفارقاته » تتتابع وتتلاحق ، فلا نفيق من « مفارقة » منها إلا إلى « مفارقة » . . . . فالآنسة « ميّ » كانت هي الآنسة الوحيدة التي كانت تشاركنا فى الاستماع إلى محاضرات الجامعة فى ذلك الحين ، وكان لوجودها بيننا رهبة لا يحسها إلا من عرف كيف كان تحجُّب الفتيات فى ذلك الزمان ، فكانت بيننا كالزهرة المحوطة بالأشواك والأسلاك لا يدنو منها أحد ، ولا نظفر منها إلا بمتعة النظر البريء ،

ولم يكن منا من يجرؤ على محادثتها أو محاولة التعرف إليها . . . إلا صاحبنا زكي مبارك ، فهو «وحده» الذي يرى نفسه أهلاً لأن يصل إلى قلب «ميّ» ويقتحم مابيننا وبينها من سدود وحدود . وهو أيضاً الذي يختار الشاعر عمر بن أبي ربيعة موضوعاً لمحاضراته التجريبية التي كان يلقي مثلها الطلاب في الجامعة تدريباً لهم على إعداد المحاضرات وإلقائها . فإذا عرفت أن عمر بن أبي ربيعة الذي اختاره زكي مبارك دون سائر الشعراء هو الشاعر القرشي المثريّ الجميل المعشوق من نساء البدو والحاضرة ، أقول : إذا عرفت هذا عرفت مقدار ولع زكي مبارك بكل ما لا ينسجم مع ظاهر هيكله .

وإذ ذكرتُ هذه المحاضرات التي كان يلقيها صاحبنا فى الجامعة المصرية منذ عشرين عاماً ، كان من الإنصاف أن أذكر بالتقدير والإعجاب ما بذل فى إعدادها من الجهد المشكور والجرأة الفائقة ، كما يجب أن أذكر حفاوة المستمعين به واحتشادهم لسماعه . أما ما أثاره من ضجة حول آرائه الجديدة فى حب ابن أبي ربيعة ، فقد ظهر لي بعد ذلك أن هذا هو ديدنه فى كل ما يتناوله من موضوعات ، وهو في هذا كأنه خُلق ليسبب للعقول « رجّة » لا قِبل لأحد على احتمالها

* * *

. . . وحان حين الامتحان في الجامعة المصرية ، وكان النجاح فى آداب اللغة الفرنسية شرطاً أساسياً في النجاح ، وكنا نحسب إذ ذاك أن إدارة الجامعة ستعفينا من هذا الشرط الذي كان يُعجز أكثرنا ، لكنها أصرت على إنفاذه ففرّ أكثر الطلاب وبقيَ صاحبنا يصارع هذه المصاعب فيخفق مرة وينهض أخرى ؛ وما زال حتى ظفر بالليسانس دوننا ، ثم بالدكتوراه متفوقاً ، وعجبتُ

يومئذ لهذا « الفلاّح » يظفر بما لم نظفر به وما كنت أحسب أنه سيجنّ بعد ذلك بالشهادات والإجازات العلمية هذا الجنون العجيب الذي تحمّل في سبيله من المتاعب والمشاق ما لا يقوى عليه سواه ، فهاهو ـ بلُغته ـ يرتحل من سنتريس إلى باريس ، ثم يحط رحاله فى (القِبلة القديمة) من جامعة السربون ، ويعيش فى مدينة النور عيش الشظف وما هو دون الـكفاف ، وما يزال حتى يعود إلى مصر بالدكتوراه الثانية . ثم لا يقنع بهذه ولا تلك ، فيمضي إلى الجامعة المصرية فيعهدها الجديد و يظفر منها بالدكتوراه الثالثة . . . وأغلب الظن أنه يستعد الآن لما بقي من شهادات الهند والصين واليابان . . . وما شاء الله كان

* * *

. . . وصاحبنا ـ صَنعَ الله له ـ كأنه خُلق بغير (فرامل) أو هو كالسيارة الضخمة التي لا تقوى (فراملها) على ضبط توازنها ودقة سيرها ، فهو أنّى سار لابدّ له من حادثة تصادم ! ! وليس في استطاعة كاتب أن يحصي في مثل هذه الصورة الوصفية كل أحداثه : كان طالباً يصطدم في درسه بشيوخه ورفاقه ، وكان مدرساً يناوش رصفاءه فى آرائهم و يصاولهم فى بحوثهم ، فلا يدعهم يهدأون من معركة إلا إلى معركة ، وكان فى فجر النهضة الوطنية أحد الذين قذفوا بأنفسهم فى أتُونها المستعر فعانى من أهوالها ما عانى ، ولقي في سجونها ومعتقَلاتها ما لقي ، وألف كتباً فـكانت سبباً في أن يصطدم بكل من يتناولها بنقد أو تجريح ، واستقتل في إذاعتها بين الناس راضين أو كارهين ، فإذا تغاضى الناس عنها وصرفوا وجوههم عن التطلع إليها ، راح يقيم الدنيا و يقعدها صاخباً لاعناً ، و إذا ضاق بجحود الناس وغدرهم وضنهم عليه ، تولى هو نفسه الثناء على نفسه ، فهو يقوم عنهم بمأمورية مدح زكي مبارك ! ؟ ولينفلق من شاء أن ينفلق ! . .

وأنت لا تقرأ كتاباً من كتبه إلا وقعت في مقدمته أو بين سطوره على عبارات الإطراء والثناء على المؤلف الذى هو زكي مبارك . وتجتمع لجنة اختيار الكتب بوزارة المعارف فتهمل شأن كتبه ، ولا يخطر لها أن تجبر خاطره باختيار واحد منها ، وعندئذ يروع قراء الصحف (بحادث اصطدام) بينه و بين أعضاء هذه اللجنة واحداً واحداً . . . وعندئذ يقرأ الناس الثناء على كتب زكي مبارك بقلم زكي مبارك ! فكتابه « النثر الفني » ـ مع التواضع ـ خير من كتاب « فجر الإسلام » الذى ألفه أحمد أمين .

وهذا المرحوم أحمد زكي باشا لايكاد يبدأ في نقده ورده إلى الصواب في كلمة هادئة متواضعة حتى يشمر صاحبنا عن ساعد الجد فينبري له ناقداً مفنداً منطلقاً بغير (فرامل) فتقع الواقعة .

وهذا عبد الله عفيفي لايكاد يشتبك معه في معركة أدبية حتى يتلقاه بالنار والحديد ، و ينطلق أيضاً في مصاولته حتى يفر عبد الله عفيفي من محاربته قانعاً من الهزيمة بالسلامة من حادث المصادمة .

وهذا طه حسين يخلق له هو ميدان المجالدة والمصاولة ، فإذا أراد أن يدافع عن نفسه كان جزاؤه الحرب الطاحنة يشبُّها هو من جديد ، ويذكي نارها كلما خبت .

وهذا لطفي جمعة ، وهذا سواه وسواه ، وهذا كل من تحدثه نفسه بالدنو منه أو نقده أو مس جانب من جوانبه لا تكتب له السلامة إلا بالفرار من طريق هذه السيارة الهوجاء الرعناء القياد . . .

كل ذلك يقع في مصر ، ثم لا تجد حكومة من حكوماتها المتعاقبة تفكر في سن (تشريع) جديد يحمي الناس من مثل هذه (الهوسة) العقلية ، ولم لايكون

في مصر — ما دام فيها زكي مبارك — نظام مرور للكتاب والمؤلفين . . .
فتعين الحكومة فريقاً من (الكونستبلات) يتولون حفظ نظامهم ، ويمنعون بإشاراتهم مثل هذه (المصادمات) التي يحدثها صاحبنا ومن سيُخلق على طرازه في مقبل الأيام ؟ وهل يليق بحكومة متمدنة أن تدع مثل زكي مبارك يروّع الناس كل يوم بحوادث التصادم التي يرتطم فيها دون أن يخشى على رأسه أو رءوس الناس ؟

أهكذا تُترك هذه السيارة الهوجاء الرعناء القياد تصدم الدور والقصور والخدور والعمد والحيطان ؟

اللهم إن هذا حال لا يطاق ! ! !

* * *

. . . وتنفس الناس الصُّعداء حين قرأوا خبر « نفيه » إلى العراق ، وقالوا : لقد أراحت وزارة المعارف واستراحت ، فليذهب إلى بغداد ، أو إلى حيث يشاء فستهدأ من ويله البلاد .

لكنه زكي مبارك حيث يقيم ! ! فقد ذهب إلى العراق ليخلق فيها ميداناً يصول فيه ويجول ، ويعز عليه أن تستريح مصر من صخبه فلا يدعها تهنأ بغيابه ، ويروح يمطرها في مجلة الرسالة بوابل من « ليلى المريضة في العراق » فيهتك في خطابها وعلى لسانها الأسرار ، ويتحدث عن الهوى والضلال ، ويذكر الأسماء ، ويصف الدور والخدور ، ويحدد العناوين ، ويأتي بالشواهد والأمثال ، فتشقى مصر بغيابه كما شقيت بإقامته . ولا مفر من زكي مبارك أنّى كان وحيث قام

* * *

ويحمل البرق إلى مصر — وهو في بغداد — خبر اعتداء طالب مأفون على

اثنين من الأساتذة المصريين المقيمين في بغداد ، وتضطرب الأقوال في تحقيق شخصية المعتدَى عليها ، وأتمنى أنا يومئذ ـ مخلصاً ـ أن يكون صاحبنا أحد هذين ليستريح هو من عناء هذه الدنيا وما يحمل فيها من نَصب وما يشكو من غدر أهلها وعقوقهم ، وتستريح الدنيا ـ هي الأخرى ـ من أحداثه و وقائعه . .

ولشدَّ ما كانت خيبة أملي حين علمت أن الشهيد الذى لقي حتفه مغترباً ليس هو الذى تمنيت أن يكون !

وهكذا يظل زكي مبارك حيًّا يتعب الدنيا وتتعبه ويشقى بها وتشقى به .

وكان من حسن الذوق ومن الرفق بنا و بنفسه أن يموت . . .

و إلا فأيّ « منفًى » سحيقٍ يختاره الناس لهذا الذي لا يريد أن يريح أو يستريح ؟ ! .

إنه حيث يقيم لا بدَّ له من « ليلى » ولابدَّ له من دموع عشاق ، وهوى وضلال ، وحرب ونزال ، فمتى الخلاص من هذا الوبال ؟

اللهم إنك خالقه فأنت وحدك القادر عليه .

اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ، بل نسألك اللطف فيه

اللهم حقق على الأرض السلام م؟

عبد الله حبيب

(*) سجلنا هذه الكلمة ، كما سجلنا في الجزء الأول كلمات أفظع منها وأشنع ، ليعرف الأدباء أننا نثق بأنفسنا ثقة لاتزعزعها عواصف التجريح ، ولا ينال منها طغيان الأقلام . ويسرنا أن نعرف أننا أوقدنا فى صدور الأدباء نيران الغيظ والحقد حتى جاز لهم أن يتمنوا لنا الموت ... جعلهم الله من أصحاب الأعمار الطوال !

كيف أثنيت على نفسي ؟

أخي الأستاذ صاحب الدستور

أقدم إليك أصدق التحيات ، وأرجو أن ترحمنا الشواغل قليلاً لنعرف عَشيَّات القاهرة مرةً أَو مرتين قبل أن ينصرم هذا الشتاء .

أما بعد فقد قرأت المقال الطريف الذي نشرتموه للأستاذ عبد الله حبيب بمناسبة ظهور كتاب « وحي بغداد » فهل أستطيع أن أردّ على ذلك المقال الطريف بمقال عنيف ؟

الحق أني أصبحت أتكلف الرفق ، وإنما أصنع ذلك لئلا تضيع الفرصة ضياعاً أبديًّا ، فرصة المناوشات والمشاغبات مع رجال الأدب والبيان .

كنت منذ سنين أَصول وأَجول في ميادين الجرائد والمجلات ، ثم صرتُ إلى ما صار إليه الدكتور جوستاف لُوبُون من قبل :

كان جوستاف لُوبُون يردّ على كل من يتعرض له بكلمة نقد في الصحف الفرنسية ، وقد فطن الصحفيون الفرنسيون إلى غرضه فقرروا أن لايتعرضوا له بنقد ولا ملام ليستريحوا من قلمه الصوّال .

وكذلك صنع معي الصحفيون المصريون فسكتوا عن مناوشتي ليستريحوا من مشاغباتي .

وقد استرحتم يا صديقي ، أما أنا فقد تعبتُ ، ولولا أني نقلت الشغب من ميدان الأدب الحديث إلى ميدان الأدب القديم لأضرَّ بي طول الجِمام .

وكيف آنس بالسكون وأنا أعتقد أن السلام ضربٌ من الموت ؟

متى تعود أيامي فأناضل كما كنت أناضل في الجرائد والمجلات ؟

متى يكون لي خُصُومٌ كالذين كانوا في الأيام الخاليات ؟

متى يكون لي خصوم أُصاولهم وأنتصر عليهم من أمثال طه حسين وإبراهيم المازني وعلي الجارم ومصطفى الرافعي وأحمد زكي باشا ومحمد لطفي جمعة وعبد الله عفيفي وعبد العزيز البشري ومحمد فريد وجدي ومحمد عبد المطلب ومحمد خالد وأحمد أمين ومن إليهم من أقطاب الرجال .

أفي الحق أني صرت كالبُعْبُع الذي يخوّفون به الأطفال ؟

أفي الحق أني صرت رجلاً متوحشاً يتحاماه الناقدون ؟

لقد أصبحتُ أعاني الوحشة والغربة في وطني بسبب التهمة الشنيعة ، تهمة الشره إلى أكل لحوم الناقدين ، فهل يكون من حقي أن أرجوكم دفع قالة السوء عن أخيكم العزيز ؟

أَنا ياصديقي رجل لطيف يشهد له بالصدق والنبل رجال عظماء :

منهم مصطفى عبد الرازق ومنصور فهمي ومحمد العشماوي وطه الراوي وفاضل الجمالي ومحمد رضا الشبيبي .

وأنت ياصاحب الدستور ، ما رأيك في أخيك ؟

أتذكر مرةً واحدة أنني أسأت إليك في محضر أو مغيب ؟

لقد أقمت في العراق نحو تسعة أشهر صاولتُ فيها من صاولتُ وشاغبتُ من شاغبتُ ، ومع ذلك رأيت من أهل العراق من يذرف الدمع يوم فراقي

واتصلت بمعاهد باريس بضع سنين فأسأتُ إلى من أسأتُ ، ومع ذلك تركت أثراً حميداً في أنفس رجال فضلاء من أمثال الأساتذة ديبويه ومورنيه ومَرسيه وماسينيون وديمومبين .

أنا لا أَستجديكم العطف يا صديقي ، وإنما يعزُّ عليّ أَن يصبح مفهوماً عند الجمهور أني رجلٌ مشاغب بحيث يصحّ للدكتور طه حسين أن يعتذر عن رياسة اللجنة التي أديت أمامها امتحان الدكتوراه في الجامعة المصرية بحجة أني رجلٌ غير مصقول وأنني قد أخرج على قواعد الذوق في المناقشة العلنية فأُحرج عميد كلية الآداب أمام الجمهور

يعز عليّ أَن تُغلَق في وجهي ميادين كثيرة بسبب ما شاع وذاع من غرامي بالمشاغبات .

يعز عليّ أن لا يكون في هذا البلد أديب كريم يأمن مصلولتي على صفحات الجرائد والمجلات .

يعز عليّ أن تنسوا جميعاً أن مشاغباتي أيقظت الحياة الأدبية بضع سنين ، وصاحب الدستور أول من يشهد بذلك .

يعز علي أن يخيب ظني في أبناء الوطن الغالي وكنت أرفع لواء مصر في كل بلد أحلُّ فيه .

هل تصدّق أيها الأخ أني نافحتُ في العراق عن كثير من خصومي ؟ هل تصدق أن من آذوني في مصر وجدوا مني رجلاً شهماً يدفع عنهم قالة السوء في بغداد ودمشق و بيروت ؟

هل تصدق أن من عاديتهم في لبنان كانوا بصدق الحس يسمونني « سفير العُروبة المصرية في العراق » ؟

وكيف يصح اتهامي بالوحشية ؟ أم كيف يصح القول بأن أهل العصر أَجمعوا على أني أُعِدُّ لهم أنياباً ومخالب ، مع أَن صاحب الدستور اشترك في تكريمي يوم ظهر كتاب النثر الفني ؟

إن لي في مصر وفي غير مصر أصدقاء يعدّون بالألوف : فليقل الأستاذ عبد الله حبيب ما يشاء !

وهنا أدفع تهمة الثناء على نفسي فأقول :

عشت دهري مظلوماً أقبح الظلم ، وما ظلمني إلا ناسٌ جميت

أعراضهم بقلمي ولساني ، فهل يكون من الإثم أن أستجدي قومي كلمة عطف ؟

قال الناقد إني هجمت على لجنة اختيار الكتب بوزارة المعارف لأنها أهملت كتاب النثر الفني ، ثم عجب حضرته من أن أقول إن كتاب (النثر الفني) أعظم من كتاب (ضحى الإسلام)

ولكتاب النثر الفني قصة مع وزارة المعارف يحسن تسجيلها في هذا الحديث ، ولمعالي الدكتور هيكل باشا أن يمحو ظلامتي إن شاء ، فان له في هذا الكتاب رأياً كريماً سجله في مجلة الهلال .

كتاب النثر الفني يا صديقي كتابٌ عظيمٌ جدًّا ، وقد وصفه الأستاذ خلدون في جريدة الاهرام فقال :

« إنه كتاب لم تعرف مثله اللغة العربية منذ عهد بعيد »

و قيلت في الثناء عليه خطب رنانة و قصائد جياد .

فهل تعرفون كيف استقبلته وزارة المعارف ؟

اشترت منه « أربعين » نسخة فقط : لأن مؤلفه ليس له في الحكومة المصرية عمٌّ و لا خال !

و جاءت لجنة اختيار الكتب بوزارة المعارف فأهملته وقررت كتاب « ضحى الاسلام » مع أن هذا الكتاب لا يمكن أن يغني عن كتاب النثر الفني .

وشاء سوء الطالع أن أصرح في مجلة الرسالة بأن كتابي أعظم من كتاب الأستاذ أحمد أمين ، فغضب الأستاذ وصار يبخل عليّ برد السلام أمام الناس ! ! .

وأنتم تذكرون جميعاً أن الدكتور طه حسين لم يصفْ كتاب النثر الفني بغير عبارة :

«كتابٌ من الكتب أخرجه كاتبٌ من الكتّاب» .

وقد صرح الأستاذ أحمد أمين بأن اللجنة قررت اختيار كتاب النثر الفني للسنة المقبلة ، فان عشنا للسنة المقبلة فسترون أن كتاب النثر الفني سيظل في نظر الوزارة خبراً من أخبار التاريخ ! .

وإليكم شاهداً آخر ، أيها الصديق .

أخرجت كتاب « عبقرية الشريف الرضي » في جزءين ، وهو كتابٌ لم يؤلَّف مثله من قبل .

أتعرفون كيف استقبلته وزارة المعارف ؟ .

وضعته فوق رَفّ من رُفوف مكتب تفتيش اللغة العربية ! .

وكتاب التصوف الإسلامي ؟ ؟ .

لقد قدّمت هذا الكتاب إلى كثير من الناقدين في طليعتهم محمد خالد وإبراهيم المازني ؟ .

فهل ترى أن الصحافة أدت واجبها في التعريف بهذا الكتاب ؟

لكم زميلٌ فاضل هو الأستاذ لطفي جمعة ، فهل تعرفون ما قال في ذلك الكتاب ؟ .

كتب في مجلة الرابطة العربية يقول : « إنه ليس كتاباً في التصوف وإنما هو كتاب وُصلتْ فيه الأشعار بعضها ببعض على طريقة الجاحظ » .

الله أكبر ! .

في أي ذهن يصح أن زكي مبارك لم يستطع إلا أن يصنع ما صنع الجاحظ ؟ .

إن كان منزلتي في الحب عندكمُ ما قد رأيتُ فقد ضيّعتُ أيامي

كان يكفي أن تذكروا أن هذا الكتاب قد انتهب أوقات فراغي نحو تسع سنين ، كان يكفي أن تذكروا أني أول من ظفر باجازة الدكتوراه ثلاث مرات ، كان يكفي أن تذكروا أني حاولت أن أتقدم لدكتوراه رابعة فقاومتني الجامعة المصرية بحجة أني « دكتور مضروب في ثلاثة » على حد تعبير الدكتور طه حسين .

و أقول مرة ثانية إني لا أستجديكم العطف ، فقد أقمت حياتي الأدبية على قواعد من الحديد .

كيف لا أشكو من الظلم و أنا أذكر أن سعادة العشماوي بك قال في إحدى خطبه :

« لم يكن زكي مبارك صنع شيئاً في وزارة المعارف ، و لكنه لما ذهب إلى العراق صنع أشياء » .

أفي الحق أني لم أصنع شيئاً في وزارة المعارف ؟

امنحوني الفرصة مرةً واحدة لأحدثكم عما صنعت في وزارة المعارف .

سيأتي يوم أبين فيه بالتفصيل كيف أوحيت ما أوحيت إلى من وضعوا المناهج للمدارس الثانوية و المعاهد العالية .

سيأتي يوم أبين فيه ماصنعتُ في خدمة الوطن الغالي .

وتحدث الناقد بأن الناس تنفسوا الصُّعَداء حين علموا أني نُفيت إلى العراق .

و هذا حق ، فقد صرح سعادة العشماوي بك بأنهم أرسلوني إلى العراق ليتخلصوا مني !

فما الذي تغنمون حين يذهب زكي مبارك من الوجود ؟

ما الذي تغنمون حين ينطفيء السراج الذي استصبح به أعدائي بضع سنين ؟

ستذكرون يا سيد خالد أني كنت الكاتب الوحيد الذي عظمت نفسه فلم يضنّ على خصومه بكلمات الثناء حين يفرضها الواجب .

ستذكرون أخلاقي ، ياسيد خالد .

ستذكرون أني كنت الكاتب الوحيد الذي يخجل من أن يقول في السر ما يعجز عن قوله في العلانية .

ستذكرون أخلاقي ، يا سيد خالد :

ستذكرون أني كنت الكاتب الوحيد الذي يضحّي بمنفعته الذاتية ليرفع لواء البيان .

فان استطاع الزمن أن يحكم بأن أقرأ في جريدتك ما لا أحب فلذلك تعليل تعرفه أنت وهو الشاهد على أن صدري أوسع مما يظن الجاهلون ، وأنت نفسك حدثتني بأنك سمحت لأحد المحررين بأن يغتابني في جريدتك من قبل لأنك تعرف أني أرحب بالنضال والصيال

وأعيذك أن تظن أني عاتبٌ عليك : فقد قرأت ما نشرتم عني بفرح وارتياح .

لقد اتفقت كلمة النقاد على أني أقع في غلط فظيع هو الثناء على نفسي

فما الذي يمنع من تذكيركم بأن هذا حَجَر متين في أساس الأخلاق

ما الذي يمنع من تذكيركم بأني أريد أن أوحي إلى الأدباء فكرة الثقة بالنفس ؟

ومتى كان التواضع فضيلة حتى تدعوني إليه ؟

إن التواضع خُلُق مقبول ، ولكنه من أخلاق العبيد ، وأنا بحمد الله من أمراء البيان .

أخي وصديقي :

أتحداكم أن تثبتوا أني أثنيت على نفسي بغير الحق .

أتحداكم أن تثبتوا أني كنت كاذباً فيما ادعيت من الفضل .

أتحداكم أن تثبتوا أن اللغة العربية عرفت كتاباً مثل كتاب النثر الفني أو كتاب التصوف الاسلامي .

أتحداكم أن تثبتوا أني لم أكن أهلاً لثقتكم يوم كرمتوني بفضل ما أبدعت في التأليف .

أتحداكم أن تثبتوا أنه قد مرّ يوم واحد بدون أن أخلو إلى قلمي وكتابي بضع ساعات .

اسألوا بواخر المحيط تحدثكم أني كتبت فوق متونها فصولاً من كتاب النثر الفني .

اسألوا الصحراء الشامية تحدثكم أني كتبت فصولاً جيدة وأنا أعاني عذاب السفر بين دمشق وبغداد .

اسألوا جرائد مصر والشام والعراق تحدثكم بأني وصلت إلى جميع الأسماع في الأقطار العربية .

اسألوا أنفسكم ، يا سيد خالد ، تحدثكم بأني كنت أكرم صاحب وأشرف صديق .

آه ثم آه من الابتلاء بالجحود !

أمثلي يحكم عليه الزمن بأن يدافع عن نفسه في وطن كان مجنون ليلاه ؟

أمثلي يُضطرُّ إلى أن يقهر النـاس على الاعتراف بأنه لم يثن على نفسه إلا لأنه يحس نقمة الابتلاء بالعقوق ؟

* * *

ثم ماذا ؟

ثم يشيو الناقد إلى أني هتـكت الأستار في كتاب (ليلى المريضة في العراق) .

وسيظهر هذا الـكتاب في ثلاثة أجزاء بعد أسابيع ، وسترون حقًّا أني تحدثت فيه عن الهدى والضلال وذكرت الأسمـاء وحددت العناوين وأتيت بالشواهد والأمثال .

هذا كله صحيح .

فهل تستطيع يا صديقي خالد ولك سيارة تنهب الأرض أن تزور بيتي بعد يوم أو يومين ؟

تعال عندي يا صديقي لأطلعك على الخطابات التي قضتْ بأن يُطلَب من هـذا الـكتاب مئات من النسخ قبل أن يقدَّم للطبـع . وذلك هو أول حادث من نوعه في اللغة العربية .

لقد أخذتُ ليلى نهائيًّا من قيس ، وستعرفون أني أعظم من ثقب اللآلىء في هذا الجيل .

وما الذي يمنع من أن أُثني على نفسي وقد لقيت من الفوز ما يُغرِي بالجنون ؟

ارجع إلى التاريخ يا سيد خالد لتعرف أني أول مصري احتفل بتكريمه أساتذةُ السوربون .

ارجع إلى التاريخ لتعرف أني أول مصري قال فيه العراقيون عشرات من القصائد الجياد .

اسأل أَحجار الجامعة المصرية تحدثك أَني كنت صادقاً يوم قلت « ستبيد أَحجار الجامعة المصرية و يبقى كتاب النثر الفني » .

* * *

أَضاليل يزجيها خيالي وأَنثني ... إلى غابةٍ مطموسة الأنس جرداء

و إلا فمن الذي يصدق أني أَعيش في وطني عيش الغرباء ؟ .

من الذي يصدق أَن الخطابات التي تصل إليّ من الخارج بلا عنوان لا تبلغ منزلي إلا بعد أن تحلّى أكثر من عشر مرات بخواتم البريد ؟ .

إن الناس في الخارج يظنون أني في مصر ممن يشار إليهم بالبنان فهم يراسلوني بلا عنوان .

فان ضعتُ عندكم ، يا سيد خالد ، فليس الذنب ذنبي ، و إنما هو ذنب مصر التي تجهل أقدار أبنائها الأوفياء .

* * *

أما بعد ، ثم أما بعد :

فأنا أنتظر كلمتك في كتاب التصوف الاسلامي لأعرف منزلتي الجديدة في قلبك المعمور بالايمان ، فان بخلت بتلك الكلمة فلا بأس فقد أرحتك حين أديت الواجب في الثناء على نفسي .

وليكن مفهوماً عندك أني أتخيَّر أعدائي ، كما أتخير أصدقائي .

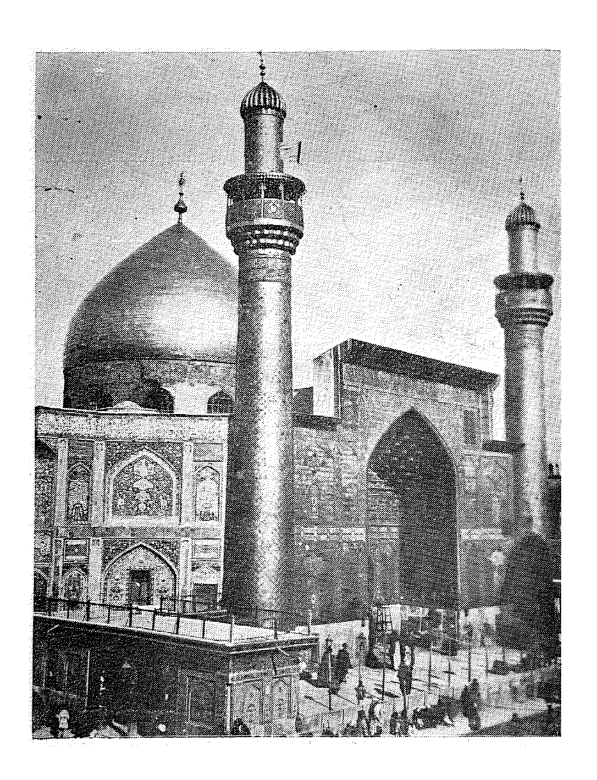
وهذا هو السر في أني أسكت عمن يتقدمون لمناوشتي في بعض الأحيان .

أخي خالد :

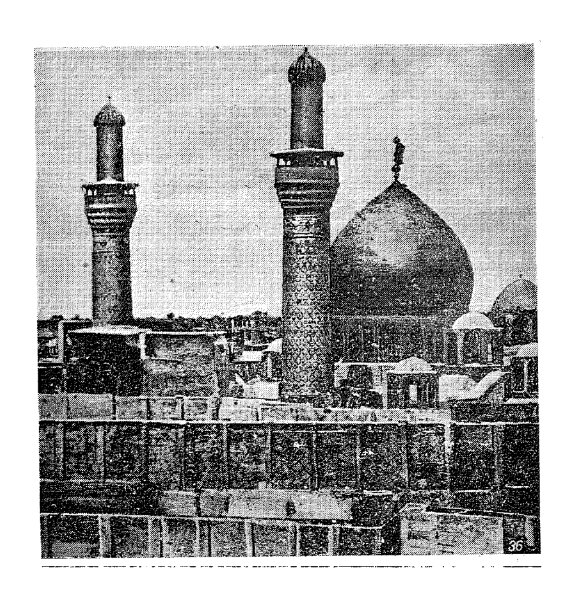
لك أن تطوي هذه الكلمة عن قرائك إن شئت ، و حسبك أن تعرف فيما بينك و بين نفسك أنك لن تراني إلا حيث تحب .

أنا يا صديقي لا أخاف الله إلا تأدباً مع ذاته العالية ، فكيف أخاف الناس ؟ ؟

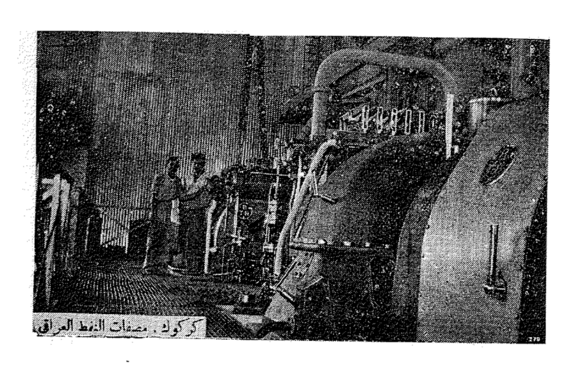
زكي مبارك

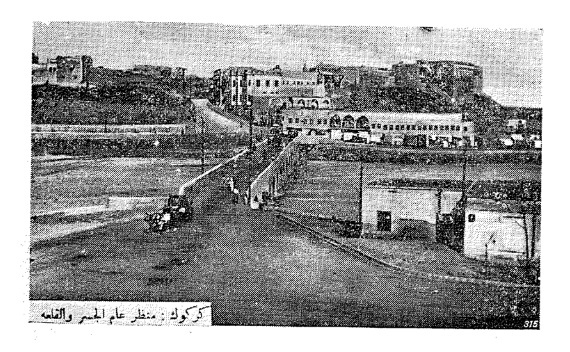


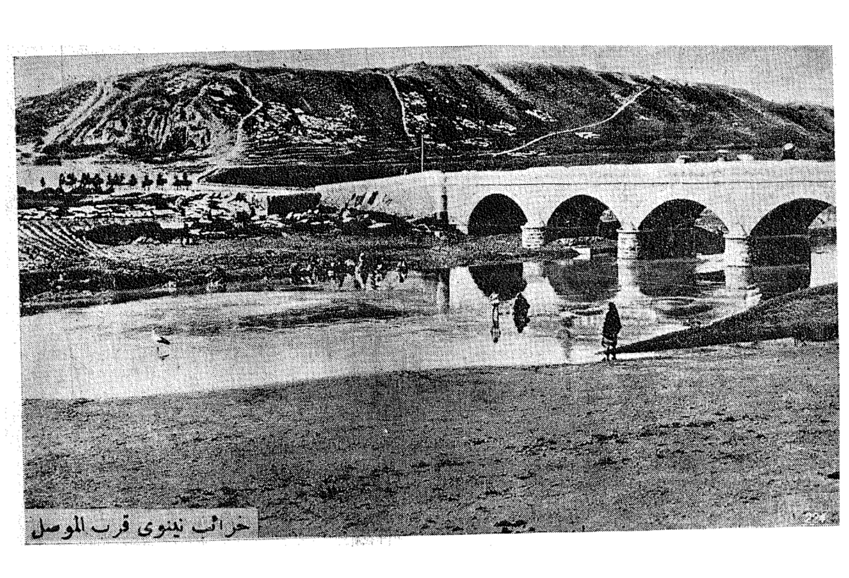
جامع أمير المؤمنين بالنجف



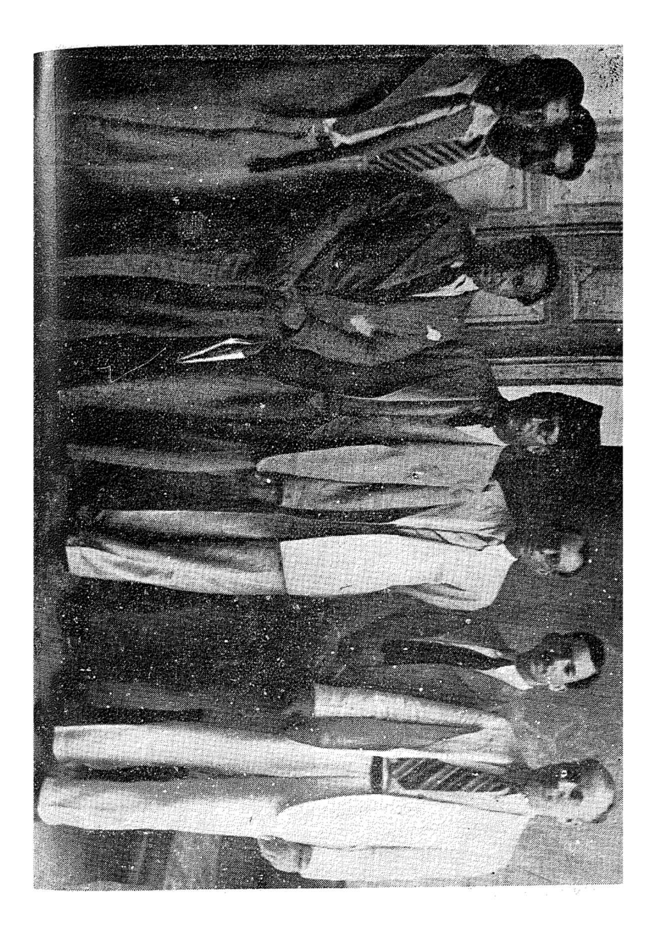
جامع الحسين في كربلاء

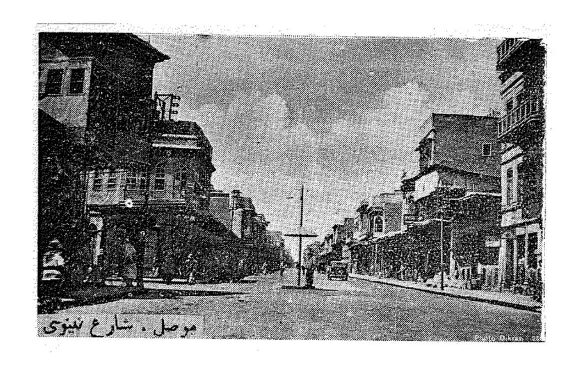

كركوك . مصفات النفط العراقي


كركوك : منظر عام الجسر والقلعه


خرائب نينوى قرب الموصل

أبغداد يضنيني فراقك فاذكري لذى ذمة التاريخ بيني وإضنائي





موصل . شارع نينوى



جسر الملك غازي (موصل)


محلة كوترك العرب (اربيل)

عبقرية الشريف الرضي

قصيدة الاستاذ محمد عبد الغنى حسن

أستاذ الأدب بمدرسة الخديو إسماعيل

هذا كتابك في (الشريف) قرأتُه | فقرأتُ فيه بيانك الموهوبا
جلّيتَ من فنِّ « الرضيِّ » نواحياً | وأريتَ من شعر الرضيِّ عجيبا
وبحثتَ في صبر الأديب وذوقهِ | يكفيك عزًّا أن تكون أديبا
ورُزِقتَ في دنيا البيان مواهباً | تستأهل التكريم و الترحيبا
قلمٌ كما يهفو النسيم مرقرقاً | و يدٌ كما يهمي الغمام صَبِيبا
لك كلَّ يوم في البيان مواقفٌ | كالصبح وجهاً والأزاهر طِيبا
و لقد عشقتُك في الصحافة كاتباً | وعشقتُ صوتك في النَّدِيِّ خطيبا
وقرأت بالأمس القريب (بدائعاً) | لك صَيَّرَتْ أمسِ البعيدَ قريبا
وعرفتُ (ليلاك المريضة) ليتني | ياصاح كنتُ لها بمصر طبيبا !

ورأيتُ في يدك القويةِ مشرطاً		يصف الدواء ويُحسِن التطبيبا

* * *

أأخي ! ولا أنساك يوم لقيتني		باسكندريةَ داعياً ومجيبا

أيامَ غرّبني الطّماح إلى العلا		فضربتُ في طول البلاد غريبا

واجتَزْتُ للغَرب البعيد شواهقاً		دُ كناً وروضاً بعد ذاك عشيبا

وقطعتُ بحرالروم فانقطع الهوى		مني وخلّيتُ الكتاب حبيبا

الغربُ علمني الدُّؤوب ولم أزل		أقضي الحياةَ مُجاهداً ودؤوبا

كُتِبَ المدارعلى الشموس ولم تزل		تقضي السنينَ مَطالعاً وغُروبا

* * *

أأخي عرفتُك في المودة صادقاً		لا زائفاً يوماً ولا مكذوبا

وعرفتُ فيك من الصراحة موضعاً		حظُّ المنافق منه كان جديبا

ترمي بألسنة المقال كأنما		ترمي شُواظاً أو تَصُبُّ لهيبا

زعموك في تلك الصراحة مخطئاً		وأراك فيها (يا زكيُّ) مصيبا

ما النقد والإصلاح إلا جُرأَةٌ		فيمَ الشجاعة لو تكون هيُوبا ؟؟

محمد عبد الغني حسن

التصوف الاسلامى [1]

كلمة الأستاذ صدّيق شيبوب

عشت في هذه الأيام في جوٍّ عَبِقٍ بشذا الروح ، مضمّخ بعبير الوجد ، موشّى بأنداء الخيال ، تنمقه الخواطر البارعة ، ويسيطر عليه التفكير الطريف ، والجدل القوي ، والحجج الدامغة .

وقد أتاح لي أن أعيش هذه الحياة العقلية الطيبة كتاب الصديق الدكتور زكي مبارك الذي صدر منذ أيام في موضوع طريف لم يعرض له باحثٌ عربي قبل اليوم على الطريقة التي عرض له بها مؤلفه الفاضل ، وهو موضوع أثر التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق .

ولست بحاجة أن أعرّف القراء بالدكتور زكي مبارك فإن له من شهرته الذائعة في الأقطار العربية وفي دوائر الاستشراق غِنى عن التعريف : فقرّاء الصحف اليومية والدورية يطالعون أبحاثه القيمة في الفنون والآداب ، وجولاته العنيفة في النقد والجدل ، ويعجبون بالحياة التي تتمشى بين سطورها نابضةً قوية ، والذين تعودوا مطالعة الكتب يعرفون مؤلفاته الصغيرة والكبيرة من « حب ابن أبي ربيعة وشعره » إلى « النثر الفني » إلى « عبقرية الشريف الرضي » إلى آخرها وهو « وحي بغداد » كما يعرفون ديوان شعره . ذلك أن

(١) كتاب فى مجلدين كبيرين وقد نال به المؤلف إجازة الدكتوراه فى الفلسفة برتبة الشرف من الجامعة المصرية

يطلب من المكاتب الشهيرة وثمن المجلدين معا أربعون قرشا

الدكتور زكي مبارك يجمع إلى علم عظيم ، واطلاع واسع ، وإلى نظر ثاقب ، ومقدرة طيبة على النقد والبحث ، روحاً حساسة وشاعرية شائقة .

وقد ساعد على تكوين شخصية الدكتور زكي مبارك الأدبية الثقافات العديدة التي تضلع بها وتركت في نفسه أثراً بعيداً ، فقد لحق في صباه بالأزهر الشريف فتثقف بالثقافة العربية القديمة وعلوم الدين ، ثم انتسب إلى الجامعة المصرية في عهدها الأول وكان التعليم العالي الذي يلقى فيها مزيجاً بين التقليد والتجديد ، والتحق بعد ذلك بجامعة السوربون في باريس واطلع على ثقافة الغرب ووسائل علمائه في الطرق الحديثة للبحث والتأليف .

وأعتقد أن الدكتور زكي مبارك من أكثر أدباء اليوم إخلاصاً لثقافته وأدبه : فهو لاينقطع عن الدرس لنيل الإجازات العلمية العالية ، وهو كذلك لاينقطع عن الكتابة والتأليف ، فله في كل عام كتاب ، ويُعدُّ كل كتاب يصدره حادثاً أدبيًّا جديراً بالذكر والتنويه .

ولما كان الشيء بالشيء يذكر ، كما يقولون ، فإننا نشير إلى أن الدكتور زكي مبارك نال من الإجازات العلمية العالية عدداً محترماً ، فهو دكتور ثلاث مرات : ففي سنة ١٩٢٤ تقدم إلى الجامعة المصرية في عهدها القديم بأطروحة في موضوع « الأخلاق عند الغزالي » فنال إجازة الدكتوراه عليها ، ثم نال بعد ذلك من جامعة السوربون هـذه الإجازة بأطروحته « النثر الفني » وكذلك تقدم إلى الجامعة المصرية في عهدها الحاضر بكتابه الذي نحن في صدده «التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق » ونوقش أمام الجمهور في ٤ أبريل سنة ١٩٣٧ ونال به إجازة الدكتوراه في الفلسفة برتبة الشرف

* * *

لسنا بحاجة إلى بيان خطورة الموضوع الذي تناوله الدكتور زكي مبارك في كتابه ، لأن التصوف يمثل ظاهرة من ظواهر الفكر العربي الإسلامي داخلها كثير من النوازع الغريبة عن العرب والإسلام بحيث أنكرها أهل السنة وقالوا فيها الشر الكثير ، وقد شاء الدكتور أن يبين « كيف استطاع التصوف أن يخلق فناً جديداً في الأدب ومذهباً جديداً في الأخلاق »

أجل ، إنه « موضوع يستحق الدرس بلا جدال » كما يقول المؤلف لأهميته من ناحية ، ولأنه لم يعرض له أحد من قبل ، بل إن التأليف في التصوف لم يستهو أحداً من كتابنا المعاصرين ، لذلك لا نجد فيه كتباً عربية حديثة غير كتيب صغير ، وغير مقالات وأبحاث لا تشفي غليلا ، بينما عرض له الأقدمون بالإفاضة حتى تكاد كتبهم تكفي لتأليف مكتبة كبيرة ، وكذلك فعل المستشرقون الذين أقبلوا على دراسة هذا المذهب فعرّفوه تعريفاً قويًا ودرسوه دراسة عميقة حتى صارت كتبهم مرجعاً هامّاً يُعتمد عليه في فهم أصول الصوفية ونزعاتها الفكرية والوجدانية .

ولم يكن الدكتور زكي مبارك غريباً عن الصوفية : فقد شهد مجالس أهل الطريق وأخذ العهد عن أحد أئمتهم ، وكان له بينهم شأن يذكر ، ثم انقطعت صلته بهم ، ولعل أثرهم ظل قائماً في نفسه وأدبه : فإن أسلوبه الوجداني في الكتابة دليلٌ على هذا الأثر ؛ ونلاحظ أن هذا الأسلوب يلازمه في أكثر أبحاثه بعداً عن الوجدانيات ، وهو مصدر قوة أدب الدكتور زكي مبارك ، كما أنه من الأشياء التي تؤخذ عليه ، وهو من العوامل التي تجعل أدبه حيًّا نشيطاً .

* * *

اشتهر الصوفيون بالأدب فكانوا من أقطابه ، واشتهروا بالأخلاق فكانت

لهم في معانيها وأساليبها الآراء المنظورة . والفرق بين النظريتين الأدبيـة والأخلاقية معروف .

أما في الأدب فقد كان للمتصوفين الأثر البعيد خصوصاً إذا أضفنا إليه ماجاء في الزهد على لسان بعض كبار الأدباء والشعراء ممن لم يكونوا من الصوفيين أمثال أبي نواس وأبي العتاهية ، كما أشار الدكتور زكي مبارك .

والصوفية وجدانيون ، أهل ذوق و إحساس وحب . يمتازون بالرقة والظرف وعبادتهم ترجع في الأغلب «إلى قوة التأمل وطهارة الوجدان» كما ترجع مذاهبهم في جوهرها « إلى شعب ثلاث : الأولى عاطفـة الحب الإلهي ، والثانية نظرية وحدة الوجود ، والثالثة حب الرسول» لذلك نجد أنهم ابتدعوا فن المدائح النبوية ، وأنشأوا « فن المناجاة الذي يتمثل في حب الذات الإلهية و في الأدعية والأوراد » وأوحوا في الزهد « أكرم الشعر إلى كبار الشعراء » و بغضهم للدنيا أمدّ الأدبَ بكثير من النفحات الوجدانية .

هذا من حيث المعاني وأصول الإلهام ، أما من حيث الأسلوب فإنهم يؤثرون الرمز على التصريح مما أحدث في أدبهم بعض الغموض ، وهم كذلك يؤثرون المعاني على الألفاظ ، لذلك ظهر بعض الضعف في أسلوب بعضهم وخاصة فى الشعر

ومن أثر التصوف فى الأدب ابتكار بعض الألفاظ ، وتلوين الغزَل بلون خاص ، و إدخال المعاني الصوفية عليه ، وتصوير المجتمع فى بعض عصور التاريخ ، و بعض كتبهم تصح أن تعتمَد من هذه الناحية أساساً لفهم المجتمعات الإسلامية واللهجات العربية .

وقد عرض الدكتور زكي مبارك لبعض كتّابهم فدرسهم دراسـة عميقة ، و بين مزاياهم وأفكارهم ، من أمثال ابن عطاء الله وابن عربي والجيلاني .

أما الجزء الثاني من الكتاب فيعرض لأثر التصوف الإسلامي في الأخلاق ، ونأسف أننا مضطرون لأن نعرض له في كثير من الاختزال بعد أن طال بنا الحديث .

وقد عقد في أوله فصلاً ذا نزعة فلسفية عرض فيه للشخصية الخلقية وأثر الصوفية في تكوينها ، وهو يرى « أن الشخصية الخلقية لم تكن يوماً من الشواغل الأساسية بقدر ماكانت في كتب الصوفية ، ولم يُكتب علم للحق ولوجه الحق على نحو ما كتب الصوفية في الأخلاق »

وقد أفاد الإسلام من الثقافة الصوفية ، وهناك فروق بين الزهد والتصوف وبين أهل الباطن وأهل الظاهر ، وبين التشيع والتصوف ، وذلك كله فصّله الدكتور زكي مبارك في هذا الفصل الأول من الجزء الثاني

ثم مضى يستشهد بالأدعية والأوراد والاستغاثات والأحزاب والمقامات لأنها جميعاً تدل على النزعات الخلقية عند المتصوفين ، وأخذ يستخلص من كتب علماء التصوف آداب الطعام والصيام والزواج والأخوّة

أما الحب فهو « الأول والآخر في حياة أولئك الناس » ويرى المؤلف الفاضل أن « الصوفية ابتدأوا حياتهم بالحب الحسي ثم ترقوا إلى الحب الروحي ، والانتقال من حب الجمال إلى التصوف معقول ، ولاسيما في حالة الحرمان من المحبوب . . . وتمرُّس الصوفية بالحب في مطلع الشباب هو السر فيما يظهر عليهم من معاني الظرف »

وقد تفرد الصوفية بين أهل الأدب بالتجويد في الموسيقا والغناء ، وقد كانت الموسيقا موضع جدل خطير بين العلماء ، ولكن الصوفية اختصروا هذا الجدل و « نظروا في ذلك نظراً فلسفياً ، وجعلوا الموسيقا والغناء من المشاكل الخلقية »

.. وينتهي الكتاب بفصل ضاف في الآداب الصوفية كما فصلها الشعراني في كتبه العديدة التي نزع فيها نزعة أخلاقية ووجدانية ، وفي بعضها كثير مما لم يتعوده المؤلفون من قبل .

ولا بدّ من الإشارة إلى خلاصة رأيه في الأخلاق عند الصوفية وهو أنهم « في ضلالهم وهداهم كانوا قوماً يعرفون جواهر الأخلاق ، فللعوامّ عندهم نظام ، وللخواصّ نظام، وقد كرهوا أن نحدِّث العوام بما نحدث به الخواص : فالأخلاق تتلون وتتشكل باختلاف الأشخاص ، وهذه نظرة لا تخلو من حصافة وسداد »

* * *

لسنا ندعي أننا أحطنا بكتاب « التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق» إحاطة شاملة ، وإنما حاولنا أن نشير إلى تخاطيطه في مظهرها العريض ، وقد أثار المؤلف في تضاعيف كتابه شتى المسائل الدقيقة ، وعرض لتحليل النظريات المختلفة ، والتفت إلى أمور كثيرة التفاتات خاصة ، فاختصر حيناً وأسهب أحياناً وأشار في بعض المواقف إلى مراجع خاصة لأنه وجد أن ما كتبه بعض المعاصرين فيها يغني عن الخوض في بحثها

وقد أشرنا من قبل إلى خطر الموضوع الذي عالجه هذا الكتاب ، ونود هنا أن نشير إلى سعة أطرافه وتشعب أبحاثه ، وقد جال فيه الدكتور زكي مبارك جولة طيبة إذ أحاط بكل ما كتِب في الصوفية مما يتعلق بموضوعه .

وكان قبل ذلك قد تعدى هذه الكتب إلى كتب الأدب فأخذ منها الشيء الكثير ، وقد يجد بعضهم صعوبة في ربط بعض ما استشهد به في التصوف ، فقصيدة البحتري في رثاء المتوكل مثلاً لا تتصل بالتصوف ، وقد ألم الدكتور زكي مبارك بأشتات موضوعه إلماماً طيباً ففصل وبوّب وجادل وفسر كما أشرنا ولكنه

أكثر من إيراد النصوص بحيث طغت على الكتاب حتى جعلت بعض فصوله مرجعاً أكثر مما هو بحث ودراسة[1]

* * *

بقي أسلوب الكتاب ، والحق أني معجب بأسلوب الدكتور زكي مبارك في ما يكتبه من وجدانيات وجدل لأنه مليء بالنشاط والعصب والحياة ، وقد ذكرت من قبل أن أسلوبه وجداني ، ولكن هل يصلح مثل هذا الأسلوب لكتابة بحث علمي هادىء كبحث أثر التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ؟ أجل : إنه من الصعب أن نطالب الدكتور زكي مبارك بالاستقرار والهدوء ، لأن أسلوبه حركة دائمة ، سريع التنقل ، كثير الالتفات والوثبات ، وهذه الحركة قوة يستطيع كاتب كبير كالدكتور زكي مبارك أن ينتفع بها أشد الانتفاع ، ولكن من حقه كذلك أن يقتصد باستعمالها في بعض الأحيان التي تستدعي الهدوء كالبحث العلمي والجدل الفكري .

وبعد ، فليست هذه المآخذ الصغيرة مما يحطّ من قدر الكتاب أو يسيء إلى الجهود التي بذلها الدكتور زكي مبارك في تأليفه ، وهي جهود يظهر أنها كانت عنيفة لأنه ذكرها أكثر من مرّة ، وغاية ما نرجوه أن يجد في التقدير الذي تلقاه مؤلفاته خير جزاء روحاني على هذه الجهود ؟

صديق شيبوب

---

(١) مع الاحترام التام لملاحظات الأستاذ شيبوب أرى أن الاكثار من إيراد النصوص لايراد به غير تاييد مايورد المؤلف من مذاهب وآراء . وأقول بصراحة إن الاكثار من النصوص واجب لأنه يدفع القارىء الى المشاركة فى الدرس والتحليل .ويهيء الفرصة لتثقيفه بالمعانى الأدبية والفلسفية . أما قصيدةالبحترى فقد سقناها للتدليل على وجود التصوف في الولاء

ز ٠ م

كلمة الأستاذ حسن مظهر

هذا سِفرٌ جديد من أبلغ وأروع ما ولدته العقول العربية في العصر الحديث . . . لا تكاد عيناك تقعان عليه بمجلديه الكبيرين حتى تدهشك ضخامته . . . وإذا ما قلّبته بهرتك فصوله ودقائق بحوثه التي تستغرق أكثر من ثمانمائة صفحة ، فإذا ماطالعته سبحت في بحار مختلفة الأغوار من الأدب والعلم والفلسفة .

وقد ظهر العلامة الفيلسوف زكي مبارك في هذا الكتاب على غير ما عهدناه في سائر مؤلفاته : فهو عميق حتى لا تكاد تفهمه في بعض المواضع ، وحتى تحتاج إلى وقت طويل للتأمل والمراجعة لتستطيع إدراك مايقول ، وهو منطلق وجريء أكثر مما هو في « الأخلاق عند الغزالي » و « النثر الفني » و « حب ابن أبي ربيعة » ثم هو باحث ومحقق منطيق أرسخ مما نعرفه في « تحقيق نسب كتاب الأم »

ويتضح من المراجع التي أوردها في ذيل كتابه للرجوع إليها أنه قد استوعب المكتبة العربية من عهد « العين للخليل بن أحمد » إلى اليوم ! ولم يستوعبها فقط بل صهرها صهراً في بوتقة وعيه الضخم وإحساسه الزئبقي ، واستخرج من هذه العملية الذهنية الشاقة الطويلة الأمد خلاصة التصوف وألوانه وفروعه وأسبابه ، وأثره في الظواهر الفنية والأدبية والنفسية .

* * *

وقد رأيت الكتاب لأول وهلة فزعمت أنه لا يعدو أن يكون مرجعاً علمياً

هائلا في التصوف ، ولكني بعد أن قرأته أدركت أنه من تلك المؤلفات الأخلاقية النادرة التي تمتلك الرأس والحس معاً ، فهو كتاب يشحن الذهن بأفكار رفيعة ، دقيقة ، ويحرك الملكات العقلية لتفهم وتهضم ، ويهذب القوى النفسية ويعمل على تطهيرها بما يزرعه في الحساسية من ميل إلى اللذات العليا : لذات الألم والصبر والقناعة ، والوداد ، والوفاء ، والشجاعة الأدبية .

وسر ذلك أن المؤلف قد تبحر وشطح في شرح وتحليل هذه النزعات ، وإيراد الحوادث المتصلة بها باعتبارها من صور الصوفية ، فقد اعتبر الدكتور زكي مبارك أن التصوف لايقتصر فقط على محض العبادة الدينية والتقرب إلى الله والتجرد من شهوات الدنيا ، وإنما هو كل إفراغ للقوى الروحية والعقلية في فكرة سامية ، ومن هنا كانت أول جرأة له في كتابه ، إذ خالف بذلك العقيدة السائدة عن مذهب التصوف بأنه وجدان ديني . وكان مفكراً حرًّا إذ حشر أبطال الصداقة والحب والمذاهب السياسية في معاشر المتصوفين ، وبلغ من انطلاق تفكيره وصفائه أن قال :

« وأبونواس الفاجر الفاسق الزنديق هو عندنا في بعض أطواره من الصوفية ، فقد مرت به لحظات كان قلبه فيها أرق من الهواء وأطهر من الماء ، فما الذي يضر لو جعلنا أشعار أبي نواس في الزهد من آثار التصوف . ؟ ! »

* * *

ومن أبرز مايلاحَظ في الكتاب أن شخصية الدكتور زكي مبارك متجلية في كل الفصول والدراسات الخاصة بالصوفية وأعلامها : فهو يسرد وينتقد في آن واحد ، ولا ينخفض عن مستواه في أي فصل ، ولا يترك شاردة يمكن أن يأخذها الناقد عليه ، ويسير متنقلاً من فصل إلى آخر تنقل الخبير المتمكن ،

المتأثر بما يقول ، فيعرض أخفى النواحي الأدبية والأخلاقية في الشخصيات والأشياء التي يتحدث عنها ، ثم يكوّن له رأياً مستقلاً قد ينسف به آراء من سبقوه و يتهكم فيه ماشاء له التهكم اللذاع ، وهو في ذلك يشبه رجال الأدب العالميين ، و يذكرنا بجرأة الفيلسوف نيتشه في مهاجمة الأفكار التي لايقرها

وتبدو هذه الظاهرة على أشدها في الفصول التي تناول فيها أخلاق الصوفيين وآدابهم وفلسفتهم ، وأكثرها في الجزء الثاني في أبواب (المهلكات والمنجيات) و (آداب الطعام) و (آداب الزواج) و (آداب الأخوّة) إلخ . . . وكذلك الفصول التي عقدها عن (ابن عربي) و (الشعراني) و (الحسين بن منصور الحلاج) و (عبد الغني النابلسي) و (عبد الكريم الجيلاني)

* * *

وقد قام الدكتور زكي بجولات كبيرة على غاية الإصابة في عالمي الحب الإنساني والحب الديني عند المتصوفين ، وأسهب في الحديث عن المدائح النبوية والأدعية والأوراد والاستغاثات والأحزاب والوصايا والنصائح والمقامات والأحوال والتجريد والأسباب ، والدنيا في أذهان الصوفية . .

ولا تشك وأنت تطالع هـذه البحوث التي يتناهى بعضها في الدقة ، في أن المؤلف قد أطال النظر العلمي والفلسفي فيما وراءها ، وأنه قد تحوّل عالماً فلسفياً يتطلب دراسة خاصة . ويميناً إن زكي مبارك لم يحسن إلى العربية فقط بكتابه هذا ، بل أحدث مفاجأة جديرة بطول الإمعان ، وهي أنه يوجد في هـذا العصر الذي خمدت فيه القرائح المنتجة ، قريحة فذة بحاثة ينبغي أن نحتفل ونباهي بها ، وهي القريحة التي أنتجت كتاب التصوف الإسلامي ، هذا الكتاب الخالد الذي تقصُر أمامه قوى الإبداع ، وقوى الانتقاد معاً ، وهو كتاب فوق طاقة العقول .

(نقلا عن اللطائف) حسن مظهر



كلمة الاستاذ محمد على رزق

منذ أعوام ذهب الدكتور زكي مبارك إلى باريس في طلب العلم ، فصنع بجانب (النثر الفني) الذي نال به الدكتوراه (ذكريات باريس) التي قدم بها نفسه وصور بها آلامه وآماله إلى جهور قراء العربية ، وإذا كان كتاب (النثر الفني) يكشف عن زكي مبارك العالم ، فإن (ذكريات باريس) تكشف عن زكي مبارك الرجل المصنوع من لحم ودم أولاً ومن روح ثانياً ، وهكذا هو في (وحي بغداد) ذهب إلى بغداد ليكون أستاذاً للأدب العربي في دار المعلمين العالية ، فكان ذلك الأستاذ الذي سيذكره تلاميذه على مدى الأيام ، وهناك أخرج كتاب (عبقرية الشريف الرضي) وهو يدل مرة أخرى على زكي مبارك العالم . ثم كتب (وحي بغداد) و (ليلى المريضة في العراق) وهما يدلان على زكي مبارك الرجل ، فأما الكتاب الثاني فهو في طريقه إلى الظهور ، وأما الكتاب الأول فهو في أيدينا ونحن نكتب هذا المقال .

والكتاب يقع في ٤٢٠ صفحة من القطع الكبير ، وبه تسعة وخمسون فصلا

تقرؤها فتعرف الكثير من زكي مبارك الرجل ، ولا تعود في حاجة إلى من يصوره لك أو يقدمه إليك .

تقرأ له قصيدة (من جحيم الظلم في القاهرة إلى سعير الوجد في بغداد) فتؤمن بشاعرية الدكتور زكي ولا تخشى أن تقول له إن هـذه خير قصيدة جادت بها شاعريته .

ثم تقرأ (بغداد كما تصورتها وكما رأيتها) فتعجب بالرجل الذي قال كل شيء في تلك المدينة ثم لايبدو أنه أغضب أهلها ، ولست تحتاج بعد هـذا المقال لأن تسمع جديداً عن بغداد في أي ناحية من نواحي الحياة أو العمران فيها .

ثم تقرأ (المذاهب الأدبية في مصر) فتعرف زكي مبارك اللبق الأديب . وتقرأ (العروبة في مصر) فترى الرجل السياسي المـاهر الذي يقسم أنه لايعرف في السياسة حرفاً ثم يمضي في كلام كله سياسة . وتقرأ (النبي الصبور) فتلتقي زكي مبارك المسلم المؤمن . وتقرأ (الأسمار والأحاديث في ليالي رمضان) فتجد زكي مبارك الجد الفكه . وتقرأ (غريب الهوى في عيد القمر) فتمسك بتلابيب رجل الهوى . ثم تقرأ أحاديثه (إلى ليلى المريضة في الزمالك) فتمسك مرة أخرى بخناق الرجل الذي صرع الليليات في كل زمان ومكان . وتقرأ (بين الآباء والأبناء) فتحس صرامة الوالد في تربيـة أبنائه . وتقرأ (سهرات المسيو دي كومنين) فينـكشف لك الرجل الاجتماعي والإنسان الـكريم . وتقرأ (أول الحرب كلام) فتجد الذي يصارع وهو يكتب !

ثم تقرأ ثم تقرأ ، فتجد في كل فصل من فصول الـكتاب صورة جديدة وناحية خافية من شخصية زكي مبارك الرجل الذي يكتب اسمه بحروف من نار في كل كلمة يكتبها ، وفي كل رأي يبديه ، وكأنما هو في حرب دائمة مع الناس .

غير أنه في (فاجعة بغداد) سما بشخصيته و بنفسه إلى أبعد غايات السمو ، وكتب كلمة هي فصل الخطاب فى المأساة الأليمة التي وقعت فى بغداد ، فذهبت ضحيتها نفس كريمة من أعز أبناء مصر ، وكادت تودي بحياة آخر من أكرمهم عندها .

ولا نبالغ إذ نقول إن هـذه الـكلمة كان لها أطيب الأثر فى تهدئة غليان النفوس فى مصر ، فهذا شاهد من أهلها يكتب كلمة من أعماق قلبه تفيض بها دموعه فلا يجد المصريون مندوحة من الاستماع لصوت هـذا الابن البار ببلده ، وقد عرفوه صارماً فى الحق لايقعده عن التصريح به تهديد أو وعيد . لقد كان زكي مبارك فى هذه الـكلمة (دبلوماسياً) حنكته التجارب وصهرته فى بوتقتها فكان الرأي الذي صدر عنه بلسماً للجروح ومهدئاً لجزع النفوس ، ولا ندري هل تشكره مصر أم بغداد ؟ أما نحن فقد شكرناه وحمدنا له هذا الصنيع .

والـكتاب بعد ذلك يحتاج إليه الطالب فىمدرسته كما يحتاج إليه الأديب، ولا يستغنى عنه الرجل المثقف والمهذب ، فهم يجدون فيه مادة وفيرة تغذيالنفس وتصقل العقل ، إنه يضع أمام أنظارهم جميعاً صورة لفترة من الفترات التي عاشها رجل فى بلد غريب ، وظل يذكر بلده و يواصل درسه و يكافح عننفسه محتفظاً بشخصيته الجبارة ، وطابعه الخاص فى كل عمل يعمله ، أو رأي يصدر عنه ، ثم عاد سليماً معافى كما ذهب ، وقد ازداد علماً وتجربة وفهماً ، وكتب لنفسه صفحة جديدة من صفحات المجد .

محمد علي رزوقه

مؤلفات زكي مبارك

حب ابن ابي ربيعة وشعره (الطبعة الثالثة)

البدائع (الطبعة الثانية في جزأين)

الأخلاق عند الغزالي

مدامع العشاق (الطبعة الثانية)

الموازنة بين الشعراء (الطبعة الثانية)

La Prose Arabe au Ive Siècle de l' Hégire

ديوان زكي مبارك

ذكريات باريس

تحقيق نسب كتاب الأم

شرح الرسالة العذراء (ومعه بحث مفصل بالفرنسية موضوعه :

L' Art d 'écrire chez les Arabes au IIIe siècle de l' Hégire

اللغة والدين والتقاليد

النثر الفني (في مجلدين كبيرين)

عبقرية الشريف الرضي (في جزأين - الطبعة الثانية)

المدائح النبوية في الأدب العربي

التصوف الاسلامي (في مجلدين كبيرين)

وحي بغداد

ليلى المريضة في العراق (في ثلاثة مجلدات)

